

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بالمملكة المغربية

أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني يقول

شخصيتنا مبنية على وحدة المذهب والعمل بالسنة وكتاب الله

كان المغرب دائما حاضرا على خريطة العالم، وهو محترم وله وزن وثقل

الاحتفال بذكرى مرور اثني عشر قرنا على ولادة الإمام مسلم

العدد 266 محرم 1408 / غشت 1987



دعوة الحق

شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
الرباط - المملكة المغربية



أسسها
جلالة المغفور له
محمد الخامس
قدس الله روحه
سنة
1376 هـ — 1957 م

التحرير:
الهاتف: 623.60

الإدارة والتوزيع: 636.93 - 627.03 - 627.04 - 608.10

الاشتراكات: في المملكة المغربية: 70 درهما
في العالم: 80 درهما

الحساب البريدي: رقم 55-485. الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat

● المقالات المنشورة في هذه المجلة تعبر عن رأي كاتبيها ولا تلزم المجلة أو الوزارة التي تصدرها ●

تهنئة

احتفل الشعب المغربي والأمة الإسلامية قاطبة ببزوغ فجر السنة الهجرية الجديدة

وبهذه المناسبة العظيمة تنتهز "دعوة الحق" الفرصة لتتقدم إلى مقام أمير المومنين سبط النبوة جلالة الملك الحسن الثاني أعز الله أمره بأحر التهاني والتمنيات داعية لجلالته بالنصر والتمكين والسعادة وطول العمر وأن يحفظه في ولي عهده الأمير الجليل سيدي محمد وصنوه صاحب السمو الملكي الأمير السعيد المولى الرشيد وسائر أفراد الأسرة الكريمة وأن يكلأهم جميعا بعين الحفظ والرعاية، وأن يعيد أمثال هذه المناسبة الخالدة على الشعب المغربي والأمة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها - وقد تحررت أراضيها وشعوبها، وتوحدت كلمتها وتحققت عزتها

إنه سميع مجيب



الحماية فرضت علينا في وقت ضعفنا فيه مرضنا المستمر على الوحدة والاتحاد

احتفل الشعب المغربي بالذكرى الرابعة والثلاثين لثورة الملك والشعب المجيدة، وبهذه المناسبة وجه أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني رائد الجهاد والتحرير إلى الأمة نص الكلمة التالية :

الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه.

شعبي العزيز :

في مثل هذا اليوم قبل 34 سنة وقع من الأحداث ما أعطى للمغرب بلدنا الفرصة لأن يظهر ما يتوفر عليه من قدرات وما هو كفيل وجدير به من احترام وتقدير.

إن ما وقع يوم 20 غشت 1953 وما تلاه من الأحداث أظهر أمرين مهمين :

الأول : من طرف الأسرة الصغيرة المغربيـــة. وعلى رأسها محمد الخامس طيب الله ثراه التي أعطت للبيعة كامل معناها وما تلا يوم النفي من أحداث أعطى للأسرة الكبيرة الفرصة لأن تعطي للوطنية كامل فحواها.

وهكذا شعبي العزيز عشنا غمرة من الزمان كان فيها العاشقان المتيمان اللذان أبعدهما الاستعمار : كان في هذه الفترة تبادل مستمر بين مغرمين : ملك وشعبه وشعب وملكه، واكتسى هذا الغرام وهذه العواطف أقصى ما يمكن أن تكتسيه من معاني الالتئام والوفاء والصبر والتحمل.

شعبي العزيز :

لست هنا لأتطرق لهذه الفترة من الزمان لأنه منك من عاشها، ومنك من يدرسها ويتعلمها، رغبتي اليوم أن أتطرق إلى جانب من جوانب تاريخنا.

شخصيتنا مبنية على وحدة المذهب والعمل بالسنّة وكتاب الله

علينا أن نحتفظ بشخصيتنا ومقوّمات شخصيتنا

إن ما وقع يوم عشرين غشت وهو نفي محمد الخامس عن عرشه من طرف السلطات الاستعمارية كان وليدا لفقدان المغرب استقلاله وسيادته، وعلينا إذن أن ننظر إلي الأسباب التي هيأت تلك الحماية والتي جعلت تلك الحماية تنفي ملك البلاد، فالحماية فرضت علينا في وقت كنا ضيعنا فيه حرصنا المستمر على الوحدة والاتحاد، في وقت ضيعنا فيه الغيرة على بلادنا فكان آنذاك بعض المغاربة يوما بعد يوم يصبحون إما محميين فرنسيين، أو محميين إنجليز، أو محميين ألمان، أو محميين أمريكيين، وهلم جرا...

جاء ذلك الوقت اللعين وقت الحماية لأن بعض المغاربة تنكروا للمشروعية.

وجاء ذلك الوقت لأن المغرب تنكر لشخصيته ومقومات شخصيته، ولكن الله سبحانه وتعالى سلم، فجاءت الحماية وكان يمكن أن يفرض علينا أكثر من الحماية، إلا أننا حتى في تخاذلنا وتكاسلنا بقينا نعطي الحجة تلو الحجة على إننا شعب ليس كالشعوب، ولا يمكن أن يطبق عليه ما طبق على كثير من الشعوب.

شعبي العزيز :

إن العالم الذي نعيش فيه عالم التلوث وعالم التداخل المضر المسيء.

علينا شعبي العزيز أن نحتفظ قبل كل شيء بشخصيتنا ومقومات شخصيتنا، فشخصيتنا مبنية على وحدة المذهب والعمل بالسنة وكتاب الله سبحانه وتعالى، ومبنية علي التضامن وعلى إحساسنا بأننا أمة ذلك الإحساس الذي يجعلنا نئن ونتضرر كلما تضرر فرد من مجتمعنا. في المغرب كان أو خارج المغرب.

مقومات شخصيتنا هو أننا ربما الشعب من الشعوب القليلة التي ليست فيه طوائف دينية، أو أقليات، فإذا نحن قارنا يوميا ما هو جار في بعض الدول من الشرق وهي دول عربية وأكثر سكانها مسلمون نرى أن الطائفية والأقليات الدينية كانت من الأسباب المهمة إن لم أقل كانت الأسباب الوحيدة في تمزق الشمل وضعف الشخصية.

إن الطائفية والأقليات تقتضي أن يحكم العدد الكبير العدد الصغير، ويقتضي كذلك بعد زمان أن ينتقم العدد الصغير من العدد الكبير. وهكذا يبقى

السلم والطمأنينة والسلام كل ذلك يبقى لا هو مستقر يمينا ولا هو مستقر شمالا، بل يبقى كريشة دامية قاتلة لا يمكن بعد ذلك لأي بلد أن يتنصل منها أو أن يداوي جروحها.

علينا شعبي العزيز أن نعلم أن العالم قد تغير، فحتى لو أننا فرضنا مثلا أننا قررنا ملكا وشعبا بالإجماع التام بدون استثناء أن نطلب من أي دولة في العالم من الدول الكبرى أو المصنعة أن تحمينا وأن تفرض علينا من جديد عقد حماية لما أرادت ولا قبلت تلك الدولة أن تفرض علينا عقد حماية، ولكن بإمكانها أو بإمكان بعض الدول أن تفرض علينا الحماية الفكرية، بإمكانها أن تفرض علينا الحماية الخلقية، وبإمكانها أن تلحق بالمغرب وبالرجل المغربي وبالمرأة المغربية المسخ الذي ليس بعده رجوع إلى الأصالة ولا إلى الشخصية الحقيقية.

أقول هذا شعبي العزيز لأنه طيلة تاريخ المغرب نرى دون أن نضطر إلى تعداد الوقائع أو سرد التواريخ أنه كلما وقعت بالمغرب واقعة إلا وكان دائما سببها التخاذل والتنكر للقيم وتفتت الأسرة التي تتكون منها الأسرة المغربية الكبيرة والتنكر للاستقامة ونوع من العبث بالتقاليد بادعاء أن التقاليد تقف في وجه الشعوب دون تقدمها ورقيها.

شعبي العزيز :

دافع عن عرضك وعرض أسرك وشرف أشخاصك وأفرادك وجماعاتك.

شعبي العزيز :

دم كما كنت دائما مسلما سنيا.

شعبي العزيز :

دم كما كنت دائما رجلا اجتماعيا تألف وتؤلف، تخدم الناس ليحبوك، وتخدم المجتمع ليحترمك، وتخدم نفسك لتبقى واقفا على رجليك.

واعلم شعبي العزيز أن الزمان الذي نعيش فيه سريع التحولات، فلابد لنا إذن أن يكون أمامنا حبل من شأنه أن يكون بمثابة الركيزة إذا ما تلاطمت الأمواج واحتارت الأفكار وصعب الاختيار، مكنتنا من أن نبقي المغربي والمغربية أولئك الذين من يوم ما أصبحوا مواطنين لبلد ولوطن يسمى المغرب، بقوا على العهد ودافعوا على نفسهم وعلى بلدهم وبالتالي أمنوا مستقبلهم.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يديم علينا أولا هذه الخصال، وثانيا أن يهبنا الحكمة والعقل للحفاظ عليها وللتشبث بها، كما أسأل الله سبحانه وتعالى أن يهب أبناءنا وحفدتنا العقل والرشد والهداية حتى يمكنهم، كما فعل آباؤهم وأجدادهم ومن سبق أجدادهم. أن يفعلوا بتاريخهم ما فعل الآخرون السابقون بتاريخهم حتى يبقى هذا البلد الأمين مثلا يحتذى، وحتى يبقى اسمه في التاريخ دائما مرادفا للهناء والسلام والعمل والطمأنينة.

﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد أن هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾.

ربنا أمطر شآبيب رحمتك على ضحايا عشرين غشت وما تبع عشرين غشت وعلى رأسهم والد الجميع سيدنا محمد الخامس طيب الله ثراه وجميع الذين وهبوا أنفسهم وحريتهم وحياتهم ليعيش المغرب الكريم بلد الله وبلد كتاب الله وسنة رسوله.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني يقول في خطاب عيد الشباب المجيد:

كان المغرب دائما حاضرا على خريطة العالم، وهو محترم وله وزن وثقل

وجه أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني خطابا إلى الأمة بمناسبة عيد الشباب الذي يصادف هذه السنة الذكرى الثامنة والخمسين لميلاد جلالته.

وكان جلالة الملك خلال إلقائه لهذا الخطاب السامي محفوفا بصاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير سيدي محمد وصاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد وصاحب السمو الأمير مولاي هشام.

وفيما يلي الخطاب الملكي السامي:

الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه.

شعبي العزيز :

نحتفل اليوم كما هي العادة بعيد الشباب. وقد سمي عيد الشباب حتى يمكن أن يبقى للمغرب بلدنا العزيز فرصة تتاح له فيها أن يشيد بالشباب وأن ينصح الشباب ويخطط للشباب.

إنك تعلم شعبي العزيز أن عجلة التاريخ إذا كانت لا ترحم الأفراد فإنها كذلك ليس فيها آية سماحة حتى بالنسبة للشعوب. وقد رأينا منذ القدم القديم شعوبا أينعت وأعطت وبذلت وبعد ذلك أصبحت على منحدر طريق التاريخ أو طريق الاستسلام.

فالتاريخ وإن كان لا يرحم فإنه يعرف من يحالف ويعرف كيف يختار صديقه ورفيقه في الطريق الطويل. كما أن التاريخ له خبرة بالذين يتقهقرون ويتخاذلون ويتركون أنفسهم في مهب الريح ومهب الأحداث ومهب المسيرة الطويلة لا يعطون لأنفسهم قيمة حتى أصبحوا لا يعطيهم أي أحد قيمة.

وهذا التاريخ ـ شعبي العزيز ـ من حسن الحظ مارسته ومارسك، مارسته منذ ألف ومائتي سنة... التاريخ الذي نعرفه في الإسلام. وإن كان هذا التاريخ في بعض الأحيان قاسيا جدا، فقد كان هو الأول يرضخ بعد جبروته لإرادتك ولشبابك ولتقريرك داخل نفسك في أن تتحكم في الأحداث وأن تصيرها كما تريد، وأن تعمل بها ما تريد.

فعلينا إذن شعبي العزيز أن نعلم هذه الحقيقة حق العلم وأن نتحلى بها ألا وهي أنــه لا يقبر إلا من إراد أن يقبر، ولا يتقهقر إلا من أراد أن يتقهقر، أما الذين جعلوا هدفهم الفضيلة وجعلوا مرماهم العمل الجدي وجعلوا قصدهم مسيرة المجد ومسيرة البناء فيمكنهم أن يقولوا إننا بإرادة الله وإرادتنا قهرنا حكم التاريخ ولم يبق، ولن يبقى للتاريخ علينا أية سيطرة متحلين مع ذلك بالتواضع الذي يجب على كل من يفتخر وكل من يفخر.

فماذا سنفعل بك يا شبابنا في السنين المقبلة ؟ ولماذا سنجندك يا شبابنا للأحقاب الآتية ؟ ولماذا سندعوك أيها الشباب للاحقاب المنتظرة ؟

أولا علينا أن نقول لك : إياك ثم إياك أن تحيد عن طريق المجد ذلك السبيل الذي إن كان يحمل في طياته الأخطار والأخطار فهو دائما يصل بصاحبه إلى ما يريد أن يصل إليه.

فعلينا إذن أن نهيئك للقرن المقبل، وعلينا إلا نجعل منك متفرجا ومنتهزا فقط، بل علينا أن نجعل منك مخترعا ومبتكرا ومشاركا في بناء عالم ومجتمع القرن المقبل. ولا يتأتى هذا إلا إذا نحن بعد النصيحة وبعد التربية سلحناك بما يجب تسليحك به من المعرفة النافعة والعلم المجدي.

ذكرنا التربية في الأول علما منا أن الأخلاق هي مفتاح كل خير، وأن التحلي بما يجب أن يتحلى به المرء ليخوض جميع ميادين الحياة هي أن يكون مهذبا ومؤدبا. قال النبي ﷺ «لقد أدبني ربي فأحسن تأديبي» وقال الشاعر :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت
فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ويقول المثل العامي عندنا : «الترابي سبقت الجامع».

فلنفرض - شعبي العزيز - أننا هذبنا أولادنا وأبناءنا وجعلنا منهم المواطن الصالح والمومن الرابح والمسلم الناجح.

فعلينا أن نفكر في أن نسلحهم بالعلم والمعرفة، ذلك السلاح الذي بدونه لا يمكن لأي شعب من الشعوب أن يقف الوقفة اللازمة في الصراع المستمر مع التاريخ ومع من يجاوره من البلدان.

فلهذا - شعبي العزيز - قررنا أن نجعل من هذه السنة المنطلق الحقيقي والموضوعي والمطابق لشخصيتنا وعبقريتنا، وأن نجعل منها سنة كيفية تلقين أبنائنا ما يجب أن يعلموه وما عليهم أن يقتنوه.

في الأسابيع الماضية - شعبي العزيز - توجهنا إليك وحينما نقول شعبي العزيز نعني الكبار والكهول والشباب، لنقول لك هذا هو منهجنا في التعليم وهذا هو سبيلنا للوصول إلى ما نريد.

فعليك أن تعلم - شعبي العزيز - أن إصلاحنا لامتحانات البكالوريا ليس نهاية فقط، بل هو وسيلة لتهيء المغربي الصالح ليلج الميادين التي ستديم بعون الله ورعايته بلاده في مقدمة البلدان.

فلهذا رأينا بعدما فكرنا أن التنسيق بين السياسة والتربية والتعليم يجب أن يكون محل عنايتنا، وبعبارة أوضح اخترنا من الناحية السياسية والإدارية اللا مركزية، حتى يتمكن جميع المغاربة شمالا وجنوبا شرقا وغربا أن يتناولوا بيدهم أو بقلمهم أو بعملهم المسؤولية

اليومية، تلك المسؤولية التي يصبح في نهاية المطاف نتاجها هو المسؤولية الوطنية.

وحينما رأينا أن هناك هوة شاسعة بين التنظيم السياسي والإداري للبلاد وبين تكوين المواطنين وتكوين المتناولين لتلك اللا مركزية، قررنا أن نخرج من هذه المتناقضات، وأن نطبق في ميدان التعليم ما آتى أكله وثماره ولله الحمد من الناحية السياسية والاجتماعية.

فإذا كانت مدينة الرباط هي العاصمة، فلا يمكنها من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والإدارية أن تلم بجميع المشاكل، وبالأخص صغيرها. ولا يمكنها كذلك أن تأتي بالحلول المرتضاة والمطلوبة. فلهذا من الضروري والمنطقي أن نعلم أنه في ميدان التعليم نفس المشكل هو نفسه. علينا أن نتحرر من العاصمة وأن نلقن أبناءنا العلم والمعرفة، والحالة هذه ليكون الأساتذة أقرب ما يمكن من تلامذتهم، وأن تكون البيئة الجهوية أقرب ما يمكن من التلاميذ، وليكون أولو العلم والرأي وأصحاب المسؤولية الجماعية مشرفين ومسؤولين كذلك على تكوين المغربي؛ مغربي القرن الواحد والعشرين.

فلهذا ارتأينا أن نقسم المغرب إلى أكاديمية تكون تابعة للجامعات، ففي كل مدينة توجد فيها جامعة ولو لم تكن كاملة الأطراف يجب أن تكون هناك أكاديمية. وتلك الأكاديمية يجب أن تكون مسيرة من لدن أساتذة للتعليم الثانوي، سيسهرون بما نعرف عنهم من إخلاص ونزاهة وتعلق بمهنتهم وتقدير لمسؤوليتهم على تطبيق البرنامج الوطني التطبيق اللازم، وهم الذين سيسهرون على برامج الامتحانات ومواضيعها، وعلى أن تطبق البرامج تطبيقا يليق بمستوى تلامذتهم في المستقبل.

فإذا قام مديرو الأكاديميات وإخوانهم من أساتذة التعليم الثانوي وبالطبع مع أساتذة في التعليم الابتدائي والعالي سيكونون متواجدين في مجلسهم بتطبيق هذه التوجيهات وهذه الفلسفة يمكننا أن نقول إننا خرجنا من المشكلة القائمة الذات اليوم علما منا أن مشاكل التعليم لا يمكن أن نقول إنها تنتهي يوما من الأيام.

فمشاكل التعليم تقتضي التطوير، والتطوير يقتضي الابتكار، والابتكار حتى لا يصبح حلما عليه أن يطابق الواقع، ومطابقة الواقع هي بيد المتصرفين في التعليم أي بيد الأساتذة.

ويمكننا من الآن أن نتخيل أن هذه الأكاديميات قد أصبحت قائمة وبدأت تشتغل وتمارس مسؤوليتها، علينا من الآن أن نتخيل شبابا متحفزا ومتحمسا ويتسم في تكوينه بسمتين : السمة الوطنية لأننا كلنا مغاربة، والسمة الجهوية لأن لكل إقليم وجهة عبقريته وشخصيته وثقافته الداخلية.

كنت دائما شعبي العزيز أقول لك أن المغرب بلد حباه الله سبحانه وتعالى بصفتين :-صفة الجماعة الجماعية، فالمغرب هو ككل حباه الله كذلك بصفة التنوع... بعبقرية أهل الجنوب وأهل الشمال، وعبقرية الشرقيين والغربيين وعبقرية أهل الوسط... وحينما تكون هذه الأكاديميات قد مارست مسؤوليتها لمدة ثلاث سنوات حتى نرى أكلها في السنة الأخيرة من الامتحان القادم للبكالوريا والذي سيبقى اسمه البكالوريا، آنذاك سندعو الأكاديميات لعقد اجتماع رسمي وعلني لتضع برنامجا للتعليم ولفنونه وللأسبقيات في التعليم يصبح آنذاك محل دراسة مهمة من لدننا ومن لدن حكومتنا وبرلماننا.

إلى يومنا هذا لم يكن الأساتذة يجتمعون مع الإدارة إلا للنقاش والمذاكرة فيما يخص حالتهم المادية أو حالتهم من ناحية الحصص أو التنظيم.

والآن سيصبحون مدعوين للنظر في عمق المشكل، وأعتقد أن أساتذتنا في التعليم الثانوي بالخصوص مع إخوانهم في التعليم الابتدائي والعالي سيرفعون إلينا وللمغرب كافة نتيجة تفكيرهم وتجربتهم، وسيقترحون علينا ما ننتظر منهم بعد ثلاث سنوات من البرامج والتوجيه وكيفية التلقين، ما سيجعلنا مطمئنين على مستقبل أبنائنا وبالتالي على مستقبل بلدنا.

شعبي العزيز : قلت لك في البداية أن عجلة التاريخ لا ترحم فإياك ثم إياك أن تنسى هذه الحقيقة المغرب بلد جميل وطقسه جميل وجباله جميلة شواطئه مريحة صحراؤه خلابة، كل هذا يدعو إلى الكسل وإلى التفاؤل الجارف، ويدعو إلى أن يضع الإنسان سلاح الحذر ليستمتع ويتمتع ببلده و باللا مبالاة.

شعبي العزيز : إن أباءك وأجدادك ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا لأنهم عملوا بالنهار وقاموا الليل، ولأنهم بعدما يحمدون الله سبحانه وتعالى على ما أعطاهم يومهم تجندوا ليلهم ليزدادوا غنيمة في غدهم.

فعليك شبابي العزيز وشعبي العزيز أن تتحلى وتتسلح بشيئين : أولا : حمد الله سبحانه وتعالى على نعمه وشكره على آلائه، وعليك كذلك أن تتسلح بالنظر إلى المستقبل بعين الحذر، لا أقول بعين الخوف لأن الخائف لا يخوض ولا يجول ولا ينازل الدهر ولا الأحداث. عليك أن تنظر بعين الحذر المتبصر الذي يعلم أن المجد والنجاح على مستوى الوطن من أصعب ما يكون أن يدرك. وكما يقول الشاعر، وإن كان قد قالها في ميدان آخر :

هو الماء يعز على قابض
ويمنع زبدته من مخاض

فالتاريخ والغد والنجاح هو كالماء. وحينما نقول يعز بمعنى لا يستحيل بل يصعب يعز على قابض ولا يمنع الزبد من المخاض، ولكن يجب العمل الجدي والجاد، فالعلم والمجد شيئان متآخيان في هذه الحكمة يمكن أن نقول أن المجد إن أعطيته كلك أعطاك بعضهم إن أعطيته بعضك لم يعطك شيئا.

فالمجد شعبي العزيز هو العمل اليومي ولا يمكن أن نقول أن العمل اليومي ينقسم إلى عمل شريف وعمل دون ذلك، فكل عمل هو عمل وكل عمل يشرف ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ صدق الله العظيم.

فالعمل ليس مسألة كم، بل مسألة كيف، فإذا أخذ كل واحد منا على نفسه أن يعمل حتى تبقى هذه البلاد مستمرة في نموها وعنفوانها ومسايرة للتاريخ البناء وجاهزة لاستقبال القرن المقبل، لي اليقين أننا سننجح، إنني أقول لك هذا شعبي العزيز وأنا أرجع بذاكرتي إلى ثلاثين أو خمس وثلاثين سنة، فلا أظن أن إنسانا زار المغرب اليوم بعدما زاره عشرين سنة من قبل يمكنه أن يعرف المغرب الجديد، نحن نعيش في البلاد فلا ننتبه لتطورها، فالناس الموجودون خارج البلاد هم الذين يلاحظون تطور المغرب، وهم الذين يعرفون ويقيمون عمل المغرب وما تحمله وكابده ليصل اليوم إلى ما وصل إليه.

فلهذا شعبي العزيز يجب على الشباب وعلى الأجيال المقبلة إلا تقف عند هذا الحد، بل يجب عليهم أن يكونوا طموحين علما منهم أنهم إذا سايروا التاريخ بكيفية عادية نبذهم التاريخ ونسيهم، ولكن إذا هم تسابقوا مع التاريخ وتحدوا التاريخ بكيفية معقولة فسيمكنهم آنذاك لا أن يربحوا التاريخ ولكن أن يبقوا مسايرين للتاريخ.

اثنا عشر قرنا في الإسلام اثنا عشر قرنا في التاريخ اثنا عشر قرنا واسم بلدك شعبي العزيز يذكر مرة باسم المغرب، ومرة باسم المغرب الأقصى، ومرة يسمى مملكة مراكش، ومرة يسمى مملكة فاس، ولكن ما ثبت أن مؤرخا أو جغرافيا في حقبة من الأحقاب نسى اسم المغرب، اختلفت أسماء المغرب فكان هذا يسميه كذا وهذا يسميه كذا، ولكن كان المغرب دائما حاضرا على خريطة العالم وهو محترم وله وزن وقيمة وثقل.

فعليك شعبي العزيز وشبابي العزيز أن تسير على هذا النهج، وعليك أن تعلم أن مسيرة البلاد ليست معلقة في رقبة واحدة، مسيرة البلاد هي عمل الجميع، هي عمل الملك وعمل الشعب، ولكل منهما مسؤولية، ولكل منهما دور، فعلينا إذن أن نتسلح للمستقبل وأن ننظر إلى المستقبل بعين ملؤها التفاؤل والجد، فإذا نحن شعبي العزيز انطلاقا من هذه السنة أخذنا على أنفسنا شيئا واحدا لاشيئين ألا وهو النظر بجد دون ديماغوجية ولا تملق للجماهير ولا كذب لأغراض خسيسة وذليلة إذا نحن توجهنا توجيها صادقا مخلصا لإصلاح تعليمنا وللأخذ بيد شبابنا ولفتح الآمال أمام كل مغربي بدأ الحياة باسم الله سنكون قد هيأنا للسنوات أو للأحقاب المقبلة ذلك الجيش وتلك الجماعة التي ستبقى اسم المغرب مذكورا أولا مسموعا ثانيا ومحترما أخيرا.

وما ذلك عليك شعبي العزيز بعزيز.

مارستك منذ أربعين سنة أقول أربعين سنة لأني بدأت العمل الحقيقي على المكتب والأوراق في سن الثامنة عشرة. أي أربعون عاما وأنا أرى مرة أفهم ومرة لا أفهم، ولكني خدمتك أربعين عاما بنية عمياء وبوجدان مغرم. كان هناك الوجدان ولكن كان أيضا التكوين. فهذا هو الذي أريده منك شعبي العزيز، المغربي مغربي وسوف يكون دائما له الوجدان كشطر في وطنيته والشطر الثاني وهو العرفان. فالعرفان بدون وجدان يجعل منا مرتزقة، والوجدان بدون عرفان يجعل منا شعراء، أما الوجدان والعرفان فيجعلان منا المغربي الذي حتى إذا تغير بيته أو مناخه أو لباسه بقي ذلك المغربي الذي عانق الإسلام ورضي بعد الله لبلده الإسلام دينا، وأقسم أمام الله أن لا يضيع أمانته الوطنية.

فاذن إلى الامام لفتح آفاق جديدة أمام شبابنا، وإلى الامام لفتح السبل المجدية التي بعد فتحها لن يبقى أي باب مسدود أمام أي شاب من شبابنا، علينا أن نتسلح ونعمل ونكد لهذا علما منا أن الله سبحانه وتعالى لن يخيبنا، وسيكلل أعمالنا بالنجاح وسيثيبنا سبحانه وتعالى على ما يعلمه في قلوبنا ونياتنا ﴿إن يعلم الله في قلوبكم خيرا يوتكم خيرا﴾ صدق الله العظيم.

والسلام عليكم ورحمة الله.

أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني ينوه بجهود وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ويقول:

المغاربة حين يذهبون للحج يكونون مثالا في عبوديتهم وعبادتهم وسلوكهم

استقبل أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني ـ نصره الله وأيده ـ أعضاء الوفد الرسمي المتوجه إلى الديار المقدسة برئاسة الدكتور محمد الهلالي وزير التربية الوطنية، وعضوية السادة : مصطفى بن كيران عامل بوزارة الداخلية، وخليل الدخيل عامل صاحب الجلالة على إقليم سمارة، وبناصر الناصري سفير صاحب الجلالة بدولة قطر، والكولونيل محمد أبو الحجول الإدريسي من قيادة الدرك الملكي، والدكتور حمداتي شبيهنا عضو الديوان الملكي والدكتور محمد يسف رئيس جمعية العلماء، خريجي دار الحديث الحسنية، وأحمد شوكي مكلف بالدراسات بوزارة النقل. والتجاني الغانمي مدير الملاحة التجارية بوزارة الصيد البحري والملاحة التجارية، ومحمد إريق نائب برلماني عن الاتحاد الدستوري، وإدريس الغزالي نائب برلماني عن التجمع الوطني للأحرار، والحاج عمر بوسكري نائب برلماني عن فريق الأصالة المغربية، والمفضل الدحمان نائب برلماني عن فريق حزب الاستقلال، ومحمد بن ديهاج نائب برلماني عن الاتحاد الاشتراكي، ومحمد رشادي نائب برلماني عن الفريق الديمقراطي، وعبد الرحيم بوكماخ الوكيل العام لجلالة الملك بإقليم بني ملال ومحمد غازي السقاط مستشار بمحكمة الاستئناف بسطات.

وقد خاطبهم جلالة الملك بالكلمة السامية التالية :

«الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه.

حضرات الممثلين للشعب المغربي وأعضاء الوفد الذي سيقوم بأداء فريضة الحج وبزيارة الروضة الشريفة.

أولا إننا نهنئكم على هذه الحظوة وعلى كون الله سبحانه وتعالى قد أتاح لكم القيام بفريضة الحج. تلك الفريضة التي لا تكون فريضة إلا إذا كانت هناك الاستطاعة موفرة من جميع الجهات وفي جميع الميادين.

إننا نعلم حق العلم بما مارسناه في رعايانا، أن المغاربة ولله الحمد حين يذهبون لأداء فريضة الحج يكونون مثالا في عبوديتهم وفي عبادتهم وفي سلوكهم وفي تضامنهم.

ولنا اليقين أنكم ستحذون حذو من سبقكم. وأن وفدنا هذا سيجعل في مقدمة مهامه بعد الوقوف والطواف والسعي، الأخذ بيد جميع المغاربة الذين ذهبوا للحج والتطلع والاستطلاع على حالتهم المادية والمعنوية وإن كان تنظيم الحج ولله الحمد يتحسن سنة بعد سنة وباستمرار.

وبهذه المناسبة نريد أن نهنئ وزيرنا في الأوقاف والشؤون الإسلامية وكافة أعضاء الوزارة. كما نريد أن ننوه بجميع زملائه الوزراء في الحكومة الذين سهلوا له المأمورية من وزارة المالية ووزارة الصحة ووزارة النقل ووزارة الداخلية بالنسبة للجوازات.

وهنا يظهر أن المومن للمومن هو جدار واحد وسلسلة واحدة لا تنقطع عراها.

وأملنا فيكم أن تدعوا لنا وتدعوا لشعبنا وتدعوا لجميع الأسر حتى يزيدنا الله سبحانه وتعالى توفيقا وسدادا وصمودا. كما نأمركم أن تبلغوا جلالة الملك فهد شقيقنا وخادم الحرمين الشريفين عواطفنا الأخوية وأشواقنا المتزايدة لرؤيته وأن تبلغوه دعواتنا له ولأسرته ولبلده ولشعبه بموفور الصحة والهناء والسلم والسلام والطمأنينة.

أما أنتم فإننا ندعو الله سبحانه وتعالى أن يرافقكم ويواكبكم بالسلامة حتى ترجعوا، وأن يجعل حجكم حجا مشكورا، وأن يثيبكم على ما في نواياكم وقلوبكم. وإياكم كما قلت أن تنسونا بالدعاء.

إن هذا البلد الأمين يتوفر ولله الحمد على أشياء طيبة وخيرات من الله ولكن سيبقى دائما هذا البلد الأمين وشعبه وخادمه الأول مفتقرا دائما إلى رحمة ربه وعون ربه وسداد ربه.

والسلام عليكم ورحمة الله.

رسالة أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني الى حجاجنا الميامين :

اجعلوا من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلكم الأعلى وإسوتكم الحسنة

وجه أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني رسالة إلى حجاجنا الميامين. وقد تلا نص الرسالة الملكية وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية السيد عبد الكبير العلوي المدغري أثناء توديعه للفوج الأول من الحجاج الميامين :

وهذا نص الرسالة الملكية السامية:

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه.

حجاجنا الميامين.

حفظكم الله ورعاكم والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

وبعد.

ففي هذه اللحظات السعيدة التي تتأهبون فيها لحج بيت الله الحرام، وزيارة قبر سيد الأنام، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، يطيب لنا جريا على سنة أسلافنا المنعمين وقياما منا بأمانة النصح والتوجيه التي ألقاها الله على عاتقنا أن نذكركم بأنكم مقدمون على مشاهد ربانية، وبقعة هي أشرف بقاع الدنيا التي تشد إليها الرحال وتحط عندها الآمال، حيث منازل الوحي ومشارق الأنوار، وأول بيت جعله الله مثابة للناس وأمنا ليشهدوا منافع لهم، ويجتمعوا فيه على كلمة سواء أن لا يعبدوا إلا الله ولا يشركوا به شيئا.

فأكثروا من الحمد لله تعالى على هذا التوفيق، وواظبوا على الشكر له سبحانه على هذا الفضل، وكونوا خير سفراء لبلدكم عندما تلتقون بإخوانكم الذين سيأتون من كل حدب وصوب، يبتغون ما تبتغون من فضل الله ورضوانه ورحمته وغفرانه.

كونوا معهم الاخوة الرحماء البررة الأصفياء وتجنبوا الجدال وكل شيء بذيء من الأقوال والأفعال امتثالا لقول الكبير المتعال : ﴿الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب﴾.

كونوا خير سفراء لبلدكم

واجعلوا من سيدنا رسول الله ﷺ مثلكم الأعلى وإسوتكم الحسنة في حركاتكم وسكناتكم وكل تصرف من تصرفاتكم، فقد كان ﷺ لين العريكة سهل الجانب موطأ الأكناف يألف ويؤلف، وهو القائل ﷺ ألا أخبركم بأحبكم إلي وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا الموطأون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون.

حجاجنا الأبرار.

أن من أبرز عنايتنا الفائقة التي مافتئنا نوليها في كل سنة لشؤون الحج والحجاج باستمرار ما توخيناه في هذه السنة لصالحكم، وأمرنا بتحقيقه لفائدتكم من إدخال تنظيم جديد يهدف إلى توفير المزيد من الراحة والاطمئنان لكم، وذلك بتهيء وضمان السكن المحترم الملائم لنزولكم ومقامكم، وتيسير وسائل النقل المريحة لكم، والزيادة في الأطر الدينية لإرشادكم وتوجيهكم، والأطر الإدارية والطبية التي ستسهر على شؤونكم وأحوالكم وصحتكم وعافيتكم، وتذليل الصعاب التي تعترضكم، وتقديم جميع الخدمات والمساعدات التي تحتاجون إليها بكيفية سريعة وناجحة.

وإننا لعلى يقين أن الله جلت عظمته الذي سخر لكم الوسائل ويسر لكم السبل للقيام بهذا الركن العظيم من أركان ديننا الحنيف سيوفقكم لأدائه على الوجه الذي يرضيه ويرضي رسوله ويشرف وطنكم.

نسأل الله تعالى أن يكتب لكم السلامة والعافية في الذهاب والإياب، وأن يجعل حجكم مبرورا وسعيكم مشكورا بفضله ومنه وكرمه، ونوصيكم بالدعاء لنا في جميع مواطن الخير والاستجابة التي ستحلون بها أن يشد الله سبحانه أزرنا ويبارك جهودنا ويعيننا على تحمل المسؤوليات الجسام الملقاة على عاتقنا، ويكلأ بعين عنايته وشامل رعايته أسرتنا الكبرى وأسرتنا الصغيرة خصوصا ولي عهدنا المحبوب سيدي محمد وصنوه السعيد مولاي رشيد، وأن يوفقنا وسائر ملوك ورؤساء المسلمين لما يحبه ويرضاه، ويسبغ على العالم رداء الطمأنينة والسلام والمحبة والوفاء.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

عالمية الإسلام

للأستاذ عبد العزيز بنعبد الله

من المظاهر التي تتسم بها الحضارة ـ المعاصرة ـ تعدد المذاهب والنحل والأنظمة السياسية والاجتماعية، وتتجاذب الإنسانية معطيات متناقضة تنطلق إما من تقليد جامد، وإما من رغبة صادقة للوصول إلى الحقيقة، ومن حسن الحظ أن الكثير ممن تذكيهم هذه الرغبة يشكلون نخبة فكرية في عصرنا الحاضر تنتجع التحرر من الخرافات والأساطير، لا تحفزها مادة ولا يستهويها أي عامل من العوامل المغرية التي هي ميزة العصر، فهذه النخبة الصالحة هي إذن في بحث دائب عن هذه الحقيقة التي أصبح العالم المعاصر يتناءى عنها بقدر ما يوغل في جواذب الحضارة التي تطغى اليوم على العالم بمقوماتها الآلية ومجالي تطوراتها التكنولوكية.

إننا نريد اليوم أن نتوجه إلى هذه النخبة الواعية لنجري معها حوارا يرتكز على العقلانية مثل ما يتمحور حول الروحانية في توازنهما الخلاق الذي هو قوام الإنسان منذ كان، وسأحاول أن يكون هذا الحوار حيا حرا مجردا من الكليشيهات الجوفاء ينطلق من التحليل الدقيق والاستدلال الجلي في غير ما مواربة أو ديماغوجية، فيجب أن يكون نابض تحليلنا الهادف فكرا حرا متوازنا مع خصائص العلم المعاصر الذي ما فتئت معطياته تنبثق وتتفتح في جلاء بفضل ازدواجية جوهره المادي والروحي.

يجب أن ينصب حوارنا على تحليل الظواهر المادية بقدر ما ينصب على استبطان الحواجز النفسانية لأن قوام الإنسان منذ كان يتشكل في بنية مزدوجة تتفاعل في نسق مبدع.

يجب أن نحلل مضامين الطبيعة بقدرها محلل المحتويات الحضارية والفكرية التي تستهدف تلك السعادة في جوانبها التي ما فتئ رجالات الفكر يبحثون عنها ويرسمون النظريات تلو النظريات لبلوغها.

ولنا اليقين بأن مستوى المعارف الإنسانية ـ مهما تكن نقوصه وفراغاته ـ قد بلغ درجة تسمح لنا بأن نستخلص من دراسة مقارنة رصينة أرضية مكينة لحوارنا تتجلى في ازدواجية ـ ربما لم تتوازن بعد عناصرها لدى البعض ـ وهي العقلانية والروحانية، فالعلم الحديث بدأ هو نفسه يتشرب هذه السمة الثنائية التي يكمن فيها سرّ الكمال والجمال في التوازن الأصيل للإنسانية، وهنا يجدر بنا أن لا نساق كثيرا مع التيارات المعاصرة التي تنطلق من العلوم الاستباقية وهي علوم تحاول أن تبرز في قالب روائي حقائق علمية

ربما لم يتهيأ الفكر البشري لتقبلها، غير أننا في حوارنا هذا نضرب صفحا عن المجلات الاستباقية وعن كل ما يدخل في نطاق الأساطير حتى ما وسم بطابع علمي لنقتصر في جدلنا الحي على مسلمات تكنولوجية وعلمية تحللها قبل النظر إلى الفكر الإسلامي في الموضوع، وذلك حتى لا يتأثر المحاور بفكرة مسبقة، فهذا العلم الحق النابع من التجربة الصادقة هو الذي سيحدونا اليوم إلى العمل على ضمان التساوق الجلي بين العناصر التي تشكل كيان كل منا كإنسان ينهج نهجا وسطا بين العناصر المتناقضة ولو ظاهريا.

ولهذا يمكن القول بأن حوارنا لن يخص النخبة التي ولدت وترعرت في ظل التقاليد الإسلامية بل يستهدف كل إنسان - في أية بقعة من بقاع الأرض - يواجه مشكلا يتشخص في مستوى ومسار ماجريات القرن العشرين، والأمر يهم العالم الأسيوي الإفريقي بالدرجة الأولى دون أن يغفل باقي أصناف البشرية التي تبحث جادة عن الحقيقة بإخلاص ودون مواربة.

إننا نقف حيارى في مجال العلم والحياة بين العالم الرياضي وعالم ما وراء المادة ؟ بين جوهر النفس والروح من جهة والجانب المنطقي العقلاني من جهة أخرى ؟ لنبدأ تساؤلنا عن دور الدين في بلورة المثالية الرفيعة التي تستمد قوتها وحيويتها من معادلة إنسانية رصينة هي العقل والروح.

تلك تساؤلات تنطوي على غوامض يحاول العلماء الكشف عن ألغازها في تؤدة واتزان دون لجج ولا صخب كل في نطاق وسائله واهتماماته ولا شك أن الفكرة التوليفية بين المناقضات ستنجلي رويدا رويدا من خلال الحوار النزيه.

☆ ☆ ☆

إن تاريخ الإسلام هو في الحقيقة تاريخ حضارة وتاريخ فلسفة وتاريخ فكرة، والمقومات الأساسية في هذه السيرورة هي نفس مقومات المثالية الإنسانية لا في عقلانياتها وروحانياتها فحسب، بل أيضا وخاصة في اختياراتها الاجتماعية والاقتصادية.

فإذا حاولنا تحليل عناصر هذا الثالوث فمعنى ذلك أنه يجب أن نرسم إطاراً بنيويا لمجموعة بشرية تمتد أبعادها على صعيد عالمي، وتظل سمتها الذاتية هي معطيات صميمية لكيان إنساني في أصالته يبز القوام الاجتماعية فيه أي عامل آخر، إذ أساس وجود الإسلام كامن في ضرورة إقامة مجتمع تتزواج فيه الإنتاجية ماديا وروحيا.

فمفهوم الأصالة الإسلامية إذن مرتبط ارتباطا وثيقا بفكرة سامية ملحة هي الطموح إلى خلق توازن يضمن للمسلم الحق أن ينبثق كيانه في نطاق الإنسانية الحق.

فلذلك ينبغي أن يتجاوز تاريخ الإسلام وتاريخ الفكر الإسلامي الإطار الوصفي أو الحكائي للأمة الإسلامية لينصب على دراسة نقدية للنصوص تستهدف إقامة كيان هذه الأمة بقطع النظر عما اعتورها من ضروب الشطط والانحرافات، ذلك أن ما نلحظه اليوم في مجتمعنا من انحسار وانكفاء يرجع إلى وجود نوع من التناقض إذا لم نقل الارتداد عن الأصالة المتمثلة في الإسلام المجرد عن الأوهام والذي وصف ابن تيمية حدوده وجانبياته ومركباته في رسالته «موافقة العقل الصريح للشرع الصحيح» وذلك قبل أن يضع الفيلسوف كانط بقرون رسالته البديعة حول «العقل الصريح أي الخالص - (D.Raison Pure)

إلا أن الإسلام رغم ما خلخل كيانه من نزعات ونزوات قد طبع هيكلية المجتمع حيث اضطلع بدور هام في دعم التركيب البنيوي والترسيس الجوهري للدولة، وكل ما لوحظ في حاضر العالم الإسلامي من نكوص عائد بالدرجة الأولى إلى سلاسة النص الإسلامي للإيغال في التأويل إلى حد إفراغه من محتواه والانسياح في مهاترات تارة أو تعقيدات تارة أخرى.

فإذا حاولنا الرجوع إلى أي نص من النصوص القرآنية أو الحديثية أو الأصولية الفقهية فإننا سنلمس في تأويلاتها وتوجيهاتها الكثير من صنوف الإسراف أو التجاوزات سلبا أو إيجابا بسبب خلل ما، كانعدام روح النقد وعدم تحقيق

المناط - كما يقول الأصوليون - للتأهل لتجميع أطراف الموضوع في نظرة شمولية مقارنة وحتى في وصفنا لبعض مظاهر تراثنا تتأرجح نظرا لقلة التوثيق بين نقيضين الأسطورة المموهة البراقة أو الجحود الأجوف والإنكار الأعمى.

إن الموضوعية فضيلة مثلى لدى المؤرخ ولكن ليس معنى هذه الموضوعية الاتجاه الالتزامي الذي يتقيد بفكرة معينة أو يعمل في غياب عنصر النقد البناء، بل معناه فقط الاستمداد الدقيق من الواقع معززا عند الاقتضاء بتأويلات نابعة من معطيات قائمة أو مسلمات ليست محل نزاع، وفي هذا المجال تحاول إقصاء العامل الشخصي في تقدير الأشياء وتقييمها نظرا لما يتسبب فيه أحيانا من تحريف ربما كان نزيها خاليا من كل إغراض ولكن احتواءه لآراء مسبقة يعرضه لشيء غير قليل من التحيز.

☆ ☆ ☆

إن الروح توازي المادة كمكمل لقوام الإنسان، فهما يكونان معادلة متناسقة توفق في الظاهر بين قوتين متعارضتين إلى أن تكامل هذه العناصر التي رسمت دائما بالتضاد والتناقض قد تم وتكشف عن تواكبها وتطابقها من خلال الدراسات العلمية المعاصرة، فما هي الأدلة الملموسة على سمو هذه الحقيقة التي هي وحدها الكفيلة بضمان الطمأنينة والسعادة والانسجام للإنسانية ؟

فلنفترض أن هذه الحقيقة هي الدين وأن هذا الدين هو الإسلام في مفهومه الإبراهيمي الحنيفي الشامل ولنبحث عما يدعم هذا الافتراض من حجج وبراهين !

فما هو الإسلام إذن ؟

قبل أن نعطي تعريفا صحيحا للإسلام يجب أن تتجرد عن كل حكم أو تقدير سابق للتجربة العلمية أو للدلالة المنطقية الرصينة تفاديا للوقوع في أي اتجاه خاطئ، وقد يجدر بنا بادئ ذي بدء أن لانرى الإسلام من خلال المسلمين لأن هذه المماثلة كانت منبع الكثير من المناقضات، بل يجب أن نبقى موضوعيين أن نعمل على تحليل مضامين الإسلام وما احتويه من عقيدة ومبادئ ومحركات حيوية وديناميكية، ثم نرتقي بعد هذا التحليل الأولي إلى المنابع الصافية التي استقى منها مفكرو الإسلام القدامى، أمثال ابن حنبل وابن تيمية أو رجال الإصلاح المحدثين أمثال عبده والأفغاني ورشيد رضا وغيرهم من دعاة السلفية، فتلك هي الطريقة الأوفق والأجدر بإلقاء الضوء الكاشف على حقيقة الإسلام في أبعاده الحية التي تواجه تحديات العصر، وهنالك يمكن أن نلمس مدى عمق وسعة عبقرية هذا الدين على مستوى العالم.

وهنالك فكرة مسبقة أخرى تقوم حاجزا بين دعاة السلفية ومن يوسمون بالروح التقليدية أو يوصمون أحيانا بالرجعية، وتتساوق هذه الفكرة مع رأي مسبق آخر بفرض التعارض المبدئي بين الإسلام وأي تجديد أو عصرنة يتم بطابع غربي إلا أن المنطق الذي يفرض نفسه على الفعل وعلى الممارسة المباشرة هو أن الحقيقة واحدة مهما تختلف أحجامها ومنظورياتها، ولذلك اصطبغت قوة الإسلام عند انبثاق نوره كطابع إنساني في أنظاره واختياراته ذلك أن للخلق الإنساني مقومات قارة لا تتغير بتغير التخوم والحدود، وتحتفظ هذه القيم الخلقية رغم إقليمية السمات وجهوية المراسم التي من شأنها أن تحد من ميزاتها الإنسانية المثالية، فلهذا تضامن الإسلام مع الديانات المنزلة، بل اعتبر نفسه عنصرا مكملا لها في إطار الثالوث الإبراهيمي الحنيف الهادف إلى إقامة عالم جديد يكون في التراث الإنساني المتواصل عبر العصور هو قوام وأس كل حضارة معاصرة.

وإن أهمية وحدة الفكر الأصيلة والتبادل المطرد بين الحضارات والديانات المختلفة لهي التي أوحت إلى الزعيم الهندي والفيلسوف المسلم محمد إقبال مقولته ضمن (المحاضرات الست) حول تجديد بناء الفكر الديني في الإسلام : «إن أبرز ظاهرة في التاريخ المعاصر لهذه السرعة الفائقة التي تحرك بها العالم الإسلامي روحيا نحو الغرب فليس في هذه الحركة ما يعاب لأن الثقافة الأوروبية في مجلاها الفكري ليست سوى تطور لاحق لأهم مراحل في ثقافة الإسلام... فليس من العجب إذن أن يطالب الجيل المسلم الشاب اليوم في آسيا أو إفريقيا توجيها جديدا لما لديه من إيمان».

حقوق التأليف

للأستاذ
محمد الحبيب
ابن الخوجة

وصلنا من المجمع الموقر ملف به خلاصة عن موضوع حقوق التأليف. وهو يشتمل على رسالة من مدير المجمع واستفتاء من السيد عبد العزيز بن محمد التويجري مدير دار اللواء للنشر والتوزيع وإجابات ثلاث :

الأولى لفضيلة الشيخ عبد الله عبد الرحمن البسام.

والثانية للدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان.

والثالثة لفضيلة الشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي، وكلهم أعضاء المجمع.

وقد أضفنا لدراسة هذا الموضوع من جوانبه المختلفة البحث الذي نشره الدكتور أحمد الحجي الكردي في شهر محرم الحرام بمجلة رابطة العالم الإسلامي.

وقد تبين لنا من جملة ما اطلعنا عليه من أسئلة مفصلة لصاحب الاستفتاء، ومن آراء قيمة للباحثين من أعضاء المجمع وغيره، أن هذا الموضوع الهام متعدد الجوانب مختلفها. وأن الجواب عن الاستفتاء المومى إليه يحتاج إلى إحاطة بها، كلها، ليتضح القصد ويتحدد الحكم بإذن الله. ومن أجل هذا فإنا نعرض للموضوع بحصر نقاطه والإجابة عنها واحدة واحدة.

النقطة الأولى :

هل للمؤلفين حقوق مالية معتبرة شرعا يتعين الوفاء لهم بها من قبل الناشرين الذين يتولون طبع كتبهم وبيعها وتوزيعها والمتاجرة بها ؟

وقبل الإجابة عن هذا السؤال لابد من الإشارة إلى أن صناعة الكتب وطبع التآليف وتوزيعها لتعميم النفع بها لا يتم بصورة عملية في الغالب إلا عن طريق أجهزة أو جهات ثلاث.

الجهة الأولى : نسميها **المؤلف** وهو الذي يقوم بتقديم عمل فكري أو علمي أو ببذل جهد في المراجعة والتحقيق، أو بإنتاج أدبي أو فني يتسم بالإبداع والابتكار. وهذه الأعمال تحتاج منه دائما إلى توفر مستوى معين من العلم والمعرفة، وتفرغ جزئي أو كامل، واستخدام طاقات ومراجع وإمكانات ليس دائما من الميسور اجتماعها بين يديه، وربما احتاج إلى اقتنائها بشتى الصور التي تتطلب منه تمويلا وإنفاقا.

والجهة الثانية : نطلق عليها **الناشر** وهو الذي ينتصب في هذا العصر لطبع المؤلفات يأخذها من أصحابها في صورة مخطوط أو مرقون. ويتولى بواسطة المصالح التنفيذية لديه دراستها للانتهاء قبل الطبع إلى ضبط أحجام

الكتاب ونوع الورق وشكل الإخراج وإعداد الخطوط وحروف الطبع وتقدير نفقات الأفلام والدعاية للتعريف بالكتاب وعدد النسخ التجريبية، وعدد نسخ الإشهار، وعدد النسخ المقررة للطبع.

والجهة الثالثة : وهي الموزع وهو قد يكون متمثلا في قسم تابع للجهة الثانية التي دعوناها الناشر. كما يمكن أن يكون جهة مستقلة تماما. وتتمثل وظيفته في الاتصال بالجامعات والمكتبات ومعارض الكتاب ومراكزه في مختلف المنشآت والمؤسسات والمكتبات التجارية والعامة والمختصة، داخل البلد وخارجه، ومع دور النشر والتوزيع في العالم، لتسويق الكتاب وشحنه ودفع ما يترتب على ذلك من نفقات الإعلام والتصدير والتوزيع والأداءات الجمركية ونحوها.

فالكتاب على هذا الأساس فكرة وتصور وإنتاج، عند المؤلف يتحول إلى صناعة، طباعة وإخراجا عند الناشر، ثم يصير بضاعة يتولى تصريفها والمتاجرة فيها الناشر وحده أو بواسطة الموزع الذي يتعاقد معه على ذلك في الغالب. ولكل جهة من الجهات الثلاث المتعاونة على إنجاز هذا العمل جهود مبذولة متقومة، ونفقات متنوعة مصروفة تقدر في تكاليف إعداد التأليف وإصدار الكتاب ووضعه بين أيدي القراء.

واعتقادنا أن ترابط هذه الجهات وتوقف بعضها على بعض أمر طبيعي وملموس، إذ لولا المؤلف لما احتيج إلى «الناشر ولولا الناشر لما وجد الموزع.فتلك سلسلة من الأنشطة والأعمال آخذ بعضها برقاب بعض. ولاشك أن لكل جهة من الجهات جانبا من الكسب يقابل حصته من العمل في صنع الكتاب، والتمكين من الانتفاع به والاستفادة منه. ولا غرو أن تكون المراحل المادية في التصنيع والتسويق مدركة الأثر مسلما باستحقاقها للمقابل والأجر، لكونها إما من باب الصناعة أو التجارة.

وأما مرحلة التأليف المتمثلة في العمل الفكري والجهد العقلي والتي من آثارها وضع الكتاب أو المؤلف فقد توقف علماء الشريعة بشأنها، واختلفوا في حكم المعاوضة أو الجعالة المالية عنها، سواء اعتبرت العلاقة بين المؤلف والناشر فيها من باب البيع أو من باب الإجارة. وتأليف الكتب وتصنيفها مقيس على التعليم.

وقد اتفقوا على أن استئجار إنسان ليعلم الطفل أو غيره العلوم الأدبية كاللغة والنحو والتصريف ونحوها والعلوم الحكمية كالطب والمعقول ونحوهما أو حرفة من الحرف كالخياطة وغيرها جائز إن بين المدة. ويصح العقد وينعقد على المدة وتستحق الأجرة. وإن لم يبين المدة ينعقد فاسدا ويجب أجر المثل.

وإذا كان التعليم للقرآن أو الفقه أو الفرائض أو غير ذلك من العلوم الدينية أو كان الاستئجار على الطاعات والقرب كالإمامة والآذان والحج ونحو ذلك ففيه خلاف. الأكثر على عدم الجواز، قال ابن قدامة : «لأن القرب التي يختص فاعلها بكونه من أهل القربة يعني أنه يشترط كونه مسلما كالإمامة والآذان والحج وتعليم القرآن، نص عليه أحمد، وبه قال عطاء والضحاك ابن قيس وأبو حنيفة والزهري. وكره الزهري وإسحاق تعليم القرآن بأجر».

وقال ابن عابدين : «الأصل أن كل طاعة يختص بها المسلم لا يجوز الاستئجار عليها. وقد أوردوا على ذلك أدلة منها قول الله تعالى : **﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾**. وما رواه عبد الرحمن بن شبل قال : «سمعت رسول الله ﷺ يقول : «اقرؤوا القرآن ولا تأكلوا به ولا تجفوا عنه، ولا تغلوا فيه ولا تستكثروا به». وما أخرجه أصحاب السنن الأربعة بطرق مختلفة عن عثمان بن أبي العاص قال : «قلت يا رسول الله اجعلني إمام قومي، قال أنت إمامهم واتخذ مؤذنا لا يأخذ على أذانه أجرا».

وذهب أهل المدينة إلى الجواز. وبه أخذ الشافعي وعصام وأبو نصر والفقيه أبو الليث. قال الأبيّ في جواهر الأكليل : «يجب على كل مكلف تعلم الفاتحة ولو بأجرة، وجازت الإجارة على تعلم القرآن مشاهرة بأجرة معلومة، أو كل سنة أو كل جمعة أو كل يوم، وجازت الإجارة بمنفعة تتقوم ولو كان مصحفا فتصح الإجارة على القراءة فيه كما تجوز الإجارة على كتابته، وجاز أخذ الأجرة على الأذان وحده أو مع الصلاة، وكره عليها وحدها، فرضا كانت أو نفلا. ولا تجوز الإجارة على عمل شيء متعين، وهذا، فيما

لا يقبل النيابة كالصلاة والصوم وأما غيرهما من المندوبات كقراءة القرآن والأذكار فتجوز الإجارة عليه. وتكره إجارة على تعليم فقه وتعليم فرائض كبيع كتبه». وذهب أحمد في أحد قوليه المنصوص عليهما في الحاوي إلى صحة الاستئجار على الأذان والإقامة والإمامة وتعليم القرآن والفقه والنيابة في الحج إن خلا العقد من اشتراط ذلك ويرزق من بيت المال لمن نفعه منهم متعد.

والأصل في ذلك كله أنه تصح إجارة كل مالا يتعين على الأجير لأنه استئجار على عمل معلوم غير متعين عليه فيجوز. ودليله أن رسول الله ﷺ زوج رجلا بما معه من القرآن. متفق عليه. وقوله عليه الصلاة والسلام : أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله. حسن صحيح، وأجاز رقية اللديغ بفاتحة الكتاب وقوله : (أصبتم واضربوا لي معكم بسهم).

وقد أجاب المانعون عن هذه الأدلة كلها. وأجاز المتأخرون منهم الاستئجار على تعليم القرآن للضرورة، وهي خشية ضياع القرآن ولما ظهر في العصور الأخيرة من التواني والكسل في الأمور الدينية. قال العيني : «منع المتقدمون ذلك لرغبة الناس في التعليم حسبة ومروءة المتعلمين في مجازاة الإحسان بالإحسان بلا شرط وقد زال ذلك في هذا الزمان، وفي الامتناع عنه تضييع حفظ القرآن. وقد تغير الجواب باختلاف الزمان».

وقد جرت به عادة الناس، وحكمه العرف.

وأمر إثابة المؤلفين على ما يقومون به من عمل ويقدمونه للناس من خدمات في العلوم الدينية محمول على ذلك ومقيس عليه. فهو من هذا الباب، وفيه تشجيع للعلماء العاملين على خدمة الدين والثقافة الإسلامية بحملهم على التفرغ للتأليف والكتابة من أجل نشر العلوم، والرفع من أقدار العلماء ودفعهم إلى مضاعفة الجهود في خدمة العلوم الدينية.

والعرف كما هو معلوم ما استقر في النفوس من جهة العقول وتلقته الطباع السليمة بالقبول. والعام منه ما تعارفه عامة أهل البلاد، سواء كان قديما أو حديثا، وقد اعتمد في الشرع واعتد به الفقهاء، وقال القرافي : «نقل عن مذهبنا أن من خواصه اعتبار العادات والمصلحة المرسلة وسد الذرائع. وليس كذلك. أما العرف فمشترك بين المذاهب، ومن استقرأها وجدهم يصرحون بذلك فيها.

وذهب ابن العربي إلى أن العادة دليل أصولي بنى الله عليه الأحكام وربط به الحلال والحرام.

وصرح الونشريسي : «أن من أصول الشريعة تنزيل العقود المطلقة على العوائد المتعارفة».

وقال ابن نجيم : «إن اعتبار العادة والعرف يرجع إليه في الفقه في مسائل كثيرة حتى جعلوا ذلك أصلا».

ومن أجل هذا قال ابن عابدين :

«والعرف في الشرع له اعتبار
لذا عليه الحكم قد يدار»

وقد استدل ابن قدامه بالعرف في قضايا عديدة في كتابه، وأورد ابن رجب في قواعده أنه لو استأجر أحد أجيرا يعمل له مدة معينة حمل على ما جرت العادة بالعمل فيه من الزمان دون غيره بغير خلاف.

فإذا اعتمدنا بعض ماذهب إليه المالكية وأحد قولي الإمام أحمد وفتوى أهل بلخ من الحنفية، وراعينا العادة والعرف وما عليه الناس في هذا الزمان **قلنا بوجوب إعطاء الناشر حق المؤلف عن كل ما ينتجه من عمل فكري أو أدبي أو علمي مباح، يقدمه إليه قصد نشره، وأن في امتناعه من ذلك إثما لما فيه من السحت، ومن أكل أموال الناس بالباطل، والأصل في الموزع أن يكون تعامله مع الناشر بعيدا عن المؤلف. وأن عمله معه مبني علي عقد منفصل، غير أن هذا لا يرفع عنه الإثم إذا علم أن الكتاب الذي يقوم بتوزيعه لم يعط مؤلفه حقه، وأن الناشر قد امتنع من أداء ما عليه في ذمته قبله، واستمراره على توزيعه وقيامه به فيه إثم لكونه من باب التعاون على الظلم والإثم والعدوان.**

النقطة الثانية :

ما هي أصناف المؤلفين ؟ وهل تختلف أحوالهم بحسب ذلك مع الناشرين أو الموزعين ؟ وهل حقوقهم حق ملكية أم أجر ؟ وهل الحق محدد بتوقيت أم غير محدد ؟ وهل يورث هذا الحق أم لا ؟ وهل يسقط بتقادم العهد ؟

بالرجوع إلى استفتاء دار اللواء، وإلى دراسة د. أحمد الحجي الكردي، يتبين أن في المؤلفين أنواعا مختلفة، يمكن حصرها في ستة أصناف :

1 - مؤلف أو محقق يقدم للناشر كتابا مخطوطا أو مرقونا، ويعطيه حق الطبع والنشر والتوزيع جملة واحدة، ولما يشاء من المرات، وبدون تعيين مدة أو أجل، على ثمن جملي مقطوع، أو على مدة معينة.

2 - مؤلف أو محقق يقدم للناشر كتابا بطلب أو تكليف منه على الوصف الأول والثاني.

3 - مؤلف أو محقق يقدم للناشر كتابا مخطوطا أو مرقونا، ويعطيه حق الطبع والنشر والتوزيع لمرة أو مرات محددة بثمن مقطوع عن كل مرة يدفع حالا عند العقد لكل طبعة، أو على مراحل أو في آجال، أو بنسبة معينة من ثمن البيع التفصيلي للكتاب.

4 - مؤلف أو محقق يقدم للناشر أو الموزع كتابا مطبوعا يريد منه فقط توزيعه وبيعه.

5 - صاحب التأليف الأصلي في صور التحقيق أو التعليق أو الشرح.

6 - المؤلف الذي ينتج الكتاب ويطبعه وينشره ويوزعه بنفسه على نفقته الخاصة.

فالصنف الأول مؤلفا كان أو محققا بائع للناشر مصنفه مفوت بذلك في ملكيته الذاتية له وفي جميع منافعه. وهو لذلك يستحق ثمن المبيع على ما اتفقا عليه في العقد مقطوعا ومقبوضا عند تسليم الكتاب للناشر، أو مقسطا على آجال محدودة ومعينة، وليس للمؤلف ولا المحقق بعد ذلك مطالبة الناشر بأي حق يترتب على تصرفه في الكتاب، بالطبع لمرات عديدة أو بالشرح أو بالاختصار أو بالتعليق أو بالترجمة أو نحو ذلك، لأنه أصبح في هذه الصورة أجنبيا.

وكذا حكم الصنف الثاني، وهو المؤلف أو المحقق الذي يقدم للناشر كتابا صنعه بأمره وأعده بتكليف منه، فإنه وإن أشبه في هذه الحال الأجير على عمل، لكنه حين يقدم التصنيف الذي طولب بإعداده للناشر يعامل معاملة البائع عند تسليم الكتاب له، ويستحق الأجر الذي اتفق عليه مع الناشر، على ما اشترطاه في العقد كحق له وثمن للعمل المتقوم الذي سلمه إياه، وبتسليم الكتاب موضوع العقد للناشر وقبضه الثمن منه يصبح أجنبيا أيضا، لا حق له فيما سلمه بأية صورة من الصور وفي أية حال من الأحوال، لأنه باعه كل حقوقه. فإذا اشترط المؤلف أو المحقق من هذين الصنفين أن يبقى حق النشر للمرة الثانية له كان الشرط مفسدا لعقد البيع عند بعض الفقهاء، لأنه شرط جعلي مناقض لمقتضى العقد. وذهب جماعة منهم إلى جواز ذلك، واعتبار الشرط استثناء مما فرط فيه من حقوق، ويكون المتعاقد في هذه الصورة من الصنف الثالث.

والصنف الثالث وهو المؤلف أو المحقق الذي يتعاقد مع الناشر على طبعة واحدة أو عدد من الطبعات، أو على استغلال الكتاب والاستفادة منه لفترة معينة، فهو في حكم البائع لجزء من حقوقه، لأنه بحكم العقد لا يتنازل عن حقوقه كلها، ومن أهمها ملكية الكتاب. ولكنه يأذن للناشر أو يبيعه المنفعة أي الانتفاع بالكتاب في طبعة واحدة أو طبعات متعددة أو لفترة معينة. فإذا تم ضبط صفات التعامل في العقد بتحديد نوع الانتفاع ومدته وعدد الطبعات ونحو ذلك استحق المؤلف أو المحقق الأجر الذي التزم به الناشر قبله، ودفعه إليه إما عند العقد أو عند صدور الطبعة المتفق عليها بينهما، أو أقساطا على حسب ما اشترطاه في العقد مقطوعا. ويمكن أن يدفع إليه نسبة من ثمن بيع الكتاب بالتفصيل على شرط أن يكون ذلك معلوما، وعلى الوجه الذي وقع الاتفاق عليه، ما لم يكن في ذلك غرر أو يؤدي إلى نزاع. وإذا انتهت مدة العقد أو تم ما تعاقدا عليه عادت ملكية الكتاب للمؤلف أو المحقق. ويمكن له أو لناشر آخر بعد الاتفاق مع المؤلف على الطبع أن يبتاع أحدهما من الناشر الأول الأفلام والأشرطة

والصور ونحو ذلك التي جهزها للطبعة أو الطبعات الأولى موضع العقد. وليس له أن يستغلها مرة أخرى لطبعة جديدة، لأنه لا يملك هذا الحق باعتبار طبيعة العقد الذي بينه وبين المؤلف.

والصنف الرابع : يكون الناشر أو الموزع معه طرفا لا دخل له في الإنتاج ولا في الطبع، ولكنه أجير للمؤلف يتولى بالنيابة عنه تصريف كتابه بنشره وتوزيعه. وهو إما أن يشتري من المؤلف الكتاب ويدفع له جملة الحقوق، فيعامل المؤلف معاملة الصنف الأول أو الثاني، فيعطي الناشر كل حقوقه حين يبيعه الكتاب، وإما أن يتفق مع الناشر أو الموزع على تسويق الكتاب مقابل مقدار من المال يأخذه أجرة عن عمله حسب شروط العقد عقد البيع أو التوزيع. ولا يكون له الحق مطلقا بعد ذلك في إعادة طبع الكتاب إلا بإذن من المؤلف وبمقتضى عقد جديد.

والصنف الخامس : وهو المؤلف الأصلي، ولا يتصور إلا في الكتاب المحقق أو المشروح أو المعلق عليه أو المترجم. وهذا الصنف إذا كان حيا موجودا أو له ورثة لا يتولى المحقق أو نحوه القيام بعمله إلا بإذن منه، ويأخذ حقوقه من المحقق باشترائه الأصل منه وعلى شروط العقد، وإما أن يأذن له هو أو ورثته في التحقيق من غير مقابل على الأصل، لكون الكتاب يكتسي بعمله فيه صورة جديدة وأهمية أخرى. فلا يلتزم هو ولا الناشر بدفع أي مقابل له أو لورثته.

والصنف الأخير أو السادس : وهو المؤلف أو المحقق الذي يتولى بنفسه الطبع والبيع والتوزيع، فلا علاقة له بأي طرف ثان، يبيع كتابه بالسعر الذي يريد لنفسه. ولا حق لأحد في إعادة طبع كتابه أو نشره أو توزيعه إلا بعد الاتفاق معه، لأنه ملكه الخاص لم يبعه لأحد، ولا يشاركه غيره في الانتفاع به صناعيا أو تجاريا، إلا متى باع له هذا الحق أو تنازل له عنه. ذلك هو العرف القائم المتعارف عليه بين أصحاب هذه الصناعة، ولأن من ألف شيئا يكون ذلك التأليف نتيجة تفكره وجهده وأعماله، فيكون الكتاب على هذا الوجه مملوكا له وتحت سلطانه. فله منع الغير من التصرف فيه بالطبع والنشر، لأن الناس مسلطون على أعمالهم عرفا وشرعا. ومخالفة ذلك طريق للتصرف في مال الغير بدون وجه شرعي مقبول.

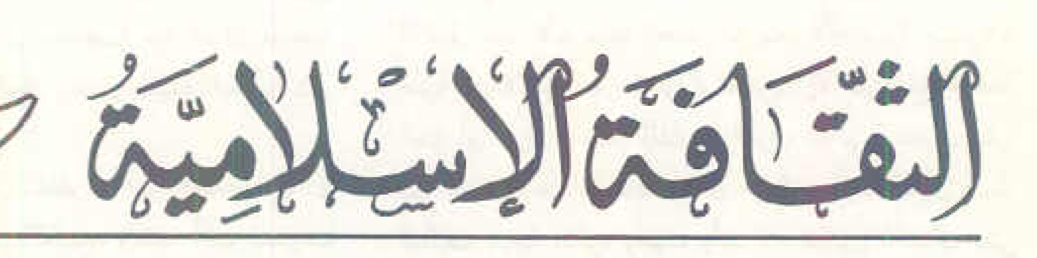
وحق التأليف معتبر شرعا، لما ذكرناه مفصلا أعلاه، يسلم لصاحبه. فإن مات مطالبا بحقه أعطي لورثته على حصصهم في التركة. فإن لم يكن هناك وارث تصدق به عنه حتى تبرأ بذلك ذمة الناشر. أو صرف ذلك لبيت مال المسلمين.

وأما إن كان الكتاب قديما، تأليفا أو تحقيقا، فإنه يجوز لأي ناشر أو موزع طبعه والمتاجرة فيه، لأنه حق عام، يصح الانتفاع به من عامة الوجوه. وربما كان في نشره وتوزيعه قربة وأجر.

تلك هي جملة الصور لأصناف المؤلفين وأحوالهم. وذلك بيان حقوق التأليف بحسبها فإن أصبنا في ضبط ذلك فمن الله، وأن أخطأنا فمنا ومن الشيطان. نرجو الله أن يسددنا في القول والعمل، ويرينا الحق حقا كي نتبعه والباطل باطلا كي نجتنبه.

والله ولي التوفيق. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.





الثقافة الإسلامية في إفريقيا

للأستاذ علي كلطغ ديالو
رئيس مجلس إدارة معهد الشيخ أحمد الاسلامي
بمالي

لبسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى ءاله الأطهار

إن البلد الذي أنتمي إليه يعتز بالتراث الإسلامي : بتعاليمه وقيمه الروحية، لأنه قد وضع لبنته الخاصة في بناء الحضارة الإسلامية التي ازدهرت خلال فترات متعاقبة من القرن التاسع الميلادي إلى عصرنا هذا.

إن مالي وموريتانيا والسنغال وغينيا وبوركنا ـ فاسو والنيجر ونيجريا، هي المناطق التي نمت فيها الثقافة الإسلامية في جميع مظاهرها، وتأصلت ثم امتدت إلى المناطق الأخرى في غرب إفريقيا ووسطها. كما أنها هي المواطن التي امتزجت فيها الدماء العربية والبربرية والزنجية أكثر من أية منطقة أخرى في إفريقيا جنوب الصحراء.

إنني لن أتحدث هنا بالتفصيل عن الثقافة الإفريقية، لأن إفريقيا تضم شعوبا وقبائل، لكل شعب ثقافته، ولكل قبيلة ثقافتها، فالثقافة أسلوب للحياة يتطور ويتجدد حسب تطور المجتمع الإنساني، أنتجه من خلال صراعه المستمر مع محيطه. وهي تشمل كل مظاهر النشاط الإنساني في فترة من فترات تاريخه. فاللغة في تصورها والآداب، شفهية أو مكتوبة، والعلم والمعرفة والفنون الجميلة والموسيقى والرقص المهذب، كل ذلك يمثل عناصر للثقافة، لأنها الروح التي يتجلى من خلالها الدقة في التعبير ووضوح الفكر وصفاء الروح وجمال التصوير.

إن وحدة الثقافة الإفريقية هدفٌ يعمل على تحقيقه في المدى البعيد أبناء إفريقيا المخلصون، كما أن وحدة الثقافة العربية في الظروف التاريخية، والأوضاع الاجتماعية والسياسية التي تسود البلدان العربية في الوقت الحاضر أمل تتطلع إلى تحقيقها الدول العربية.

ولا ينكر أحد بأن كل شعب في افريقيا قد اقتبس من جيرانه بعض مظاهر الثقافة وتأثر بها وأدمجها في ثقافته حسب أسلوبه وتصوره، وكذلك الشأن بالنسبة لكل قبيلة، ولذلك ننسب إلى الشعوب والقبائل أساليب معينة من الثقافة. لأن النخبة من المفكرين والشعراء والفنانين من تلك الشعوب والقبائل هم الذين أنتجوها من خلال ممارستهم اليوميّة لأوجه النشاط الاجتماعي، وعبّروا فيها عن تقاليد شعوبهم وآمالها وطموحها. فالثقافة التي حاول المستعمرون فرضها على الشعوب الإفريقية ليست بثقافة، لأنها تمثل المهانة والذل والعبودية بالنسبة للشعوب المستعمرة. تُدنس القيم الثقافية، وتميت التقاليد النبيلة،

وتخنق القلب، وتطفئ الذكاء وتحط من قيمة الإنسان المستعمَر، وتجعله مخلوقاً بلا روح. فلا غرابة إذن من أن نرى الشعوب الإفريقية ذات التراث الإسلامي ترفض هذه الثقافة، وتعتبر المتأثرين بالجوانب السلبية منها، المتحلين بمظاهرها : غرباء وأعضاء اجتثت من جسم المجتمعات الإفريقية، وكانت هذه الشعوب لا تبعث حتى في حالة الضرورة إلى المدارس التي أنشأها المستعمرون إلا أبناء الطبقات التي ليس لها اعتبار في المجتمع.

فالزنجية التي يتغنى بها المثقفون السود في أوربا وأمريكا لم تكن يوماً ما ثقافة إفريقية، لأنهم لم يطالبوا بأكثر من المساواة في الحقوق مع المستعمر والاعتراف بقدرتهم على هضم الثقافة اللاتينية، ويمكن أن تقارن القومية العربية بهذه الزنجية التي لم تكن في حقيقتها إلا رد فعل، حدث نتيجة للسيطرة الأجنبية التي فرضت على العالم العربي، ومحاكاة للقوميات الأوروبية التي نشأت معاصرة للنهضة الفكرية والصناعية في أوروبا.

إن القومية العربية في بعض اتجاهاتها تذكرنا بالنزعة الشعوبية التي نشأت في الدولة العباسية، وهي عنصر معطل يشل حركة الثقافة الإسلامية الأصيلة ويحد من انطلاقها، كما أن الزنجية عنصر غريب لم تعبر في أي مظهر من مظاهرها عن الروح الخلاقة للشعوب الإفريقية، وكلاهما في خط مضاد للإسلام والثقافة الإسلامية الأصيلة.

إن جل من صاغ النظريتين «الزنجية والقومية الغربية» لم يكونوا فقط من الذين درسوا اللغات والآداب الغربية وتأثروا بها، بل هم من الذين ربتهم الكنيسة وساندت خطاهم في كل تحركاتهم.

إن الثقافة الإسلامية الأصيلة التي نعتز بها، والتي يجب على المسلمين جميعاً أن يكيفوا حياتهم بها، لم تكن رد فعل من ضغط خارجي أو من سيطرة بشرية فرضت علينا، إنما هي من الإسلام، والإسلام رسالة إلهية موجهة إلى كافة الناس في كل الأزمنة، وهي فطرة سليمة فطر الله سبحانه الناس عليها.

إن كل المحاولات التبريرية لمواقف الإسلام لكي يكون مقبولا إرضاء لأعداء الإسلام خضوع لهجمات التبشير الصليبي ومسايرة للاعتداءات الصهيونية ومساهمة لا واعية للتشكيك في قيم الإسلام وتقويض لرسالته الإلهية.

فالثقافة الإسلامية الأصيلة ثقافة إنسانية عالمية يتقبلها الناس من جميع الأجناس في أية مرحلة من مراحل تطورهم الحضاري، ويستسيغونها ويهضمونها، لأنها من وحي رسالة الإسلام الخالدة. إنها ليست إنتاج جنس معين ولا إنتاج مرحلة معينة. وهي صالحة لكل الناس ولكل الأزمان. وكما يؤمن الإنسان ذوالفطرة السليمة طواعية بالدعوة الإسلامية، كذلك يتقبل الإنسان ذو الروح الصافية والتفكير السليم الثقافة الإسلامية الصميمة عن اقتناع ويستلهمها في إنتاجه الأدبي والفني وفي نشاطه الفكري والمادي، ويستوحي منها الطاقة الخلاقة والجمال والإبداع.

إن الإنسان المؤمن الذي وهب استعداداً فطرياً، حين يهضم الثقافة الإسلامية الأصيلة ليرتفع بالفن الذي يزاوله إلى درجة من السمو بقدر استلهامه من تلك الثقافة وبقدر مقدرته على الإبداع. «إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه».

وقبل أن أنتقل بالحديث إلى مظاهر الثقافة الإسلامية في غرب إفريقيا، أريد أن أتحدث إجمالاً عن ثقافة شعب إفريقي قدر له أن يلعب دورا خاصاً خلال ما يقرب من قرنين من الزمن (1725 ـ 1893 م) في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية واللغة العربية في غرب إفريقيا، ألا وهو الشعب الفلاني.

بعض مظاهر الثقافة الفلانية قبل الإسلام

إذا كانت الثقافة أسلوباً للحياة، وطريقة للصيرورة ينتهجها الشعب لإجراء تغييرات تفترضها بيئته الطبيعية والاجتماعية، فإن الشعوب الإفريقية قد عرفت مظاهر مختلفة ومتميزة للثقافة، فالمثقف عند الشعب الفلاني مثلا هو المطلع على جميع المعارف والتقاليد الموروثة. ولابد أن يكون ذا نسب معروف، وأن يتحلى بالمروءة بما فيها من الشجاعة والكرم والنجدة وإنكار الذات، ويتصف بالفضائل بما فيها من الاستقامة والقناعة والعدالة، وأن يكون عارفاً بتاريخ وأنساب شعبه والشعوب المجاورة،

ومُطّلعا على لغة الشعب وآدابه، وملمّاً بمبادئ علم الفلك والجغرافيا وحاذقاً لعلم النبات، والطب الإنساني والبيطري، وأن يكون مرجعاً لدلالة الأصوات والألوان والعلامات المميزة في الإنسان والحيوان، وقادراً على تفسيرها والاستدلال بها للتنبؤ عن الأحداث التي قد تقع مباشرة أو في المستقبل، وأن يكون راوياً للطقوس والطلسمات والترانيم والأدعية التي تتلى في المناسبات لجلب المنافع ودفع المضار. ويكون ملجأ لشعبه في الملمات، وقطب رحى في الأفراح والأتراح. هذا هو الذي يسمى عند الشعب الفلاني بـأرْطُ أوسِلْتِغْ ماوُطْ أوآغ (Ardo, siltigui-Mawdo et Aggà) حسب علمه واختصاصه، وحسب السلطات الروحية أو المادية التي أسندت إليه، فهو القائد والرائد والعارف الكامل عند هذا الشعب الذي يصفه بهذه العبارة الجامعة المانعة بالفلانية : «م سُمالد جهُوب، لُوند جو طيب» أي هو قربة للراحلين وقدر للمقيمين، فإلى جانب هذه الثقافة الرفيعة، توجد ثقافة شعبية جماهيرية تحملها فئات اجتماعية معينة تلقت نوعاً محدداً من الثقافة، وتخصصت فيه وجعلته وراثياً هي طبقة وَامْبابي (Wambaabe) التي من اختصاصها حفظ الأنساب وتسجيل الحوادث البطولية والفضائل أو المكرمات الخاصة بالأبطال أو بالشعب كله وسردها في المناسبات. أما الثقافة الرفيعة التي أشرنا إليها آنفاً فهي للنخبة من النبلاء ذوي النبوغ والعبقرية. وقد كان داب سامب (Daabo Sambo) من بُوط - باي (Boodi-Baye) في محافظة موبتي (Mopti) في مالي، خير من يمثل هذه الثقافة الفلانية الأصيلة، وقد توفي عام 1913 عن عمر بلغ 85 سنة، وقد كتبت حياته كما رواها لي حفيده والمشايخ الذين عاصره أجدادهم وتتلمذوا عليه ورووا عنه كثيراً من معرفته الواسعة في الناس والحيوان ومظاهر الكون، كما أن أرْطْ دمْب (Ardo Dembo) من جينجلْب (Djengelbe) في منطقة جيري (Djeeri) في السنغال الذي تتلمذ عليه الشيخ «أحمد همفات به» يمثل هذه الثقافة. ويذكر الشيخ أحمد همفات به أنه مكث معه شهراً، يخرج معه كل يوم إلى السهول الممتدة في المنطقة وتعلم منه اسم كل شجرة رآها، وكل شجيرة وكل حشيش، وخاصية كل منها وعلاقتها بنجم من النجوم (الدراري والمنازل) وبالإنسان والبقر. كما كتب عنه كثيراً من الترانيم والمزامير والأساطير ذات المغزى التاريخي للشعب الفلاني.

الثقافة الإسلامية في غرب افريقيا (النموذج الفلاني)

عندما استتب الإسلام في غرب إفريقيا، وقد اعتنقه وعاشه خيرة الرجال يومئذ في المنطقة، وتملك مشاعرهم، وأطلق مواهبهم الكامنة، وأظهر كفاءاتهم في كل ميادين الحياة (الناس معادن فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام)، انتشرت الثقافة الإسلامية في أوساطهم، وازدهرت اللغة العربية، وأصبحت لغة الدواوين والآداب، وتسربت مفرداتها وأساليبها في التعبير إلى لغات الشعوب التي أسلمت وإلى لغات الشعوب التي تجاور هذه وتتعامل معها، وهي لم تسلم بعد.

إن أهم ميدان تأثر بالثقافة الإسلامية، والذي ظهر فيه هذا التأثير واضحاً جلياً هو ميدان التربية والتعليم، فالمناهج الدراسية وطرق التدريس والكتب المقررة وطريقة إعطاء الإجازات العلمية في مدارس غرب افريقيا ومراكزها العلمية لا تكاد تختلف في شيء عن التقاليد التي كانت سائدة في فزان وغدامس وغات ومصر والقيروان وتلمسان وتوات وسجلماسة وأغمات ومراكش وفاس أو قرطبة.

يسلم الطفل إلى الكتّاب في سنه السابعة عادة، فيلقن الحروف الهجائية حرفاً حرفاً بدون شكل، فإذا عرف كل حرف في صوره المختلفة في الكلمة، تعلم الحروف كلها مشكولة أولا في الترتيب الهجائي، ثم راجعها في السور الأخيرة من جزء «سبح» التي تحتوي على جميع الأحرف العربية مع أشكالها من فتحة وكسرة وضمة وسكون وإمالة وتنوين. وتبدأ هذه السورة من سورة الناس إلى همزة، أو منها إلى سورة الزلزلة مع سورة الفاتحة دائماً. ولا يبدأ الطفل مرحلة القراءة إلا إذا أتقن التهجي وميز الأحرف

وعرف الأشكال بدقة. وقد يستعين الشيخ المؤدب بعدد من التركيبات والآيات مثل الآية الأخيرة من سورة الفتح التي تضم جميع أحرف المعجم، وهي ﴿**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم...**﴾ إلى آخر السورة.

والجدير بالملاحظة هنا هو أن هؤلاء المؤدبين قد اخترعوا أسماء في لغاتهم لأكثر أحرف التهجي العربية وأشكالها، لأنهم اعتبروا رسم الحروف في صورها وأوضاعها في الكلمة محاكاة لأجزاء من جسم الإنسان أو الحيوان أو لأشياء مشاهدة من صنع الإنسان. فالطفل الذي نشأ في بيئة معينة، واكتسب مفردات من لغته، وأدرك صور الأشياء الملموسة وأسماءها بالاختبار والتعلم، يستطيع أن يثبت في ذهنه بسهولة أسماء هذه الأحرف وأشكالها التي لقن إياها بلغته عن طريق المقارنة والمقابلة.

ويجتاز الطفل هذه المرحلة في فترة تتراوح بين ثلاثة أشهر وستة أشهر في الحالة العادية، ثم يبدأ مرحلة القراءة: تكتب له آية أو آيتان أو سورة في لوحة ابتداء من سورة الفاتحة ثم الناس والفلق ولا يغسل درسه إلا إذا استظهره. ويمرّن على الكتابة بأن تكتب الأحرف في لوح، وتسطر له خطوط مستقيمة في لوحه، ويمرن على إمساك القلم ومحاكاة الأحرف أو الكلمات حين يتقدم، ثم تُسلم إليه ورقة من المصحف تحتوي على درسه، توضعُ عن يساره والدواة عن يمينه، واللوح على فخذيه. وينقل درسه في لوحه. وهكذا يومياً إلى أن يستقر خطه في صيغة معينة، ويستمر الطفل هكذا حتى يختم القرآن في فترة تتراوح بين سنتين وسبع سنوات حسب ذكاء الطفل واستعداده وحسب اعتناء المعلم ومقدرته التربوية، ثم يعيد الطفل قراءة القرآن في اللوح قصد استظهاره إن لم يكن قد استظهره في دورة القراءة الأولى أو إتقان حفظه، وذلك ابتداء من الفاتحة ثم البقرة إلى سورة الناس. والطفل الذكي يحفظ القرآن مع انتهاء هذه الختمة الثانية.

وتقام للطفل وليمة عند الختمة الأولى، وتقدم إليه هدايا من الملابس والحيوانات، كما تقدم إلى شيخه هدية تتكون عند الفلان من ثنية مع ملابس بيضاء للزينة أو عجل تبيع أو فرس، ويدعى إلى هذه الوليمة زملاء الطفل في الدراسة مع تلاميذ المدارس في القرية المجاورة مع شيوخهم مع كل من استطاع أن يحضر من الأقارب وأصدقاء الأسرة، وتذبح الثيران والضأن ويهيأ الطعام، ويوزع على كل بيت في القرية، وبعد أن يطعم المدعوون، يختم القرءان وتقرأ الأدعية المأثورة ويدعو الشيخ للطفل بالبركة والسعادة وحسن الخاتمة.

ثم يمضي الطفل فترة في دراسة مبادئ الفقه المالكي، والتوحيد في العقيدة الأشعرية ومبادئ اللغة العربية في المتون الصغرى وفي كتب التصوف والأخلاق، ثم ينتقل إما إلى دراسة القرآن والتخصص في حفظه وتجويده ومعرفة رسمه في حملة السومى ورسم طالب عبد الله، وفي المقنع ومورد الظمآن، وإتقان مخارج حروفه في مقدمة ابن الجزري، ومعرفة أوجه قراءاته في منظومة ابن بري، ومعرفة عدد كل كلمة وردت فيه رواية أو في مخطوطات في هذا الفن ألفها حفاظ المنطقة، ثم يتعلم أحكام الوقف والابتداء في الأشموني وغيره، وتاريخ القرآن والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول وأوجه القراءات وعللها في إتقان السيوطي وبرهان الزركشي والباقلاني، ويتخصص في القراءات السبع أو العشر في منظومة الشاطبي وغيث النفع للصفاقسي والنشر لابن الجزري، والتلميذ الذي وصل إلى هذه المرحلة في معرفة القرآن الكريم هو الحافظ المتقن الذي يقصده من يريد التخصص في تدريس القرآن، وقد يتوقف بعض الطلبة إذا أتقنوا قراءة نافع، وبعضهم يكتفون بالحفظ والتجويد ومعرفة رسم القرآن. والإجازة تعطى في ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى، عندما يتقن التلميذ **صنعة** القرآن، ويحذق قراءة نافع بروايتي ورش وقالون، بعد التجويد ومعرفة كل تفاصيل رسم القرآن حسب هذه القراءة.

المرحلة الثانية، عندما يتقن فن **الرمز** أي أن يعرف عدد كل كلمة وردت في القرآن، وأن يستطيع عدها والإشارة إلى الآية التي وردت فيها الكلمة المعدودة. وأن

يكون له لكل كلمة يعرف عددها تقييداً واضحا من بيت أو من ضبط الأحرف الأولى من الكلمة التي تعقب أو تسبق الكلمة المعدودة أو ذكر السورة أو الجزء من القرآن، إن كان ذلك لا يؤدي إلى التباس.

فمثل التقييد بالبيت :

فـــإيَّـــاي بـــالفـــاء يـــا اللـــه
ولا تُجَـــادلـــوا وقـــال اللـــة

أي إن كلمة فإياي بالفاء، لا وإياي بالواو، لم ترد في القرآن الكريم إلا في موضعين.

الأولى وردت بالثمن الأول من الحزب الواحد والأربعين الذي يبدأ بـ ﴿**ولا تجادلوا أهل الكتب إلا بالتي هي أحسن**﴾ في سورة العنكبوت، وهي ﴿**فإياي فاعبدون**﴾.

والثانية وردت في الثمن الأول من الحزب الثامن والعشرين الذي يبدأ بـ ﴿**وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإيَّاي فارهبون**﴾ في سورة النحل.

ومثل الضبط بالأحرف : **فيت**، فأما اليتيم، يدع اليتيم، تكرمون اليتيم، أي أن كلمة اليتيم بفتح الميم لم ترد في القرآن إلا في هذه المواضع الثلاثة في الانشراح والماعون والفجر.

ولا يتخصص في هذا النوع من علوم القرآن إلا من أتقن حفظه وتجويده ورسمه.

والمرحلة الثالثة، في نيل الإجازة هي عندما ينتهي الطالب من إحدى المرحلتين، ويدرس القراءات السبع أو العشر فقط أو مع القراءات الشواذ ويعرف الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول ويعرف أحكام الوقف والابتداء والمحكم والمتشابه من القرآن. والطالب الذي يصل إلى هذا المستوى يعتبر من الحفاظ المتخصصين في معرفة كتاب الله العزيز حفظاً ورسماً وتجويداً وقراءة. وإما أن يتجه الطفل إلى دراسة علوم اللغة العربية وعلوم الدين فيدرس الفقه في منظومة القرطبي ومختصر الأخضرى وفي ابن عاشر والعشماوية وإرشاد السالك وفي رسالة ابن أبي زيد القيرواني وتحفة ابن عاصم ومختصر خليل وفي اختصار الباجي للمدونة وفي المدونة نفسها ومعيار الونشريسي، ويدرس أصول الفقه في ورقات إمام الحرمين وفي جمع الجوامع وألفية العراقي وموافقات الشاطبي، ويدرس مفردات اللغة العربية والأدب العربي في ابن دريد وفي المعلقات الست ومقامات الحريري مع الاستعانة بالقاموس وبعض المتون المتوفرة لدى الشيخ، ويدرس النحو في الأجرومية وملحة الاعراب وقطر الندى وألفية ابن مالك في شرحيه : البهجة المرضية للسيوطي، وابن عقيل، ويدرس الصرف في لامية الأفعال، ويدرس العروض والقوافي في الخزرجية والكافية، ويدرس التوحيد في البرهان وأم البراهين للسنوسي والسلاليجي وغيرهما، ويدرس علم الكلام في منظومة الجزائري وفي مقالات الأشعري، والسيرة في ابن هشام وفي الشفا لعياض، والمدح في ابن المهيب والبوصيري والبدماصي، ويدرس الحديث والمصطلح في موطإ الإمام مالك وفي البخاري ومسلم وغيرها، ويدرس البلاغة في المفتاح وفي تلخيص القزويني وفي أساس الزمخشري الذي أقر تدريسه في نعمة وتمبكتو، والمنطق في سلم الأخضري، والتصوف والأخلاق في الحكم لابن عطاء الله وفي الإحياء للغزالي، فإذا وصل الطالب إلى هذا المستوى، يؤذن له بأخذ تفسير القرآن الكريم عن شيخ ثقة أخذ التفسير وأجيز فيه، ويطلق عليه حسب المناطق لقب ألفا أوفودي (Alfaa ou Foodiya) أي العالم الفقيه، ويتسلم الإجازة، ويعمم عِمامة العلماء، ويسلم بعض المشايخ إجازة عند الانتهاء من دراسة كل فن من الفنون (المواد الدراسية)، وهذه الإجازة تذكر سلسة من الشيخ إلى المؤلف في أغلب الأحيان.

وهكذا كانت نظم التعليم والتربية في غرب افريقيا أيام ازدهار الثقافة الإسلامية في فوتا - تورو (السنغال وموريتانيا) وفوتا - جالون (غينيا) وماسنه (مالي) وبلاد الهوسا (النيجر ونيجريا)، وبلاد شنقيط (موريتانيا) وأرُوان وتادمكت (مالي) وفي أهير (النيجر) وكانم - بورنو (نيجيريا).

أمـا اليـوم فقـد تغير الـوضـع تمـامـاً حتى عنـد البيضـان والفلان، وأصبح من الصعب العثـور على الحـافـظ المتقن أو العـالم المـدقـق فضـلا عن العـالم الحـافـظ أي من يجمع معرفة القرآن واللغة العربيـة والعلوم الإسلاميـة في آن واحد، معرفة دراية وفهم.

وإلى جـانب هـذه العلوم الإسلاميـة، كثيراً مـا يتلقى الطالب مبادئ الحساب الأولية قبل أن يبدأ في دراسـة علم الفرائض في الفقه، وقبل أن يأذن الشيخ لتلميذه بالالتحـاق بأهله ليبدأ في التدريس، يعلمه مبادئ علم الهيئة (الفلك)، النجـوم والتـوقيت، ويـدربـه على استعمـال الأوفـاق والطلسمات، ويلقنه علم العـدد والحروف وطريقـة استعمال أسماء الله واستخدام الأرواح الخفية، ويأخذ عليه العهد بألاّ يسيء استعمال تلك الأسرار، وألاّ يلجأ إليها إلاّ في حالـة الضرورة القصوى.

ومن المعروف أن أكثر هـذا النوع من الأسرار يـدخل في بـاب السحر، وقـد أدخلـه بعض العلمـاء في ضمن العلوم التي ينبغي على طلبة العلم أن يتعلموها ليتقوا بها مكـايـد السحرة والكهـان، وليتوسلوا بهـا إلى إثبـات تفوق الإسـلام على الوثنية.

فقد كانت ولاتـة وتيشيت وشنقيـط وبوتلميت ونعمـه في ديار البيضان (موريتـانيـا) وتيلون، وانفجلون وغيـد في فوتـا ـ تـورو، وتمبـو ولأبي ومـوببي في فـوتـا ـ جـالـون، ومنطقـة ميم وتنـدرمـا وأروان وتـادمكت وتمبكتـو وجـاك وجن وسـوكـولـو وسـانـانـدنـع ومـدينـة حمـد اللـه ـ في القرن التاسع عشر فقط ـ (مالي) وتكدا في أهير، وكـاتسينـا وسكت وكـانـو، هي المراكـز العلميـة التي ازدهرت فيهـا الثقافة الإسلامية ونشرت الثقافة الإسلامية في المنطقـة على تفـاوت من أدوارهـا في حمل مشـاعل النور إلى المنـاطـق الجنوبية التي لم تلتحق بـالركب الإسـلامي إلا مؤخراً. وقـد وصلت هذه الثقـافـة إلى القمـة في القرنين الثـامن والتـاسع عشر الميلاديين، فكتاب الوسيط وفتح الشكور ومنح الغفور فيمـا أهملـه فتح الشكور، إن هـذه الكتب الثـلاثـة تعطينـا فكرة عن مدى مـساهمة شعوب افريقيا الغربية لإثراء الثقافة الإسلامية وتأثير هذه الثقافة على اللغات الإفريقية والثقافة الإفريقية.

تـأثير الثقـافـة الإسـلاميـة على الثقـافـات الإفريقية (النموذج الفلاني)

إن التلميذ يتلقى تعليمه الابتـدائي والثـانوي والعـالي بلغته، لأن جميع الكتب المقررة في مدارس تجويـد القرآن أو في المجـالس العلميـة، ألفت بـاللغـة العربيـة وتفسر لـه كلمـة كلمـة إلى لغتـه، ونرى كثيراً من كبـار العلمـاء في المنطقـة يعرفون اللغـة الفصحى ويفهمون كـل كتـاب ألف باللغة العربية، ولكنهم عـاجزون على إجراء حـديث بـاللغـة العربيـة، لأنهم كـانوا في الحقيقـة أثنـاء تلمـذتهم يـدرسـون لغـاتهم أكثر ممـا يـدرسـون اللغـة العربيـة التي ألفت فيهـا الكتب المقررة.

ومن خلال هـذه الـدراسـة، تسربت المفردات العربيـة إلى لغـات الشعوب التي حـذقت الثقـافـة الإسـلاميـة، كمـا تسربت إليهـا الأسـاليب العربيـة في التعبير، وازدادت تلـك اللغات غنىً وثروة في المفردات ودقة وتهـذيبـاً في التعبير، وانتشرت في أوسـاطهـا الأسـاطير والقصص العربيـة، وتـأثر الإنتاج الأدبي لهـذه الشعوب من شعر ونثر بـالأدب العربي الجـاهلي والأدب الإسـلامي من صدر الإسـلام حتى نهـايـة العصر العباسي تقريباً.

فقد بدأ الأفارقة في جنوب الصحراء يؤلفون في اللغـة العربيـة منـذ استقرار الإسـلام في المنطقـة، وبـدأت حركـة التدوين ابتداء من القرن الثالث عشر، وازدهرت في القرنين الخـامس والسـادس عشر، وألفوا في الفقـه وأفتـوا فيـه، وفي النحـو والصرف، وفي التصـوف الإسـلامي والأخـلاق وفي التاريخ والسِّير، ونظموا قصائـد في مـدح الرسول ﷺ وفي الغزل والمفـاخرة والهجـاء وفي موضوعـات شتى، وفي هـذه الفترة ظهر «درر الحسـان» في تـاريخ ملوك السودان و«نيل الابتهاج» وعشرات من الكتب الأخرى لأحمد بابا السوداني، وفيها ألّف تاريخ السـودان للسعدي، وفيهـا بـدأ ألفـا محمود كعت تأليفه الفتاش، وشرح ألفا عمر السـنوسي لامية الأفعـال

في الصرف، كما ألفوا عدة كتب أخرى لم تزل مخطوطة في أيدي الناس حتى الآن، وقد عثر في الفترة الأخيرة مركز أحمد بابا في تومبكتُو على مخطوط هام في تراجم علماء بلاد السودان يعتبر تكملة لفتح الشكور ونيل الابتهاج، وهو «كتاب مِنَحُ الغفور فيمَا أهمله فتح الشكور»، وقد شرع الدكتور محمود عبده الزبير تحقيقه معي، كما أننا نرى ضرورة إعادة تحقيق فتح الشكور.

ولعل أظهر مساهمة قام بها المثقفون في غرب افريقيا أكثر من غيرهم في إثراء الثقافة الإسلامية هي تطويرهم لذلك الفرع الهام من علوم القرآن الذي اصطلح علماؤهم على تسميته **بالرَّمْز** أي إحصاء كلمات القرآن ومعرفة عدد كل كلمة وردت فيه، وعدد الكلمات المتشابهة في الرسم وفي النطق، وعدد الكلمات المتجانسة في الأحرف والأشكال. وقد قام حفاظ الفلان بتأليف عشرات من الكتب في هذا الفن بالإضافة إلى الكتب التى ألفها علماء البيضان، ويُعتبر هذا الفرع من علوم القرآن علما أنتجه وطوره علماء بلاد السودان، والكتب التي ألفت في هذا الفن لم يطبع منها كتاب واحد، على ما أعلم، حتى يومنا هذا، وأنا على يقين بأن طبع بعض هذه المؤلفات ونشرها في الأوساط العلمية في العالم الإسلامي سيضع حدا لهذه الضجة التي أثيرت في الفترة الأخيرة حول الإعجاز العددي للقرآن، وستدلنا على أن هذا الاكتشاف المزعوم الذي يروج له المتلطفون على علوم القرآن، ودعاة البهائية ليس له أي أساس علمي، لأن أكثر الأعداد التي استخرجوها لكلمات القرآن، وبنوا عليها نظريتهم خاطئة.

ولم يتوقف الإنتاج الأدبي للأفارقة في غرب القارة في اللغة العربية فقط، بل أرادوا أن يجعلوا من الثقافة الإسلامية ثقافة جماهيرية. وترجموا الكتب الأدبية إلى اللغات الوطنية، واستعملوا الأحرف العربية لكتابة لغاتهم، وألفوا في هذه اللغات كثيراً من الكتب والقصائد التي تُعدّ بحقّ مساهمة فعالة في نشر الثقافة الإسلامية في أوساط الجماهير المسلمة في المنطقة.

في سنة 1828، ظهر كتاب معدن السعادة (أوغرد ملل) باللغة الفلانية، وقد ألفه نظماً ألفا محمد سَامْبَ ديالو من قرية مُنْبِيى في فوتا ـ جالون (غينيا) وعلّل كما يأتي سبب تأليفه الكتاب بلغته : «إن كثيراً من الفلان لا يفهمون ما يتعلمونه باللغة العربية، وسيظلون في شك (من دينهم). والاعتماد على الشك في الفرائض والواجبات غير مجدٍ لا في القول ولا في العمل، ومن يطلب اليقين والتخلص من الشك والارتياب، فليقرأ إذن باللغة الفلانية هذا الكتاب من نظم هذا الإنسان الضعيف. فكل ما يشمل معرفة الأمور الشرعية جائز، سواء كتب باللغة العربية أو باللغة العربية أو باللغة الفلانية أو باللغات الأخرى، فالمهم أن يتوصل به إلى معرفة مقاصد الشرع».

وقد ضمن ألفا محمد سامب كتابه كل ما يحتاج المسلم إليه من العبادات والأحوال الشخصية والمعاملات والحدود.

ثم وضع تلميذه محمد هلا في سنة 1837 كتابا في العقائد سماه بكب، وهو في الحقيقة ترجمة لبرهان وأم البراهين.

وفي سنة 1870، لخص محمد خير الدين مرُورو ـ سبا قرب مدينة جيبو (بورْكنا ـ فاسو) 13 كتاباً ومنظومة في التوحيد، منها البرهان وأم البراهين، ورتب كل ذلك حسب أبواب التوحيد، وترجمه إلى اللغة الفلانية، وسماه بَرْدَ، وهو يضم النص (جيأل) والشرح (پُرِى) والهوامش (سَلْت)، وقد قمت بكتابة هذا الكتاب بمساعدة الأخوين جاجى سدبه وبُوكر سانكورو، وصححنا النسخة بمعاونة أحد الحذاق من حفظته، وبلغت صفحاته (727) من الحجم المتوسط.

وفي سنة 1813 م دعا الشيخ عثمان فودِيٌ من وورْنو ـ سكت (Wurno-Sokkoto) في نيجريا أخاه عبد الله وابنه محمد بالو وقال لهما : أرأيتما لو أنكما تنتميان إلى أسرة يرأسها ويدير شؤونها عمٌ لكما، وللأسرة مزرعة يشترك جميع أفرادها القادرين في حرثها وسقيها، هل تخرجان معهم للمساهمة في هذا العمل الجماعي الذي

يقومـون بـه ؟ فقـالا : نعم، إننـا نخرج ونسـاهم حسب مقدرتنا، فقال هل يمنعنكما أداء ما عليكما من واجب نحو الأسرة المشتركة عن القيام بعمل جانبي لتتمكّنا من تلبية بعض الحاجـات الضروريـة في أسرتيكمـا الخـاصتين ؟ كإعداد مزرعة صغيرة تعتنيان بها في أيـام الراحـة وأوقـات الفراغ، وقالا، لا. فسألاه أن يفصح ويزيدهما بيانا، فقـال : إنـه، أي الشيخ نفسـه، وهمـا : عبـد اللـه فودي ومحمـد بللو ينتمون إلى الأمة الإسلاميـة، واللغة العربيـة هي لغة هـذه الأمة بأسرها، وهي لسان العرب خـاصـة. وأنهم قـد تعلموهـا وأتقنوها وألفوا بمجموعهم عشرات الكتب فيهـا، وهـذه اللغـة إذن بمثابـة المـزرعـة المشتركـة للأسرة جميعـا، فقـد أدوا واجبهم إزاءها، ولكنهم أهملوا اللغة الفلانية التي هي لغتهم ولغة آبائهم وأجدادهم، وهي بمثابـة المزرعـة الخـاصـة التي يجب عليهم العناية بها إلى جانب عنايتهم بـاللغـة العربيـة، فعليهم أن يدرسوهـا ويؤلفوا فيهـا كمـا فعلوا بـالنسبـة للغـة العربية، فقام الشيخ عثمان فودى بترجمـة مختصر الأخضري في العبـادات إلى اللغـة الفـلانيـة؛ ونظم قصـائـد كثيرة في الفقـه والتصـوف والسيرة والأخـلاق في هـذه اللغـة، وقـام أخـوه عبـد اللـه بعمـل ممـاثـل، وترجم عـدة مقـامـات من مقامات الحريري إلى اللغـة الفلانيـة كمـا ترجم من كتـابـه ضياء التأويل عدة أجزاء في التفسير إلى هذه اللغة.

وقبل هؤلاء، قام ألفا سعيد من ماسينه بتـأليف كتـاب في الفقـه سماه : دُوكَّلْ دُوكُّـو (Dokkal Dokko) أي منحـة المعطي، وجمـع فيـه المســائِلَ الفقهيـة الـواردة في مختصر خليل والمدونـة، وهـو يقـع في أكثر من خمسمئـة صفحـة، وتوجد منه نسختـان في قريـة توكو «Tooko» بـالقرب من تيننغ (Tenengo) في مالي.

وقـد قـام شعبـا التُّونْنكـه والهوْسـا في هـذا الميـدان بأعمال مماثلة لما قام به الشعب الفلاني.

وفي أواخر القرن التاسع عشر، نظم الشيخ محمد علي شام قصيدتـه الرائعـة في حيـاة الحـاج عمر الفوتي بـاللغـة الفلانية، وقـد ترجمهـا وعلق عليهـا ونشرهـا حـاكم السنغـال الفرنسي فـادن، وتعتبر هـذه القصيـدة أحسن مرجع يعتمـد عليه في معرفة حياة الحاج عمر الفوتي.

ولا أنسى بالذكر العلامة ألفا سامب من قرية مـاسينـه الواقعة في منطقة بَاغِرْمي، وقـد التقى بـه الرحـالـة بـارْت وتحـدث معـه طويلا أمـام كوخـه ووصفـه بـأنـه يعرف كل العلوم التي كانت تدرس في القرون الوسطى، وكان مطلعا على جميع أعمـال سقراط وأفلاطون وأرسطـوطـاليس، وقـد عثر أحـد المشـايخ عـام 1962 م على جزء من مكتبتـه في منطقة برنو، وهي تضم جزءاً هاماً من مؤلفاتـه التي مـازالت مخطوطة.

إنني لأتمنى من كـل قلبي أن تنبثق خطـة عمليـة لجمـع هـذه المخطـوطـات المتنـاثرة في غرب افريقيـا وتصنيفها ليتناولها بالدرس والتحقيق الباحثون.

إن تحقيق هذا الأمل ليُعدُّ مساهمة فعالـة فيمـا نصبو إليـه من التفـاهم المتبـادل بين العرب والأفـارقـة في إطـار وحدة الأمة الإسلامية المنشودة.



من ذخائر التراث
في الترسل
على عهد الموحدين

العطاء الجزيل في كشف غطاء الترسيل

لأبي القاسم البلوي

عرض وتقديم : الأستاذ إدريس العلوي البلغيثي

مدخل :

تزخر الخزانة الحسنية بالرباط بعدد وفير من ذخائر التراث[1] في مختلف العلوم والفنون والآداب. وهي لا تمثل في نظرنا إلا نزرا يسيرا من موروثنا التليد، إذا ما قيست بعطاءات القرون العشرة المنصرمة، ويعزز هذه النظرية ما قاله مدير هذه الخزانة الباحث الأستاذ الخطابي عن هذا الموروث : «وهو قليل بالمقارنة مع ما كان يجب أن نرثه»[2].

وقد تعهد هذا التراث ملوك المغرب بالرعاية، منذ زمن بعيد، حيث حرصوا على جمعه وحفظه في خزاناتهم الخاصة، يقينا منهم أنه أحد مقومات الأمة ومكتسباتها الحضارية والتاريخية، التي تثبت به هويتها العربية والإسلامية، وتستعين به على نهضتها الفكرية.

وقمين بنا أن نحذو نهج هؤلاء الأسلاف رضوان الله عليهم، فنهتم بما خلفوه لنا من إرث عظيم، ونعمل على حفظه من آفات الاندثار، وذلك بنشره وتحقيقه ودراسته، وجعله أداة صالحة لتطوير ثقافتنا المعاصرة وتجديدها.

ومن الذخائر النفيسة التي توجد بالخزانة الحسنية العامرة، وتستحق منا كامل العناية، المخطوط الذي كشف النقاب عنه العالم الباحث الأستاذ محمد المنوني[3]، والحامل عنوان «**العطاء الجزيل في كشف غطاء الترسيل**» للأديب المترسل أبي القاسم أحمد البلوي. وسأقوم بعون الله بعرضه وتقديمه في هذا المقال، مساهمة مني في مسيرة البعث التراثي والثقافي ببلادنا.

التعريف بصاحب الكتاب :

وصاحب الكتاب هو أحمد بن محمد بن عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله بن علي القضاعي البلوي الإشبيلي[4]، يكنى أبا القاسم.

كان سلفه في قرطبة يعرفون ببني علي.

ولد بإشبيلية عام خمسة وسبعين وخمسمائة (575 هـ)، ونشأ بها في بيت علم وأدب، تتلمذ على بعض أفراد أسرته

1) تربو على عشرين ألف مخطوط.

2) الخزانة الملكية في المغرب، مجلة الأمة، ع : 225، س/1402/2/ 1982.

3) المصادر العربية لتاريخ المغرب ـ مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ـ العدد 7/1980.

4) المراكشي، الذيل والتكملة : السفر الأول، القسم الثاني ـ ص : 453.

كأخيه للأب أبي الحسن البلوي، وخاله أحمد القرمادي، وغيرهما من مشاهير شيوخ الفقه واللغة، والفكر والأدب، وقد تأثر كثيرا بأستاذه أبي عبد الله ابن عياش في فن الترسيل.

برع في علوم القرآن والحديث والقراءات والفرائض، وعلوم اللسان، خاصة في علم العروض، والآداب، والحساب والهندسة. وأصبح قبلة لطلاب العلم، يفدون إليه من كل حدب وصوب، لينهلوا من معينه الثر.

ومن أشهر الذين تتلمذوا عليه العالم الأديب ابن عبد الملك المراكشي، الذي قال في حقه :

«قرأت عليه كثيراً من الحديث والآداب، وتلوت عليه بعض القرآن برواية ورش، وتدربت بين يديه في علم العروض وصنعة الحساب وعمل الفرائض، وأجاز لي إجازة عامة غير مرة»[5].

اشتغل بالكتابة في دواوين أمراء بني عبد المؤمن بإشبيلية وغيرها، ثم تركها إلى كتابة الشروط، فأجاد عقودها، واكتسب بواسطتها شهرة فائقة.

زار حضرة مراكش مرتين، التقى في الأولى بأبي عبد الله ابن عياش[6]، واختص به، وظل في كنفه إلى أن فصل عنها إلى الأندلس، وفي الثانية قدم مع وفد إشبيلية لتقديم التهنئة إلى الخليفة المعتضد[7] بمناسبة تقلده عرش المغرب سنة أربعين وستمائة للهجرة.

ويشاء القدر أن يصبح مشئوم الطلعة لشؤم استهر به[8]، يعيش حياة الشظف، واضطر مع هذه الظروف القاسية أن ينزح إلى حاحة بضواحي مراكش لتعليم أبناء أحد رؤسائها، غير أنه سرعان ما عاد إلى مراكش، واستأنف كتابة عقود الشروط، يقتات من دخلها القليل، وبقي على هذا الحال إلى أن قيض الله له وصول الواعظ أبي عبد الله البغدادي[9] إلى مراكش، فتعرف عليه وتولى كفالته وأنقذه من براثن الفاقة، في وقت تنكر له الأصحاب والخلان، وبعض التلاميذ ممن تلقفوا طريقته في الترسيل، وتخرجوا على يديه، كالشيخ أبي الحسن الرعيني[10] الذي كان أوفر أهل الحضرة مالا، وأعظمهم جاهاً، وكانت داره مجاورة لداره، ومع ذلك لم يشفق لحاله، ويعطف عليه[11].

وقد اعترف بذلك في فصل من إحدى رسائله الإخوانية قائلاً : «وما كتبت إليكم يا أخي المشفق الحدب هذا الكتاب، إلا وأنا موله العقل مما حل بي من اعتداء الزمان وخذلان الأصحاب، وأشد من ذلك اختلال أحوال ربة الدار، وكونها جارت أفعالها وأقوالها وجرت على غير الاختيار.

عنـدي من الحـزن مـا لـو أن أيسره
يلقى على الفلـك الـدوار لم يـدر[12]

وكيف يهنأ العيش مع سوء الحال باطناً وظاهراً، وارداً وصادراً، أحياني الله بالحمام، وحياني بحلول دار السلام»[13].

وبقي أبو القاسم على هذا الحال إلى أن لبى نداء ربه بمراكش سنة سبع وخمسين وستمائة (657 هـ)[14]. تاركاً

5) الذيل والتكملة : 1 القسم 2، الصفحة 454.
6) هو محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمان بن عبد الله بن عياش التجيبي، يكنى أبا عبد الله، كتب في أول أمره عن الرشيد، ثم عن أخيه المنصور، فالناصر وأخيراً المستنصر، توفي بمراكش سنة 618 هـ.
(ترجمته في التكملة : 605/2، والمغرب : 81/2، وزاد المسافر : 94، والمعجب : 381 ـ 382، والذيل والتكملة : س : 6، ص : 384).
7) هو علي بن الخليفة إدريس أبي العلاء، يكنى أبا الحسن السعيد تولى الخلافة (640 ـ 646 هـ).
8) ابن سعيد، اختصار القدح المعلى، الصفحة : 120.
9) توجد ترجمته بالذيل والتكملة السفر : 8، القسم : 1 تحقيق : د. محمد بن شريفة الصفحة : (274 ـ 280)، 1984.
10) هو علي بن محمد بن علي الرعيني، من أهل إشبيلية، يكنى أبا الحسن، كتب عن أمراء الأندلس، خلفاء دولة الموحدين كالمأمون والرشيد والمعتضد، والمرتضى والواثق، توفي بمراكش سنة 666 هـ. (انظر ترجمته في صلة الصلة : 141 ـ 142، الذيل والتكملة، س : 5، ق : 1، ص/323، 369، وبرنامج شيوخه، والإحاطة).
11) نفس المصدر (الذيل والتكملة)، الصفحة : 13.
12) بحر البسيط.
13) القدح المعلى، الصفحة : 121.
14) ورد في القدح المعلى لابن سعيد أنه توفي سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، وهو خطأ يؤكده تاريخ وفوده على الخليفة المعتضد، كما سبقت الإشارة، سنة 640 هـ.

آثاراً جليلة[15]. بوأته مقاما رفيعاً في عالم الإبداع الأدبي، وخاصة في فن الترسيل.

وقد أثبت له ابن عبد الملك المراكشي كتباً أدبية لم يذكر أسماءها، ومجموع رسائل أهل عصره ومن قبلهم، وديوانا يضم المجموعات الثلاث في العروض، وهي : كبير وصغير ومتوسط، مع مختصر في القوافي، وكتابا في منتقى الأشعار على فنون الشعر، شرع في تأليفه في آخر عمره، وعجز عن إتمامه لكبر سنه، وسماه : «**روض الأديب والمنزه العجيب**» ضاهي به «**صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب**» لشاعر الخلافة الموحدية أبي العباس عبد السلام الجراوي[16].

ويعد البلوي من الأدباء المرموقين، الذين ذاع صيتهم في العصر الموحدي، رغم النكسات التي تعرض لها في حياته، وقد رزقه الله موهبة فذة، وملكة فنية رفيعة، وباعاً طويلاً في فن الترسيل.

قال عنه ابن سعيد[17] : «وأنشدني قصائد طويلة تدل على طول نفسه، وشدة مرسه»[18]. جمع بين مزيتي الشعر[19] والنثر، فهو شاعر مجيد، نظم في أغراض كثيرة».

قال ابن عبد الملك المراكشي عن شاعريته : «سمعته يقول غير مرة : لو شئت أن لا أتكلم في حاجة تعرض لي مع أحد، وأحاوره إلا بكلام منظوم لفعلت غير متكلف ذلك»[20].

ومن أشعاره قوله يصف حالته بعد أن قلب الدهر له ظهر المجن[21].

لمن أشكو مصابي من البرايا
ولا ألقى سوى رجل مصاب
أمور لو تدبرها حكيم
لعاش مدى الزمان أخا اكتئاب
أما في الدهر من أفضي[22] إليه
بأسراري فيونس بالجواب ؟
يئست من الأنام فما جليس
سرى علي الهموم[23] سوى كتابي[24]

ويقول مصوراً تجربته الفاشلة في الحياة :[25]

لبعد حبيب إذا ما حصل
وقد فنيت في رضاه العلل
وقرب عدو على فجأة
حسود حقود كثير الحيل
ولؤم صديق على غفلة
أوان إليك سعى وارتحل
فأحوجك الدهر يوماً له
وقد نهضت بمناه الدول
أخف على ناظري طلعة
من الشيب إذ جاء قبل الأجل
وولى الشباب ولم أقض من
زيارته ورضاه الأمل
فطوبى لمن متعت نفسه
به ثم في ذيله قد رفل[26]

ومن أشعاره في المناسبات، قوله يمدح المعتضد، ويهنئه بصير ورة الأمر إليه بعد الرشيد[27]، سالكاً طريقة الصنعة البديعية[28].

---

15) الغريب أن ابن سعيد وهو من عاصره وعاشره، ينفي أن يكون الله قد رزقه كتبا ينتفع بها، ويقتصر على ذكر مصنفه في رسائل كتاب عصره، نفس المصدر، ص : 120.
16) الذيل والتكملة س : 1، ق : 2، ص : 455. توجد ترجمة الجراوي بالقسم الأول من التكملة : 323، وورد ذكره في زاد المسافر : 7 ـ 9، والنفح : 388/2، والأزهار : 365/2.
17) القدح : 120.
18) المرس : الممارسة.
19) توجد بعض مراثيه الرائقة، وأشعاره المبثوثة في الرسائل بمجموعه المخطوط.
20) الذيل، ص : 457.
21) القدح : 120.
22) وردت «أفشي» في رواية نفح الطيب الجزء : 3 الصفحة : 325.
23) في رواية النفح : «يعز على نهاي».
24) بحر الوافر.
25) القدح : 121.
26) بحر المتقارب.
27) هو عبد الواحد بن إدريس أبي العلاء، يلقب بالرشيد، خلافته «630 هـ ـ 640 هـ».
28) الذيل والتكملة : السفر : الأول، القسم : الثاني، ص : 457 ـ 459.

الحمد لله بشرى بعدها بشر
خليفة بشر بهدى به البشر
نامت رعيته في حجر إمرته
وفي رعايتها من شأنه السهر
وأشرق الأنس من بعد الرشيد به
كأنما هو في ليل الأسى قمر
فضائل الخلفاء الرشدين له
مجموعة فيه من آياتها الكبر

ومنها :

يهني الشريعة أن أصبحت كافلها
فالروح أنت لها والسمع والبصر
بأمركم حاط سرب الدين ناصره
تحيي العباد وتحميهم وتنتصر
رمى بك الله أهل الكفر تسحتهم
وأنت معتضد بالله منتصر
فالله رام وأنت السهم في يده
والقوس طائفة التوحيد والوتر[29]

ولمع البلوي في مجال النثر الفني، وأبان عن مقدرة كبيرة في تدبيج الرسائل بنوعيها : الإخوانية والديوانية، وقد أبدع في الكثير منها، حتى التي كان يرتجلها في بعض المناسبات، وكان ينحو طريقة أستاذه أبي عبد الله ابن عياش، الذي كان مدرسة متميزة في هذا الفن.

قال عنه عبد الواحد المراكشي : «ولم يكتب لهم منذ قام أمرهم ـ أعني من كتبة الإنشاء ـ من عرف طريقتهم وصب في قالبهم، وجرى على مهيعهم، وأصاب ما في أنفسهم كأبي عبد الله ابن عياش هذا، فإن القوم لهم طريقة تخالف طريقة الكتاب، ثم جرى الكتاب بعده على أسلوبه وسلكوا مسلكه لما رأوا من استحسانهم لتلك الطريقة»[30].

ومن شهد له بقصب السبق في الترسيل ابن سعيد، حيث قال عنه : «كاتب شهير المكان في الصناعة»[31].

عني بجمع الرسائل وتصنيفها في مجاميع مأثورة، كان لها صيت ذائع في الأوساط الأدبية الموحدية، يتداولها المتأدبون، ويقتبسون من نماذجها الرفيعة ما يسعفهم على تمرسهم في الكتابة، والبلوغ إلى أعلى المراتب في جهاز الدولة.

ويهمنا من هذه المجاميع، المجلد الأخير من كتاب **«العطاء الجزيل»** الذي سنخصه، بمشيئة الله بالعرض والتحليل.

التعريف بالكتاب :

والكتاب مجلد ضخم، من حجم كبير، يقع في خمس ومائتي صفحة، مسطرته 31، ومقياسه : 21/32. مكتوب بخط أندلسي[32] أسود، باهت اللون لقدمه، كثير الخروم بفعل الأرضة، والمحو بسبب الرطوبة، مبتور الأخير[33] محفوظ في ورق مقوى ومشمع.
ناسخه مجهول[34].

وهو من ذخائر التراث النفيسة التي توجد بالخزانة الحسنية العامرة[35]. والأمل وطيد في أن يكشف البحث التراثي عن الأجزاء المفقودة[36]، والتي تحتضن أربعة عشر باباً، ليكتمل المجموع، وتنتظم درات عقده.

أقسام الكتاب :

يتألف الكتاب من ستة أبواب، وزوائد ملحقة بها. وتبتدئ الأبواب من الباب الخامس عشر إلى متم العشرين.

وقد وردت في خاتمة مطاف الباب العشرين[37] إشارات مضيئة عن تاريخ تأليف الكتاب، والملابسات التي

29) بحر البسيط.
30) المعجب : الصفحة : 381 ـ 382، ط : 7 ـ 1978.
31) القدح : 120.
32) يتخلل المخطوط في نهاية الباب السابع عشر، وبداية الثامن عشر، خط مغربي دزئ مستعصى القراءة، من ورقة 80 إلى ورقة 99.
33) يبتدئ البتر من الباب الأول من قسم الزوائد التي ألحقها المؤلف بأبواب الكتاب، إبتداء من الورقة 32.

34) يذكر الناسخ في هامش الباب السابع عشر أنه نسخ هذا المؤلف من الأصل : «لما وجدت في الأصل الذي بخط المؤلف المنسوخ»، ورقة : 55.
35) مسجل تحت رقم 6148.
36) يوجد مجموع للمؤلف البلوي بخزانة العالم الباحث الأستاذ محمد المنوني، وهو مبتور الطرفين، مجهول الناسخ.
37) صفحة : 171 ـ 172.

أحاطت به، نعرضها في المقتطفات التي سلمت من الخرم والمحو. يقول المؤلف :

«ابتدأت جمع هذا الكتاب في شعبان سنة عشر وستمائة، وختمته الآن هنا في شعبان سنة ثلاث عشرة وستمائة، ولم يكن اشتغالي به في خلال هذه الثلاثة الأعوام التي بين الوقتين المذكورين متصلا، بل كان مقطعا منفصلا، عاق عنه في أوقات، منها السفر والاغتراب، وفي أوقات أخر مطل من طلبت منه رسالة أو استعير منه كتاب، وفي أوقات أخر شكاية أو ملل أوهم شاغل أو كسل. ومعظم المجموع فيه إنما جمعته في الثمانية عشر شهرا التي استخدمني فيها برسم الكتابة في إشبيلية - حرسها الله - مولاي السيد[38] الأجل المعظم الفاضل الزاهد المحسن المنعم أبو إسحاق[39] ابن سيدينا الخليفتين الإمامين أميري المؤمنين، نضر الله وجهه، وقدس تربه».

ويعترف المؤلف بفضل الأمير الإشبيلي عليه في هذا الإنجاز العظيم، والمتجلى في تشجيعه ماديا، ومدّه بالمأثورات التي كانت تزخر بها خزانته العامرة : «وأغرم لي من خزانته جملة من الرسائل[40]. الكبائر المذخورة عنده في الأعلاق والذخائر، وأمرني بإيراده في خلال أبوابه وأثنائها».

واحتضن هذا العمل الأدبي الرفيع أحد خواص الأمير أبي إسحاق، وتعهدة بالرعاية والمرفد : «ووافق أن وقع هذا المجموع من خاصته، المستخلص لديه الشيخ الفقيه اللبيب الأديب العالم الماهر المتفنن الحبيب الفاضل الأريب أبي إسحاق بن أبي الحجاج... فحفزني فيه حفز الظمآن في إحضار الماء، وبات يرعى كماله شوقاً إليه رعى الهيمان نجوم السماء».

ويذكر المؤلف ما عاناه من كلال أثناء عملية النسخ، مع الناسخ الذي لم يذكر اسمه : «واستأجر لنسخه من مبيضاتي ناسخاً... فأجهدت نفسي فيه في تلك المدة قياماً بحقه، وخدمة لعرضه ووقفه، وكنت في تلك المدة أتولى من شغل الكتابة وحدي ما انقسم على ستة كتاب بعدي».

ولم يحدد المؤلف معالم المنهجية التي سلكها في تأليف الكتاب، ولعل غزارة المادة، وكثرة الكتاب الذين اختارهم للأبواب، وتنوع الموضوعات حال دون ذلك، وقد فطن إلى ذلك في نهاية الأبواب، فراح يتلمس لنفسه الأعذار : «فمهما كان في هذا المجموع شيء من... أو علة من العلل، من إعادة أو وهم أو اجتلاب شيء قد ذكر في الوجيز من الرسائل أو اختلال في ترتيب أسماء الرجال والأواخر والأوائل، أو ما أشبه ذلك مما يلوح بالتصفح والبحث هنالك».

والمتمعن في الكتاب يستنتج أن المؤلف اعتمد على المنهج الفني في ترتيب الأبواب، وتصنيف الكتاب، متجاوزاً بذلك الحدود الزمانية والمكانية. وهو ما جعله يتميز عن المجاميع الأخرى بالعمومية والشمولية، وبالنظرة الفنية المنصفة.

أبواب الكتاب :

وأبواب الكتاب الستة هي :

- **الباب : الخامس عشر :**[41]

ويدور حول الإهداء والإتحاف والاستدعاء والاستزارة والاستجداء والاعتذار والإسعاف.

وكتابه هم : الحسن بن وهب، وأبو القاسم الهمذاني، وبديع الزمان، وأبو إسحاق، وأبو العباس بن رشيق، وأبو حفص بن برد الأصغر، وأبو الوليد إسماعيل، وأبو عمر بن حجاج، وأبو محمد عبد الغفور، وأبو عبد الرحمان ابن طاهر، وأبو المطرف بن الدباغ، وأبو القاسم بن السقاط، وأبو الفضل بن حسداي وأبو عبد الله بن عياش، وأبو بحر صفوان بن إدريس، وأبو زيد الفازازي، وأبو بكر بن مغاور الشاطبي، وأبو عمر بن حفصون، وأحمد بن محمد البلوي.

38) يعني به الأمير.

39) هو الأمير إبراهيم بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي، تولى ولاية إشبيلية سنة خمس وستمائة (605 هـ)، وتوفي حوالي سنة سبع عشرة وستمائة (617 هـ).

40) محو في السين والألف.

41) ص : 1 - 20.

ويورد المؤلف لهؤلاء الكتاب نماذج متنوعة من ترسيلهم، تتفاوت بين الطول والقصر، وتزيد بعض الأحيان على السبعة للكاتب الواحد كما هو الشأن بالنسبة للكاتب أبي بكر بن مغاور الشاطبي، وللبلوي أيضا.

أما عدد الرسائل والفصول في هذا الباب، فخمسة وأربعون، لم يسلم منها من فعل الأرضة والرطوبة إلا القليل.

ومن الفصول الجيدة التي نوثر عرضها، ما كتبه أبو حفص بن برد الأصغر[*] في أسلوب بديع :

«لم[42] نلتق مذ عرينا مركب اللهو وأخلينا ربع الأنس، وقصصنا جناح الطرب وعبسنا في وجوه اللذات، فإن رأيت أن تخف إلى مجلس قد نسجت فيه الرياحين بالدواوين، والمجامر بالمحابر، والأطباق بالأوراق، وتنازع المدام بتنازع الكلام، واستماع الأوتار باستماع الأخبار، وسجع البلابل بسجع الرسائل، كان أشحذ لذهنك، وأصقل لفكرك، وآنس لخاطرك، وأطيب لنفسك، وأفرج لهمك، وأرشد لرأيك، ونحن منزل أبي فلان بحيث نلتمح سناك، ونتنسم رياك، وقد راعنا اليوم باكفهرار وجهه، ومادر من كافور ثلجه، فادرعنا له بالستور، وانغمسنا بين جيوب السرور[43]، ورفعنا لبنات الزناد رايات حمرا، وأجرينا لبنات الكروم خيلاً شقراً، وأحببنا أن تشهد [ ][44] كيف يهزم، وأنفاس البرد كيف تكظم»[45].

ومن طريف ما في الاستدعاء، ما كتبه أبو المطرف ابن الدباغ[46] يستدعى حمراً، معتمداً في ذلك على التأنق البديعي :

«طلع علينا هذا اليوم فكان يمطر من الغضارة صحوه، ويقبس من الإنارة جوه، ويحيى الرقيم اعتداله، ويصبى الحليم جماله، فلقتنا زهرته، ونظمتنا مهجته، في روضة أرضعتها السماء أشابيبها، ونثرت عليها كواكبها، وفد علينا النعمان بشقيقه، واحتل فيها الهند بخلوقه، وبكر إليها بابل برحيقه، فالجمال يثنى بحسنه طرفه، والنسيم يهز لأنفاسه عطفه[47]، وتمنينا أن يتبلج صبحك من خلال فروجه، وتحل شمسك في منازل بروجه، فتطلع علينا الأنس بطلوعك وتهديه بوقوعك، ولن تعدم نوراً يحكي شمائلك طيباً وبهجةً، وراحاً تخالها خلالك صفاءً ورقة، وألحاناً تثير أشجان الصب، وتبعث أطراب القلب، وندامى ترتاح إليهم الشمول، وتتخطر بأرجهم القبول، ويحسد الصبح بحلهم الأصيل ويقصر بمجالستهم الليل الطويل[48].

ومن النماذج الرفيعة التي تستوقفنا في هذا الباب، ماكتبه أبو زيد الفازازي[49] جواباً على ما كتبه إليه أبو القاسم البلوي في استدعاء موشحة له :

«يا سادتي الذين جمعت المحاسن أسماؤهم، وأطلعت النير فلكهم وسماؤهم، لازال ربعكم مطيراً، وقدركم خطيراً، وذكركم في كل معلوة مستطيراً.

وصلتني منكم سحاة طابقت الفصل أزهارا، وشابهته أضواءً وأنواراً، فعجبت من ليل نقس أطلع صباحاً، ومن روض طرس أنبت أقاحاً، على حين كلّ لسان الإحسان، وصافت سهام الأفهام، وانقشعت مواطن الخواطر، وانتكثت مراير الضمائر، ولم يبق ذهن إلا ونضب حسيه، ولا فكر إلا طفل مسيه، فغاية التحرير، على ماذا التحرير، هجعة كلال،وضجعة ملال.

---

[*]) هو أحمد بن محمد بن أحمد، من أهل قرطبة، رحل إلى ألمرية ودانية وغيرهما، وخدم بالكتابة أمراء الأندلس، واشتهر أمره، حتى فاق جده (أبا حفص الأكبر) في النثر والشعر. ألف لصاحب المرية : المعتصم بن صمادح كتابا موسوما بـ «سر الأدب وسبك الذهب». ترجمته في الذخيرة، القسم الثالث : 82، والقلائد : 106، والمغرب، 440/2، والنفح : 534/1 و306/4.

42) سقوط حرف اللام.

43) سقوط حرف الألف.

44) محو بمقدار كلمة.

45) الصفحة : 4.

46) هو عبد الرحمان بن فاخر الملقب بابن الدباغ، كتب للمقتدر بن هود، والمعتمد ابن عباد، وكانت نهايته أن قتل ببطليوس، راجع

47) سقوط حرف الهاء.

48) ص : 6.

49) هو عبد الرحمان بن محمد بن يخلفتن بن أحمد الفازازي، من جبل فازاز بقبلي مدينة مكناس، يكنى أبا زيد، نشأ في مراكش، واشتغل بالكتابة في دواوين الموحدين، وختم حياته بالزهد، ونظم العشرينيات في مدح المصطفى ﷺ وتوفي حوالي سنة 624 هـ. (ترجمته في التكملة 1641، وبرنامج الرعيني : 101، والإحاطة : 517/3، وبغية الوعاة : 91/2، ونفح الطيب : 468/4 ـ 469، والذيل والتكملة : 8/ق2/، ص : 542).

وإن طبعاً يتدفق على جمود الطباع، وذهناً يتألق أوان جمود الشعاع، أحق ذهن بأن أمسح عطفه، وأستمنح عطفه، وأقدمه وأصلي خلفه»[50].

ونختم هذا الباب بالرسالة التي كتبها المؤلف أبو القاسم البلوي في موضوع الاسعاف : «من إبراهيم بن سيدنا أمير المؤمنين بن سيدنا أمير[51] المؤمنين إلى القومط الزعيم اربل بن القومط نونه[52] - وفقه الله وأرشده - أما بعد حمد الله كما يجب لوحدانيته وجلاله، والصلاة على محمد رسوله المصطفى وعلى آله. والرضا عن الإمام المعصوم المهدي المعلوم وارث شيمه النبوية وخلاله، وعن الخلفاء الراشدين المرشدين الذين مشوا أمره العزيز إلى غاية كماله. والدعاء لسيدنا الخليفة الإمام أمير المؤمنين أبو يعقوب[53] بن الخلفاء الراشدين بتيسير آماله، وتعريفه النصر الأعز والفتح الأسنى في كافة أحواله. فكتبناه إليكم من إشبيلية - حرسها الله - ولا جديد إلا فضل الله الأكمل، وصنعه الأجمل، وبركة أمره العزيز التي تعم وتشمل، والحمد لله رب العالمين كثيراً. وقد وصل كتابكم فوقفنا على ما ضنتموه[54] من جميل الأغراض ووصل رسولكم الوزير الحكيم أبو الحجاج بن مزاح - وفقه الله - صحبة الوزير الحكيم الأثير الأكرم أبي إسحاق بن أبي الحجاج بن الفخار - تولى الله توفقيه - فتعرف من قبله أيضاً ما عندكم في موالاة الموحدين - أعزهم الله - والاستناد إليهم من[55] جميل المقصد. وستجدون بركة ذلك عند المقام الإمامي العلي - أفاض الله أنواره، ونصر أنصاره.

فإن عادته في الاحسان إلى من أسند إليه، وأورد النصيحة عليه، قد عرفها القريب والبعيد، وقام عليه الدليل والشهيد[56]. وأما ما أشرتم إليه من طلب الاعتناء برسولكم المذكور فكذلكم كنا نفعل لو لم تؤكدوا[57] ذلك. فإن الذي عندنا من رعي مثلكم من ذوي الأغراض الجميلة جميل، وسيصاحب رسولكم المذكور في هذه الحركة التهمم الموالي والرعي الموصول بحول الله ومشيئته، وكل ما قررتم من حسن المقصد فإنه مشكور لكم. والله يعرف الخير والخيرة في كل ما يقضيه، ويعين الجميع على ما يرضيه، بمنه وكرمه، لا رب غيره، ولا خير إلا خيره»[58].

والرسالة نموذج في الديوانيات، ترسم لنا النهج الذي اتبعه الكاتب، المتسم بالإيجاز والاقتضاب، خاصة في المقدمة التي كان الكتاب يطنبون فيها، ويميلون إلى التكلف. فقد اكتفى البلوي بذكر المرسل، والمتكوب إليه، ثم الحمدله والتصلية والترضية عن الإمام، والدعاء للخليفة، فالدخول إلى الموضوع المقصود، وأخيراً الختم بالدعاء.

الباب السادس عشر :[59]

ويختص بالعتاب والتقريع والذم والتشنيع، ويشتمل على واحد وخمسين نصاً لاثنين وعشرين كاتباً، وهم : علي بن الحسين بن علي، ومعاوية بن أبي سفيان، وعبد الملك بن مروان، والحسن بن وهب، وعبد الحميد، وبديع الزمان، وأبو الخطاب، والعبدكاني، وأبو العباس بن رشيق، وأبو حفص بن برد الأصغر، وأبو عبد الله بن مسعود، وأبو مروان ابن حيان، وأبو عبد الرحمان بن طاهر، وأبو بكر بن القصيرة، وابن حداي، وأبو محمد عبد الغفور، وأبو بحر صفوان بن إدريس، وابن مبشر، وأبو الحكم بن عبد العزيز، وعبد الحميد، وأبو الحجاج بن عتبة، وأحمد البلوي.

ومما يثير الانتباه في هذا الباب، احتضانه لبعض الشخصيات التاريخية، التي كان لها دور في الساحة السياسية، ونخص بالذكر منها معاوية بن أبي سفيان، مؤسس الدولة الأموية، أورد له المؤلف رسالة كتبها إلى ابنه وخلفه يزيد، يعاتبه فيها على استهتاره بالدين،

50) ص : 9.
51) سقوط حرفي الياء والراء.
52) Nuno Perez de Lara
53) يوسف بن عبد المؤمن بن علي، بويع سنة 558 هـ. وتوفي سنة 580 هـ. انظر ترجمته : في المعجب / 345، والحلل الموشية / 157، وتاريخ المن بالإمامة : 221/2، وروض القرطاس / 202، والبيان المغرب : 55/3.
54) سقوط حرفي الميم والواو.
55) سقوط حرف النون.
56) سقوط الحرف الثالث - وقد قدرته الشين، حيث استقام المعنى.
57) سقوط حرف الألف من آخر الكلمة.
58) ص : 18.
59) ص : 20 - 53.

وانجرافه مع تيار الغواية، ونظرا لأهمية الرسالة نقتطف منها ما يلي : «اعلم يا يزيد أن أول ما يسلبكه الشكر معرفة مواطن الشكر لله تعالى على نعمه المتظاهرة وآلائه المتواترة، وهي الجرحة العظمى والفجيعة الكبرى، وتركك الصلوات المفروضات في أوقاتها وهو أعظم ما يحذر من آفاتها ثم ما يتلوها من استحسان العيوب، وركوب الذنوب، وإظهار العورة وإباحة السر، ولا تأمن نفسك على سرك، فما غير عيش هكذا فادراً عن نفسك، وقصر عن فعلك، فما خير لذة تعقب الندم تعفي الكرم. وقد توقف أمير المؤمنين بين شطرين من أمرك لما يتوقعه من غلبة الافه واستهلاك الشهوة، فكن الحاكم على نفسك، واجعل المحكوم إليه ذهنك ترشد إن شاء الله وليبلغ أمير المؤمنين ما يرد شارداً من نومه فقد أصبح نصب الاغترار من كل مؤانس ودربه الألسن الشامتة، وفقك الله، فأحسن»[60].

وهي رسالة توجيهية، تعد نموذجاً في الأدب الإصلاحي.

وكتب أبو القاسم البلوي في هذا الباب رسالة في المودة، تتخللها نفحات من العتاب، وتفيض بأصدق العواطف وأنبلها، في أسلوب جيد، يعتمد على التصوير الفني، والتأنق البديعي : «الحب في ذات الله ـ أدام الله كرامة الأخ الخالص الأصفى أبي فلان ـ إذا اثبت ورسخ، ونقي من دنس المذق فما درن ثوبه[61] ولا اتسخ، واستوى في الخلوص والصحة سره وجهره، وجرى بين شطي الصفاء والوفاء نهره، وأضاء بدره وعرف قدره، وامتلأ به قلب المحب وصدره، ولم نخسر به نزغ شيطان، ولا كان عليه للفساد من سلطان، ولا قدح في عوده تفرق الأجسام ولا تنازح الأوطان، والمرء إذا صح اعتقاده، اغتفرت أحقاده، واحتسب في جنب الود انتقاده، ويبقى الود ما بقي العتاب، وإذا لم يكن في الود رضاً ولا سخط ففي أي حلاوة يتصرف الكتاب، وقد كان تقرر من ودنا ـ والحمد لله ـ مالا يخاف على عقده أن ينحل، ولا على نظمه أن يختل، ولا على صحيحه أن يعتل، فما يضرنا أن نزغ الشيطان بيننا إذ وودنا وثيق، وكلانا برعي الذمام حقيق. ألا وإني لعاتب عليكم حيث لم يكن لنا عند سفركم وداع، ولا امتدت في مصافحتكم على ما يجب ذراع. وإني بعد من الشوق إلى عهدكم لعلى شوك وجمر، وفي أدهى شأن وأعظم أمر. ولئن تفرقنا بالأشخاص، فلقد اجتمعنا بالإخلاص، وإن تباينا بالأجسام، فقد تماثلنا بالأوهام، وإن تنازحت العيوب، فقد تصافحت الأرواح والقلوب، وإن أودى الزمان بأيامنا[62] النفائس، فما أنا من أن يجمع الله بيننا على خير ما كنا عليه يائس، بل أرجو أن تحد أوائل أيامنا للأواخر، وتعود بالود الذي بيننا أن تفسد أول بالآخر، ومثلكم من عرف حق المودة والمقة، وكان عند الظن به والثقة، وأنس بكتابه من وحشة البين، وبعث من خطابه بقرة العين، وعلم أنه الزمان يصقب وينزح، ويمسي ويصبح، ويأسو ويجرح، ويفسد بين الخليلين ثم يصلح. أصلح الله ما بيننا، وأقر بحسن اللقاء عن قريب عيننا[63]، وجعلنا ممن اصطحب في ذاته، ودأب على مرضاته، بمنه والسلام»[64].

الباب السابع عشر :[65]

ويتناول التعازي في أنواع المصائب، والتفجع عند النوائب، وتتصدر هذا الباب رسالة للنبي ﷺ يعزي فيها الصحابي معاذ بن جبل[66] رضي الله عنه في فقدان فلذة كبده، آثر الناسخ[67] أن يقدمها على جميع رسائل الكتاب،

60) ص : 21.

61) سقوط الواو.

62) سقوط الباء.

63) سقوط النون والألف.

64) الصفحة : 51.

65) الصفحة : 54 ـ 90.

66) انظر ترجمته في الطبقات 583/3، الاستيعاب 1402/3، الإصابة : 106/6 الإعلام للزركلي : 258/7.

67) يؤاخذ الناسخ المؤلف على إدراجه اسم النبي ﷺ مع الكتاب بقوله : «رأيت أن ذلك في حق النبي ﷺ نقص، وأن حسبانه مع من عداه إفصاح في التقصير بحكم الغفلة الجارية على البشر» الهامش ص : 55.

مخالفاً نظام المؤلف في الترتيب، وذلك تأدباً مع رسول الله ﷺ، وتعظيما لاسمه الكريم.

ويحتوي الباب على خمسة وأربعين نصاً من الرسائل والفصول وأربع مراث، لواحد وعشرين كاتباً، وهم بحسب الترتيب بعد المصطفى ﷺ : عبد الحميد، وأبو إسحاق الصابي، وأبو الفضل الميكالي، والبديع، وعمرو بن مسعدة، وأبو الحسين أحمد الأصبهاني، والحسن بن وهب، وأبو العباس بن رشيق، وأبو جعفر اللماني، وأبو عمر بن الباجي، وأبو عبد الرحمان بن طاهر، وأبو بكر بن عبد العزيز، وأبو عبد الله اللوشي، وعماد الدين الأصبهاني، وأبو بكر بن مغاور، وأبو عبد الله بن عياش، وأبو عبد الله حماد، وأبو الحكم بن عذرة، وأبو عمرو بن غياث الشريسي، وأحمد بن محمد البلوي.

ولما كانت رسالة النبي ﷺ تتصدر عقد هذا الباب، فإنه يجدر بنا أن نورد نصها، مبينين من خلالها جانبا من بيانه ﷺ في مجال الترسيل :

«من محمد[68] رسول الله إلى [ ][69]
أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد :[70] فعظم[71] الله لك الأجر، وألهمك الصبر، ورزقنا وإياك [ ][72]. ثم إن أنفسنا وأهلينا وموالينا وأولادنا من[73] مواهب الله الهنيئة وعواريه المستودعة يمتع بها إلى أجل معدود، وتقبض منا لوقت معلوم ثم افترض علينا الشكر إذا أعطي، والصبر إذا ابتلى. كان ابنك من مواهب الله الهنيئة، وعواريه المستودعة، متعك به في غبطة وسرور، وقبضه منك بأجر أثير[74]، والصلاة والرحمة والهدى إن صبرت واحتسبت، فلا تجمعن عليك يا معاذ خصلتين أن يحبط جزعك أجرك فتندم على ما فاتك. فلو قدمت

68) بقي من الكلمة حرف الدال.
69) محو بضع كلمات، لعلها اسم المكتوب إليه : «معاذ بن جبل».
70) محو الدال.
71) محو الميم.
72) محو بمقدار كلمة.
73) محو النون.
74) محو الراء.
75) سقوط الحرف الثاني، وقدرته بالسين، حيث استقام المعنى.

على ثواب مصيبتك قد أطعت ربك وتنجزت موعوده، وعرفت أن المصيبة قد قصرت عنه. واعلم أن الجزع لا يرد ميتاً، ولا يدفع حزناً. فأحسن العزاء وتنجز الموعود وليذهب أسفك[75] ما هو نازل بك فكأن قد والسلام»[76].

وننتقل من عهد النبي ﷺ إلى عهد بني أمية لنقف على رسالة رقيقة في العزاء، كتبها عبد الحميد[77] عن مروان بن محمد إلى أخيه، وكلها عبر ومواعظ مستوحاة من تعاليم الإسلام السمحة :

«أما بعد، فإن أحق الناس باستكمال الصبر والحسبة وصحة النية عند عظيم المكروه وكبير المرزية وفادح المصيبة من ألهمه الله مثل الذي بصرنا فعلمنا أهل البيت من أداء الحق إلى الله وطاعته، والرضا بقضائه وقدره، والتسليم لأمره مما يرضي الله. وقد كان من قضاء الله في الحكم بن مروان ما نسأل الله أن يعصمنا بما يرضيه من الصبر ويبلغنا محبته من الخشية وقبول ما علمنا من[78] الاسترجاع عند المصيبة فإنه يقول : **﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾**[79]، ونسأله قبول قولنا وطاعتنا إياه، ونسأله أن يغفر له ذنبه، ويفسح له قبره، ويلحقه بنبيه محمد ﷺ، ويتجاوز عن سيئاته، ويضعف له حسناته، ويحسن الخلافة أهل البيت بعده، فما كان أعظم المرزية، نسأل الله أن يثيبنا من صلواته ورحمته وهداه، أفضل ما وعد الصابرين، وأكمل ما أثاب المحسنين، والسلام»[80].

ويساهم المؤلف في هذا الباب بمجموعة رسائل وقصائد رثائية، يعزي فيها الأمير أبا إسحاق، الذي ترك موته أثراً عميقا في نفسه، وفراغا كبيرا في حياته.

76) صفحة : 55.
77) انظر الوزراء والكتاب للجهشياري ص/72 وما بعدها، ووفيات الأعيان لابن خلكان 228/3 ـ 232 والفهرست 170، والمسالك والممالك للاصطخرى 155، والبيان والتبيين 208/1، وعيون الأخبار 26/1، والصناعتين للعسكري، وصبح الأعشى 85/1.
78) سقوط حرف الميم.
79) سورة : البقرة 156.
80) سقوط حرفي اللام والسين من الكلمة. الصفحة : 55.

ونقتطف من أولى هذه الرسائل الرقيقة المؤثرة الفصل التالي :

«وبعد حمد الله المنفرد بالبقاء، الحاكم على جميع خلقه بالفناء، والصلاة على محمد رسوله خاتم الأنبياء. والرضا عن الإمام المعصوم المهدي المعلوم، وعن جميع الأئمة الراشدين الأعلام المرشدين الخلفاء. والدعاء لسيدنا الخليفة الإمام أمير المؤمنين أبو يعقوب بن الخلفاء الراشدين بتخليد الأيام، وإطالة البقاء ونصر الأعلام، وحراسة العلاء. فالكتاب إليكم كتب الله لكم أماناً من الدهر، وفسحة في العمر. من إشبيلية - حرسها الله - وللأمر العزيز - أدامه الله - معهوده من نصر اللواء، وقهر الأعداء، وفيض أنواره على كافة الأرجاء، ولله الحمد رب العالمين على السراء والضراء، وما تعلمونه - وصل الله عزتكم - من إيثاركم وإجلالكم، وشكر مقاصدكم وخلالكم، مستمر على مذهبه اللاحب، ومقصده المصاحب، وصله الله في ذاته وابتغاء مرضاته. وقد اتصل بمجلكم - حرس الله حوباءكم - نبأ الرزء الملم، والخطب الفادح المدلهم، والحادث [ ][81] الذي صدم الفؤاد، وضعضع الضلوع والأكباد، وأوهن قوى التجلد، وهاض جناح التصبر بما كان من وفاة السيد الأجل الهمام المكرم والأمجد الأسنى أبو إبراهيم بن سيدنا الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين بن الخلفاء الراشدين جدد الله عليه رحمته[82]، وأسكنه جنته، فأصاب مجلكم بذلكم أعظم مصيب، وخصه من التوجع له أوفر نصيب، وبلغ به الوجد كل مبلغ ونال منه كل منال، وآلمه هذا الحادث أشد إيلام. وانتهى[83] به[84] التأثر إلى أبعد غاياته، وأقصى نهاياته. فيالها من مصيبة ما أبكاها للعيون، وأشجاها للقلوب ﴿**فإنا لله وإنا إليه**[85] **راجعون**﴾[86]. وتلكم - أدام الله عافيتكم -[87] عادة الأيام في بنيها، وسبيلها التي سلك الأولون ويسلك الآخرون فيها، لا يقبل فداء، ولا يجدي بكاء. ومن صحب الأيام ذكرته بمواعظها ووعظته بحوادثها، وإذا كان الحمام غاية كل موجود ذي روح، ونهاية كل حي من المخلوقين يغدو أو يروح، فإن الصبر على كل حال مفزع اللبيب ومرجع الأريب»[88].

الباب الثامن عشر[89] :

ويتعلق بالأوصاف على اختلاف الأنواع والتصرف، ويشتمل على أربعة وثلاثين نصا لثلاثة عشر كاتباً، وهم : عبد الحميد بن يحيى، وأبو محمد الحريري، وأبو عبد الله بن الحفاظ، وأبو عامر بن سهيل، وأبو محمد عبد الغفور، والفتح بن عبيد الله، وأبو عبد الرحمان بن طاهر، وأبو جعفر بن أحمد، وأبو القاسم بن السقاط، وأبو بكر بن مغاور، وأبو بحر صفوان، ومجهول، وأحمد بن محمد البلوي.

ومما يلاحظ في هذا الباب، أن المؤلف أورد للحريري نماذج متعددة ومتنوعة من أدبه، تنحصر في خمس رسائل. الأخيرتان منها ملتزمتان : إحداهما بحرف السين، والأخرى بحرف الشين، مع الختم بالشعر، كما أورد له خطبتين، وفصلاً من مقامته السادسة عشر المغربية، ينتهي بخمسة أبيات شعرية. وتدلنا هذه النصوص على سعة ملكة الحريري الأدبية، وتضلعه في علوم اللسان العربي.

ومن طريف ما ورد في هذا الباب، وصف الكاتب الفتح بن عبيد الله[90] للأدب :

---

81) سقوط كلمة.
82) سقوط الراء.
83) سقوط الألف المقصورة.
84) سقوط الباء.
85) سقوط «إنا إليه».
86) سورة : البقرة : 156.
87) سقوط الباء.
88) ص : 76.

89) ص : 91 - 109.

90) هو الفتح بن محمد بن عبيد الله، يكنى أبا نصر، ويعرف بابن خاقان، صاحب «قلائد العقيان، في محاسن الأعيان»، توفي ذبيحاً بمراكش سنة 529 هـ (انظر ترجمته في : معجم ابن الأبار : 300، ووفيات الأعيان : 407/1، والمغرب في حلي المغرب 254/1، وشذرات الذهب : 107/4، وإرشاد الأريب : 124/6، والنفح : 19/4 - 60 الأزهار : 97/5 - 99.

«وبعد، فإن الأدب أجمل ما التحفته الهمة، وعرقته هذه الأمة، فإنه مطلق اللسان من عقال، ومنطق[91] الإنسان بصواب المقال، وله من النظم والنثر نجمان، صارت القلوب لهما فكاً، والخواطر مسلكاً، ومازالت صدور الملوك لهما محلاً، ولباتهم بهما تتحلى، ومجتمعاتهم ميدان مجالهما، ومكان رويتهما وارتجالهما، ترتشف فيهما ثغورهما، وتخطف لديهما نورهما. وكان الندى يسقيهما فيثمران بالإبداع، ويسفران عن محاسن كالصبح عند الانصراع»[92].

وكتب أبو القاسم بن السقاط[93] في إهداء فرس :

«قد بعثت إليك ـ أيدك الله ـ بجواد يسبق الجلية وهو يريث ويتمهل، متى ما ترق العين فيه تسهل، يزحم منكب الجوزاء بك منكبه، وتنزل عنه مثله حين تركبه، فإن[94] بدا قلت ظبي ذو غراره يعدو[95] إلى عراره، أو عدا قلت انقضاضة شهاب، أو اعتراضة بارق ذي التهاب، فاضممه إلى [ ][96] جيادك، واتخذه ليومي رهانك وجلادك إن شاء الله»[97].

ونختم هذا الباب بمقتطف من رسالة الكاتب البلوي، بعثها إلى أستاذه أبي عبد الله ابن عياش كاتب الخلافة الموحدية سنة 593 هـ : «أدام الله يا سيدي سعادتكم واعتلاءكم، وأبقى تقدمكم للمعالي وانتماءكم، وحفظكم عماداً رفيعاً، وركنا منيعاً، ولازلت أتشرف بخدمتكم دهري، كما لم يخب في أول القضية فيكم زجري. ولقد كنت أسبع بفضائل سيدي وأياديه، حتى صرت الآن أكرع منها في واديه، وكنت أرغب في شرف خدمته أن أقتنيه. فالآن وجب أن يقتطف شكري ويجتنيه، ولله أزماننا الموشية، وحلولنا بكنيسة الماء عشية. ونحن قد حططنا بدراه، وانبسطنا في رحب ذراه، في ليلة سمح الزمان بتسهيل أسبابها[98]، وفتح المغلق من أبوابها، فأرج زهرها وفاح، وبدا ضوء بدرها ولاح، ولم يجهل فضلها، ولم يخطر ببال مثلها، حار في حسنها الطرف، وتأنق فيها في طيبه النسيم والعرف، ضنا فيها للإجتماع منزل قيد العيون يزري جماله بالوشي المطرز، عذب الماء، غذي الهواء، يزيد الأنس اتساعا، ويورث النفس انقيادا في زمام الارتياح وانطياعاً، يهب علينا فيه نسيم ريحان الحياة يستنشق نافحات هوائه، وروحها يكتسي بنفيس ملائه، فكأن الجو معطر منه بخلوق يحيي القلوب، فعل معطر معشوق، نسيم ريح قد دنت في هبوبها، وتعاقب علينا نسيم صباها وجنوبها، قد نثرت فيه كمائم المسك سرائر أزهاره، وظفرت يد غاشيه بقطف فائح نواره، وأربى فيه نور ليله على ضوء نهاره، فاخترنا من السلك موضع الصدر، ودرنا على مائدة كدارة البدر، فطعمنا طعاماً لا تبغي الأماني عليه مزيداً، حتى كدت أقول يكون هذا عرساً أم عيداً، ثم عمدنا إلى عنب كمخازن البلور، وظروف النور، عنقوده كالثريا، وحبه كالكأس فيه الحميا، فلما قضينا من الأكل أربنا، ونلنا منه طلبنا، طفق سيدي يجاذبنا نثراً كالسحر أو أدق، ونظماً كالماء أو أرق، وحديثاً كالسهد أو أعذب، تشفي الهموم إذا ساقطه وتذهب، فهو من بديع كلامه، ورفيع نثره ونظامه، قد أعيا لبيداً، حتى أعاد اسمه بليداً»[99].

ويتميز هذا الباب بخاصية تنوع موضوعات الوصف في الطبيعة بنوعيها : الحية والجامدة كبعض الحيوانات مثل : الكلب والوطواط، والديك، والثعلب، وبعض الأزهار والرياحين كالورود، والفواكه كالتين والرومان مما اشتهرت بهما الأندلس والمغرب، هذا فضلاً عن بعض مظاهر الطبيعة الأخرى كالمطر والبرق والرعد.

---

91) سقوط النون.

92) ص : 99.

93) هو محمد بن أحمد الأنصاري، قونكي الأصل، يكنى أبا القاسم ويعرف بابن السقاط، كان أديباً بارع الكتابة، شاعراً مجيداً متين المعارف، كتب عن بعض أمراء لمتونة، وقتل بمدينة فاس في حدود سنة 540 هـ، الذيل والتكملة، س/6 ص/35 ـ 36. والقلائد : 174.

94) كتبت هكذا «افن» ولعلها تصحيف «فإن».

95) سقوط الدال.

96) محو بمقدار كلمة.

97) ص : 100.

98) سقوط الألف الأولى، والباء الثانية.

99) ص : 108.

الباب التاسع عشر[100] :

ويتمحـور حـول الهـزل والمـداعبـة، والتهكم في المكاتبة، ويمثله سبعة كتاب، وهم : أحمد بن سعيد، وأبو جعفر بن عباس، وأبو المغيرة ابن حزم، وأبو محمد بن عبد الغفور، وأبو بكر بن قزمان، وأبو بحر صفوان وأخيرا أحمد بن محمد البلوي.

ويتضمن أحد عشر نموذجا من رسائل وفصول هؤلاء الكتاب، وقد جاء الباب قصيرا بالقياس إلى ما سبق من أبواب، برغم أهميته وطرافته.

ومن النماذج التي ننقلها من هذا الباب، ما كتبه أحمد بن سعيد[101] في المداعبة :

«بلغني الحادث في ذنب الحمار، وكل ما تعد من الحدث في الحيوان رأسه ومواضع مقاتله، فجلل حدثه يسير خطبه، ولئن كنت فجعت منه بذنب ذيال متمكن العجيب رائق العسيب كأنه[102] عقيصة من عقائص العذاري، لقد أبقى الله منه قلباً حديداً ونفساً شهمة وجوارح كالمة من عنق قود أو شوى عبل، ووطاءة ظهر في سرعة حضر وأمن من عثار ونفار، أقل ما فيه من محاسن أعقابه يعفي على ما ذهب من ذنبه. وأنا أسأل الله أن لا يريك سوءا في شيء قد شغف به قلبك، ورمقته عينك، وأن يديم سلامتك وسلامة[103] ما خولك»[104].

الباب العشرون[105] :

ويخصصه للعيون من سائر الفنون، ويحتوي على ستة وأربعين نصاً من الرسائل والفصول. لسبعة عشر كاتباً، وهم : عبد الحميد بن يحيى، وسالم مولى سعيد بن عبد الملك، ومعن بن زائدة، والحسن بن وهب، وأبو حفص بن برد، وأبو الوليد إسماعيل، وأبو محمد بن الحاج اللورقي، وأبو عمر الباجي، وأبو محمد بن عبد الغفور، وأبو حفص بن صاحب الصلاة، وأبو عمرو عثمان بن علي الأستجي، والقاضي عياض، وأبو الحسين القرشي العامري، وابن مبشر، وأبو بكر بن مغاور الشاطبي، وأبو بحر صفوان، وأحمد بن محمد البلوي.

ومن المثير الانتباه في هذا الباب إيراد المؤلف لنموذجين من ترسيل القاضي عياض[106]، وفصل من إحدى الرسائل النبوية للكاتب أبي الحسين القرشي العامري، ورسالتين شهيرتين لصفوان بن إدريس، الأولى تحمل عنوان : «التصريح عن الود الصريح، وميزان التصحيح للعهد الصحيح». كتبها حين صدوره عن مراكش إلى مرسية. والثانية تسمى «رسالة الارتحال والتعريس».

ومن طريف النصوص التي نعرضها من هذا الباب، ما كتبه معن بن زائدة، إلى بعض من أفرط في شكره : «عافاك الله، وحفظك، قد قال بعض أهل الأدب : إفراط المرء في شكر النعمة تو بيخ. وقد حزت نعمتنا بشكرك واستوجبت أكثر مما تستطيعه من المزيد. والأدب شفيعي إليك في ترك ذكر ما أوليتك من ذلك. فإن الذي تستوجبه مني بإخائك أكثر مما نالك من إحسان، ولذلك أقول : نهوضك بالإخاء يفوت فضلي فحسبي من مكافأة وشكر».

وكتب القاضي عياض محملا التحية إلى أبي عبد الرحمان بن طاهر[107]، في تصوير بديع، وأسلوب رائق،

---

100) ص : 110 ـ 119.

101) هو أبو جعفر بن عبد الملك بن سعيد، كان مقدماً على كثير من أقاربه في الأدب والجاه، استوزره عثمان بن عبد المومن في غرناطة، توفي سنة 550 هـ.
(توجد ترجمته في الرايات : 64، الاحاطة : 94/1، والنفح : 545/2، والمغرب في حلى المغرب : 164/2).

102) سقوط الكاف.

103) سقوط التاء.

104) ص : 110.

105) ص : 120 ـ 169.

106) هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرون بن موسى بن عياض بن محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض اليحصبي، ولد بسبتة سنة : 476 هـ، أدرك العصر الموحدي، وتوفي بمراكش سنة 544 هـ، كان عالما جليلا، وأديباً متفنناً، وقاضياً عادلاً نزيهاً، خلف آثاراً جليلة في شتى العلوم والفنون. ترجم له العديد من المؤرخين والدارسين، كابنه أبي عبد الله محمد في : التعريف بالقاضي عياض، والمقري في : أزهار الرياض، وابن بشكوال في الصلة : ج/2 : 429، والضبي في : بغية الملتمس : 437، والنباهي في : تاريخ قضاة الأندلس : 101).

107) هو محمد بن أحمد بن إسحاق بن طاهر، يكنى أبا عبد الرحمان، دبر شؤون مرسية إلى أن أخذت منه. توفي ببلنسية سنة 507. وقد نيف على التسعين، ذكر له صاحب الذخيرة كتاباً سماه : «سلك الجواهر من ترسيل ابن طاهر».
(ترجم له الفتح في القلائد : 56، وابن سعيد في المغرب : 247/2).

يتسم بالطابع الديني :

«عمادي أبا النصر مثنى الوزارة وسني الإمارة، ووحيد العصر، هل لـك في منـة تفوت الحصر تخف محصلا، وتبلغ أمـلا، وتشكر قـولا وعمـلا، شكراً تترنم بـه الحـداة ثقيـلا ورملا، إذا بلغت الحضرة العلية مسلما، ولقيت الطـاهر بن الطاهر فخر الوزارة مسلما، وحللت من فنائه الرحب حرما. وتسـكت[108] بمصافحتـه ركن المجـد ينـدى كرمـا. فقف شوقي بعرفات المعـارف، وانسـك شكري بمشـاعر تلـك العوارف، وأبلغ عني تلـك الفضـائـل سـلامـا يلتئم بصريح الحب التئامـا، ويحسن عنـدي بظهر الغيب مقامـاً، ويسير بأرج الحمد إنجاداً وإتهاماً»[109].

وتستوقفنا في هذا الباب، الرسالة الجيدة التي كتبهـا أبـو الحسين القرشي العـــامري[110] إلى قبر النبي ﷺ، ونقتطف منهـا مـا يـأتي : «إلي البشير النـذير، المبتعث بالترغيب والتحذير، المنقذ من الحيرة والنكير، الموعظ[111] بـالعظـة والتـذكير، النـافـح الأردان والمنـاجي بـه صـاحب عمدان، نبي الرحمة والحنان، والصريح اللبـاب من عدنـان عصمة اللائذ بـأكنـافـه، وصفوة الغطـاريف من عبـد منـافـه، المبرإ من العاب، المردد الأعراق في الطاب الطـاب، ديـان العرب، وفراج الكرب، سلالة عبد المطلب»[112].

ونختم هـذا البـاب بـالرسـالـة التي كتبهـا المؤلف في الوساطة لأحد المقرئين :

«عبد الباب الكريم، والمقام العظيم، فـسح الله زمانـه، وحاشى من المجاشم بحرمته أرقـاءه وعبـدانـه. فلان بن فلان يذكر أمره ويشرح شأنه، ويرجو بذلك عدل سيدنـا ومولانـا أمير المؤمنين وفضله وإحسانه، وشأنه أنـه مقرئ ابن مقرئين لكتاب الله سبحانه، ولآبـائـه تقدم في حسن الإقراء وتعليم القراء مـا ملكوا عنـانـه، وحـازوا رهـانـه، وفـاتوا بـه شريح الإقراء وطحانه، والعبد قد أكثر في اتبـاعهم إمعـانـه، وحـط عنـد لحـاقهم شراعـه، وألقى بمرتبتهم من التجـويـد جرانـه، وجعل الإقراء لكتاب اللـه العزيز حرفتـه التي ينتحلها بكر الـزمـان وأصيـلانـه، حتى اكتسب منـه يسير مـال بخـارج إشبيلية يعول من فـائـده بنيـه وولـدانـه، ويستعين بـه على التفرغ للإقراء، وعلى ثقل الظهر بالأبناء، وليته على ذينـك لو أعانه، وهو قـد قيض اللـه إسكـانـه، في درب قد أضعف اللـه سكـانـه، فليس فيهم لضعفهم من يقيم قسطـاط الوظيف المفروض وميزانه، فيمـال فيـه على العبـد بينهم ميلاً أضـاع حق الإقراء لكتاب الله وأهانه. وسيدنا منحه الله رضوانه ـ أفضل من يحفظ لهذا الصنف مكانه، ويعطف عليـه جنـانـه وينور به جنانـه. واللـه يؤيـد سلطـانـه، ويعمر بـه منـازل السعد وأوطانـه. والسلام الكريم الحفي العميم، يخص حضرة سيدنا ومولانا أمير المؤمنين كثيراً أثيراً ورحمة اللـه تعـالى وبركاته».

الزوائد[113] :

وينتقـل المؤلف بعد ذكر تـاريـخ تـأليفـه الكتـاب، والظروف التي أحـاطت بـذلـك، إلى الـزوائـد التي ألحقهـا بـأبـوابـه. وقـد جـاء هـذا القسم مبتـور الأخير، ينتهي عند صفحة : 32.

ولاشـك أنـه كـان يحتوي على عـدد من الأبـواب، لم يسلم منهـا إلا البـاب الأول، الـذي خصصـه للفتوحـات ومـا إليها، والأجوبة عليها.

وتحتوي هذه الزوائد على أربعـة عشر نموذجـاً لعشرة كتاب، وهم : أبو الحكم بن عبد العزيز، وأبو علي بن فازاز، وأبو عبـد اللـه بن عيـاش، وأبـو الحسن القلني، وأبـو القـاسم القـالمي، والقـاضي أبـو مـوسى، وأبـو الحسن بن زيـد، وأبـو الحسن بن الفضل، وأبو بكر عيسى، وأبو محمد بن حامد.

---

108) سقوط الحرف الرابع، ولعله : الكاف.

109) ص : 139، (وردت هذه الرسالة، مع بعض الاختلاف، في : قلائد العقيان : 222، وأزهار الرياض، ج/4، ص : 2/1).

110) لعله المترجم له في طبقات الشعراني : 20/2، والمذكور في أزهار الرياض : 192/4.

111) سقوط العين.

112) ص : 133.

113) ص : 1 ـ 32.

ويستهل هذا الباب برسالة أبي الحكم بن عبد العزيز[114]، ومطلعها : «من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين ـ أيده الله بنصره وأمده بمعونته ـ إلى الطلبة والموحدين والشيوخ والأعيان والكافة بمراكش ـ أدام الله كرامتهم بتقواه، وأوزعهم شكر نعماه ـ سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته».

ومما جاء في رسالة أبي القاسم القالمي[115] بعد الصدر : «وإنا كتبناه، إليكم ـ أدام الله عزكم وكرامتكم بتقواه ـ من حضرة مراكش ـ حرسها الله ـ والذي نوصيكم به تقوى الله والعمل بطاعته والاستعانة به والتوكل عليه والدأب على المساعي الحميدة المزلفة لديه، والجد في الأعمال الصالحة المقربة منه المدنية إليه، المقتضية استصحاب إفضاله واعتنائه، المديمة ما ارتهن لديكم من جميل عوائده وجزيل إحسانه، الموجبة لكم رضاه عاجلاً أو آجلاً، المستدرة عهاد كرمه وابلاً فوابلاً، المفضية بكم إلى سنن الهدى ونهجه، الحاملة لكم على كاهل السداد [ ][116] الصاعدة بكم في مراقي النجح ودرجه، والله تعالى يصحبكم توفيقاً يهدي ويرشد، ويسني لكم اعتناءً منه يعين وينجز بمنه وكرمه. وقد وصلت مكاتبتكم الأثيرة، ومخاطبتكم المبرورة، من منزل الموحدين ـ أعزهم الله ـ بظاهر قسنطينة ـ حرسها الله ـ متضمنة امتداد ظل السعادة عليكم، واتصال البشائر والمسرات لديكم ووصول المخاطبة إليكم بالفتوح الإلهية»[117].

وتكتسي معظم الرسائل الواردة في هذه الزوائد، أهمية تاريخية، تتجلى في تسجيلها لبعض الفتوح التي وقعت في العصر الموحدي. وقد كتبها أساطين الكتابة في دواوين الدولة، ممن ساهموا في تنشيط حركة النثر.

ومن المؤسف أن هذه الرسائل تعرضت أكثر من غيرها للخرم والمحو، مما جعلها مستعصية على الباحث والدارس.

هذه أهم النظرات عن هذا الجزء من مجموع أبي القاسم البلوي. وهو كما رأينا يمثل مصدراً مهما للرسائل الإخوانية والديوانية، تربو في عددها على خمسين ومائتين، لأكثر من تسعة وستين كاتبا من مختلف العصور الأدبية.

وإن خاصية الشمولية التي يتميز بها المجموع، جعلت المؤلف يتيه بعض الأحيان في عملية التصنيف والترتيب، وقد أفضى به ذلك إلى الإخلال بالمعيار الفني الذي راعاه في منهجية التأليف، ويظهر ذلك بجلاء في عناوين الأبواب الستة التي يحتوي عليها الجزء المعروض. ولا تنقص هذه الهفوات التي فطن لها المؤلف وتلمس لنفسه فيها الأعذار ـ من قيمة المجموع، فهو بحق يعد أعظم مجموع، يكشف عنه البحث التراثي في بلادنا، يعرفنا بمشاهير الكتاب في المشرق والمغرب، ومنذ أقدم العصور الأدبية، وبأهم ما أنتجته قرائحهم في فن الترسيل، فضلا عن آثار بعضهم في مجال الشعر.

وقد تضمن بعض الأحكام الفنية التي أصدرها على المتميزين من كتاب عصره، خصوصا أستاذه ابن عياش، الذي لهج بذكره كثيرا، واعترف بفضله عليه في كثير من كتاباته. ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر : «صاحب القلم الأعلى» و«شيخ الكتاب وقطب الآداب».

وقال عن أبي عمرو بن غياث الشريشي : «روض الإجادة الذي سقاه الأدب ما شاء وجاده، الشيخ الأديب». وقال عن ابن حفصون : «الكاتب الشهير، الأديب الأبرع، الصاحب الأسبق إلى إحراز البراعة، وإبراز البراعة».

---

114) لعله أحمد المدعو ابن هرودس، كنيته : أبو الحكم، وقد دعاه صاحب التحفة : إبراهيم بن علي الأنصاري. توفي سنة 573 هـ (ذكره ابن دحية في المطرب 240، وترجم له ابن سعيد في المغرب : 210/2).

115) هو عبد الرحمان، أبو القاسم القالمي، من أهل بجاية، ومن كتاب البلاط الموحدي في عهدي الخليفتين عبد المومن، وابنه أبي يعقوب المنصور. ذكره المراكشي في معجبه، ص : 292 و355، وأورد له المستشرق الفرنسي ليفي بروفانسال في مجموعه رسالتين هما : (21 و22).

116) كلمة باهتة غير مقروءة.

117) الورقة 17.

ونعت قاضي الخلافة الموحدية أبي موسى بـ «بحر الأدب الهامي».

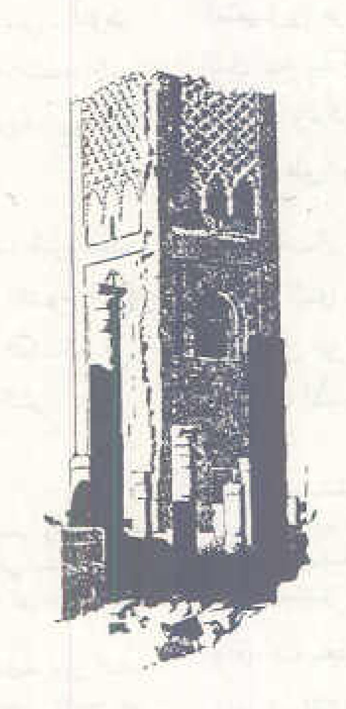
وتشكل الرسائل التي أوردها المؤلف لنفسه في هذا المجموع، والتي تزيد على الثلاثين، أهم رصيد له في فن الترسيل، يصلح أن يكون نواة لمجموع خاص بالكاتب، خصوصا إذا علمنا أن هذا الرصيد موزع على الأبواب الستة كلها.

وإن القصائد الرثائية التي أفردها في المجموع. والأشعار التي تضمنتها رسائله، تعتبران أيضا أهم مصدر لشعره الضائع، يرسم لنا بوضوح صورة عن ملامح شخصيته الأدبية المزدوجة. وينطوي المجموع في أبوابه الستة عامة، وزوائده الملحقة خاصة، على قيمة تاريخية هامة، تتجلى في كبريات الأحداث التي وقعت في شتى العصور: انطلاقا من عهد النبي ﷺ، ومرورا بالعصرين الأموي والعباسي، وانتهاءبالعصر الموحدي، كما تتجلى في الصور التي يرسمها لنا عن الحركات الفكرية والأدبية لكل عصر من هذه العصور، وعلى الخصوص العصر الموحدي، الذي ازدهرت فيه العلوم والآداب والفنون، وبلغ فن الترسيل أوجه في مجال النثر الفني، وضاهى الكتاب الموحدون إخوانهم المشارقة بما أبدعوه في الإخوانيات والديوانيات، وأصبحت طريقتهم متميزة عنهم كما سبقت الإشارة.

ويحتفظ المجموع بالإضافة إلى كل هذا، بقيمته التراثية، فهو يعد من أقدم مجاميع الرسائل في الأدب الموحدي، إذ يقترب عمره من ثمانية قرون، وهي مدة ليست باليسيرة، من شأنها أن تعرض المخطوط إلى الضياع والاندثار.

وقد قيض الله لهذا المجلد من المجموع أن يسلم من الضياع، ومن يتعهده اليوم بالحفظ والرعاية، حتى يتم العثور على بقية أجزائه الضائعة ليكتمل كيانه ويصبح تحفة فنية رائعة.

وحسب المؤلف أحمد البلوي فخارا أنه وفق، بعد جهد جهيد، في تأليف هذا المجموع الضخم الذي يضم بين دفتيه عطاء جزيلا من ترسيل أعلام الشرق والغرب وفي أزهى عصور الإسلام الخالدة.



من أدب الجهاد في الأندلس

أبو الحسن ابن عيّاش

للأستاذ المهدي البرجالي

اكتسى دوماً، منصب كتابة الإنشاء ذي الصبغة الرسمية على عهد المرابطين والموحدين ومن أتى بعدهم - قيمة اعتبارية مهمة جعلت - باستمرار - المتولي لهذا المنصب والقائم به - ذا شأن مرموق في حظيرة المجتمع الثقافي والسياسي ونحوه، ومقرون بهالة تألق موجبة لتقدير الشخص والمهمة المنوطة به.

وكما في عهود العباسيين وأمويي الأندلس وغيرهم، فإن جمعاً غفيراً من الكتاب المترسلين من هذا الطراز، قد ترسبت لهم في مصادر التراث الأدبي، أصداء واسعة، أولا، بالنظر للقيمة البلاغية - بحسب موازين التقييم التقليدي - لما حبروه من رسائل، وما نظموه في خلالها من عقود اللفظ وأسماطه، وثانياً، لما تنم عنه المدونات التي خلفوها من مقاصد قد يستشف منها شيء ما، عن بعض الملابسات الدقيقة للظرف التاريخي، فكرية ونفسية وخلافها، وما تعكسه اللحظات المتحدث عنها من رؤى للمعنيين تاريخيا بالموضوع. مما لا تدقق في الإخبار عنه، الروايات التاريخية العادية؛ ثم إن مثل هذه النصوص الأدبية - وهذا من بين دواعي أهميتها أيضاً في التحليل والاستجلاء العلمي - قد تفرز في خلال ثناياها - ما يفيد - ربما في استخلاص لمحات ما عن شخصية كاتب النص نفسه. واستطلاع بعض مكونات عقليته الأدبية، مما يجوز أن يستعان به - في حالة أو أخرى - بصدد استبانة جوانب معينة من الصورة التي تعرضها علينا ترجمته.

وقد كان لنا - في موضوع سابق، نشر بهذه المجلة، لقاء مع واحد من أعلام المترسلين، ممن ولوا منصب الكتابة الرسمية في العصر المرابطي، وهو أبو عبد الله محمد بن أبي الخصال الذي عمل في خدمة علي بن يوسف بن تاشفين ككاتب له. وصاغ في نطاق المهمة التي اضطلع بها في بلاطه - رسائل تتعلق بالنشاط الجهادي المغربي بالأندلس خلال الحقبة. مما ترى من خلاله نماذج تعبيرية جميلة من حيث ألفاظها المنتقاة، ومقاطعها المرصوفة، وقوالبها حسنة السبك والتنضيد على مناح شتى في ذلك، ونعرض هذه المرة - في حلقة أخرى من هذه السلسلة عن أدب الجهاد المغربي في العدوة، لاسم لم يكن بأقل تألقاً من ابن أبي الخصال، في هذا الميدان، ميدان الكتابة الرسمية لولي الأمر، والمراد أبو الحسن ابن عياش، أحد نوابغ المترسلين في العصر الموحدي بالعدوتين، ممن سجلوا - عبر الكلمة الأدبية المتأنقة، أصداء شتى من حياة ذلك العصر، وملابسات الاهتمامات العامة في محيطه. على أننا إذا ما أثرنا ذكر ابن أبي الخصال، فإن المتبادر إلى الذهن من الاسم بالضرورة، هو أبو عبد الله محمد ابن أبي الخصال المومإ إليه آنفاً؛ أما عندما يشار لابن عياش، فإن الحال يقتضي حينئذ تحديد المعني بالاسم : من يكون من هؤلاء - وهم غير ولده - الذين ينسلكون بالفعل - في سلك هذا الانتساب، ويعتزون إليه، لا بحكم صدفة التشارك الاسمي فقط، بل في نطاق أهم من ذلك بفعل آصرة القربى،

والتداخل الأسروي الجامع؛ وفي سجل التراث العربي، وفي التراث المغربي بالذات، حالات عدة من هذا القبيل، ونجتزئ في هذا الصدد ـ تجنباً لاستطراد لا داعي له ـ بالإلماع إلى الحالة المتمثلة في الكاتبين ابني عطية : أبي جعفر أحمد بن عطية، الذي كان أصلاً من الأندلس (طرطوشة ثم دانية..) وكتب لعبد المومن بن علي، ثم والده أحمد بن عطية الذي عمل من قبله كاتبا ـ على التوالي ـ لدى علي بن يوسف بن تاشفين ثم لابنه تاشفين[1] فقد عرفت أسرة ابن عطية ـ من منظور الصيت الأدبي ـ عبر كاتبين اثنين لا كاتب واحد. إلا أن من عرف في محيط الكتابة الترسلية كذلك من أسرة ابن عياش، يفوق هذا العدد بقدر ملحوظ، كما يرى من خلال ما تعرضه الرواية التاريخية في الموضوع.

☆☆☆

كانت الفترة بين أواخر عهد المرابطين، وأوائل الموحدين، الإطار الزمني الذي حصل في أثنائه ـ على ما يظهر ـ نزوح أوائل من نزح من عشيرة ابن عياش من العدوة الأندلسية، واستقرارهم في العدوة هذه على أن التفاصيل الدقيقة لقصة هذا النزوح، وهل شمل أفراد العشيرة دفعة واحدة، أم تم بالتعاقب على فترات متوالية ـ كل هذا لا تتوفر حوله الأضواء الكافية في حدود ما نلم به، إلا أن ما يعلم ـ على أي حال ـ هو أن الأجواء غير المستقرة بالأندلس، والتي نجمت عن الصبغة الانتقالية للفترة ما بين عصر لمتونة، وعهد بني عبد المومن، وما لزم عن ذلك ـ في جملة ما لزم ـ من غموض الأحوال، وحدة انعكاساتها النفسية والاجتماعية والسياسية في العدوة، إنما كان من شأنه أن يحدو أندلسيين كابن عياش ومن لف لفه ـ إلى الهجرة للمغرب حيث تتوافر حوافز إغراء متعددة ـ مقارنة بالأندلس ساعتئذ ـ على توطنه، والسكون إليه.

وفيما يلحظ في علاقة هذه الأسرة بالمغرب :

1) تماثل الانشغالات المهنية لأفرادها في المحيط المغربي، بعد اندماجها فيه، وقد تمحورت نشاطات هؤلاء ـ بصدد ما ذكر ـ في مزاولة وظيفة الكتابة الرسمية للدولة وأنجزوا في ذلك أعمالا دلت على طول باعها في هذا الباب.

2) ما يلوح ـ استنتاجا من مراجعة عدد من المصادر ـ وليس كل المصادر ـ من أن المرحلة الأساسية في شهرة المجموعة من هذه الزاوية ـ أي زاوية الترسل ـ إنما كان منطلقها ـ كلاً أو جزءاً ـ من المغرب، ولو كان ذلك لا يحول دون احتمال أن كان لهم أو لبعضهم ذكر أدبي من هذا النوع، لكنه أكثر محدودية وانحصاراً قبل استيطانهم هنا.

3) ارتباط عمل المجموعة ـ في هذا الخصوص ـ أو من يعرف من أفرادها على الأقل ـ بخدمة البلاط الموحدي، في استغراق لمعظم حقبة دولة بني عبد المومن، بدأ بزمن عبد المومن بن علي ومروراً بعهود أبي يعقوب يوسف بن عبد المومن، ثم أبي يوسف يعقوب المنصور ومحمد الناصر، ويوسف المستنصر، إلى مشارف خاتمة الموحدين.

ولقد كان مأتى بني عياش إلى المغرب من غير ما جهة من الأندلس، على الرغم مما يظن من أن انتماءهم الأسري متقارب؛ فبعضهم كان من قرطبة، ومنها كان مقدمه إلى المغرب، (أبو الحسن بن عياش) ومرد انتماء أصل بعضهم الآخر إلى «برشانة» من أعمال «المرية» (أبو عبد الله محمد بن عياش).

وعن علاقة هؤلاء بمخدوميهم الموحدين، فإن أبا الحسن بن عياش، الذي أشرنا إليه، والذي سنركز عليه بصفة خاصة في هذا الحديث، قد كان في طليعة من برز من هذه الجماعة في مضمار خدمة الدولة، وقد كتب لعبد المومن بن علي أولاً ـ ثم ولي ـ فيما بعد ـ الكتابة لأبي يعقوب يوسف بن عبد المومن؛ ولما كان عهد أبي يوسف، يعقوب المنصور، استكتب من بني عياش هؤلاء، محمد بن عبد العزيز بن عياش، كما استكتبه أيضاً خلف يعقوب المنصور، أي محمد الناصر، وممن كتب للمنصور أيضاً من هذا الرعيل، ثم لولده محمد الناصر، أبو عبد الله محمد بن

1) الاستقصا (ج 2 ص 16)، طبعة البيضاء.

عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عياش، وكان هذا من بين ألمع شخصيات جيله فصاحة وبلاغة ومعرفة باللغة والأدب؛ وقد أورد عنه صاحب «التكملة» ابن عبد الملك» قوله إنه «كان كاتباً بارعاً فصيحاً مشرفا على علوم اللسان، حافظاً للغات والآداب كبير المقدار، حسن الخلق كريم الطباع، دفاعاً مجاهداً كثير الاعتناء بطلبة العلم، والسعي الجميل لهم....».

وفي معرض حديث المراكشي في «المعجب» عن أبي عبد الله هذا، أورد عنه قوله على هذا النحو: «تركته حيا، حين ارتحلت عن البلاد سنة 614، ثم اتصلت بي وفاته في شهور سنة 619، وأنا بالبلاد المصرية...»[2]

ويعلم عن المراكشي تغربه عن المغرب في عنفوان حياته إلى ديار الشرق، حيث أمضى فترة غير يسيرة قبل أن يقضي هناك.

وقد توالت السلسلة في خلال ذلك، فكتب للناصر الموحدي أيضاً أبو الحسن علي بن عياش بن عبد الملك بن عياش، كما كتب هذا للمستنصر كذلك.

وممن كتب للمستنصر أيضاً ثم لخلفه المامون، أحمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عياش، الذي كان ـ كما أنبئ عنه ـ من ذوي الأهلية وحسن الاقتدار فيما كان مضطلعاً به من مهام الكتابة.[3]

ونخلص بعد هذا إلى حيث تخصص القول على وجه التحديد، حول أبي الحسن بن عياش كاتب عبد المومن بن علي كما أسلفنا ثم كاتب أبي يعقوب يوسف بن عبد المومن في مرحلة لاحقة، ومسوغ هذا التخصيص، أن فترة الجهاد الموحدي بالأندلس، التي تدور حولها مضامين النماذج النثرية التي سنعرض لها، هي ـ في نطاق أساسي ـ فترة أبي يعقوب، يوسف بن عبد المومن بالذات، (560 ـ 580 هجرية) وقد كان المبرز خلال الفترة في مضمار الكتابة للبلاط الموحدي هو أبو الحسن بن عياش ومن ثم، فإن ما سوف نستعرضه من هذه النماذج هو لهذا الكاتب عينه، الذي تنبئ مخلفاته عن درجة من التمكن في صناعة النثر الفني، وألمعية في تنسيق متراكباته، ولوذعية ونباهة في إخراج الصور البلاغية ونمنمة حواشيها على غرار أجمل الصيغ المألوفة عند فحوله.

وليس لدينا ـ في حدود ما يتوفر من اطلاع ـ صورة كاملة عن الرجل، من خلال الظروف الأندلسية التي عاشها منذ بدايته الأولى. ودقائق المعرفة بتسلسل أحواله عبر ذلك، وجملة العوامل التي أثرت في حقل قدراته، وإنضاج تكوينه المعرفي إلى أن استوى عوده ـ ككاتب ـ على نحو ما ترسمه لنا مأثوراته؛ واتصالا بهذا، فلا يبدو واضحاً بالقدر اللازم أكان لأبي الحسن ابن عياش ـ وهو لايزال بالأندلس قبل أن يفد منها على المغرب ـ عزم مسبق على القيام بهذه الانتقالة المهمة في حياته، علماً بأن مسار تأرجح ذوي الشأن الأدبي والعلمي بين المغرب والأندلس كان ـ باستمرار ـ مساراً عادياً معهوداً ـ تحت تأثير ديناميكية التواصل الفكري والحياتي، الذي ظل قائماً ـ تحت رعاية المغرب ـ بين العدوتين؛ ومهما يكن، فالذي هو واضح من خلال بعض الإفادات المتاحة، هو أنه كان لاتجاهات الأحداث بالأندلس، دخل أو ربما بعض الدخل فيما نشأ لدى ابن عياش من حوافز حملته على الهجرة من قرطبة مدينته، إلى غيرها، لكي يحط في خاتمة المطاف عصا التسيار بالمغرب؛ فكما أومأنا إليه في فقرة سالفة، فإن الأوضاع الأندلسية المعرضة باستمرار ـ نتيجة لما كان،

---

2) المراكشي، المعجب، ص. 263.
3) ع. عنان : عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، ص. 698، الطبعة الأولى.

أصلا - من هشاشة تماسك مجتمع العدوة - إلى الاهتزاز تحت أي تأثير سلبي - كانت قد دخلت فعلا في نفق جديد من التفجرات عند بداية نهاية المرابطين الذين كان إليهم مرجع استقرار شبه الجزيرة مثلما كان عليهم حمايتها؛ وكانت قرطبة - حيث يقيم ابن عياش - قد شملها من الارتجاجات التي شهدها الظرف ما شمل سواها من المناطق الأندلسية الأخرى؛ فقد انعكست على الحاضرة الأندلسية الكبرى - سياسياً ونفسياً - غيوم الوضع المتقلقل الناجم عن انبعاث الطائفية الأندلسية من جهة، وعن دورات الصراع المرابطي الموحدي من جهة ثانية؛ ثم غشى المدينة بعد ذلك ما غشيها ربما بعد رحيل ابن عياش من هول الحصار المطبق، الذي أحاطها به الافرنج في استغلالهم لسانحة الارتباك الأندلسي العام في تلك الظروف؛ وقد كادت قرطبة أن تقع تحت طائلة المحاصرين لها، لولا أن أمدها عبد المومن بن علي بنجدة موحدية، توصلت إلى تفكيك طوق الحصار عنها.

وفي خضم هذا الوضع لم يعد ابن عياش - على ما يبدو - يستكين إلى البقاء في مدينته المغمورة في خضم التقلبات، فبارحها في اتجاه له نحو أقاصي الغرب الأندلسي، حيث توجد إشبيلية التي أناخ بها، وقد كانت - ساعتها قد اصبحت بين أيدي الموحدين، وفي هذا أي انضواء إشبيلية تحت النفوذ الموحدي، ما سنى لابن عياش طمأنينة كان ينشدها، ومنعرجاً مهماً في الحياة كان ينتظره، لقد ألفى في الحاضرة المتألقة - تقليديا - بالأدب والفن، المناخ المواتي لحسن تقدير مواهبه، فإذا به - وقد تدرج في تعرف النافذين خلال الظرف إليه، حتى بلغ الشأو الذي أهله لأن يكتب لولد الخليفة الموحدي، أي أبي حفص ابن عبد المومن،[4] وقد توثقت صلته به. فاستبقاه في خدمته سواء بالأندلس، أو بالمغرب الأوسط حينما ارتحل إليه. انفتح المجال المغربي بهذه الصورة التي لعبت فيها المصادفة دورها - أمام أبي الحسن بن عياش بعد أن اصطنع العهد الموحدي هذا الأديب الأندلسي، وأوسع له في مجال الحظوة في حظيرته، فنال ابن عياش في سياق ذلك من حسن الأحدوثة، وبعد الصيت، مما كان من آثاره أن تهيأت له الأسباب لكي يستكتبه عبد المومن بن علي نفسه، بدلا من عن ابن عطية، الذي كان متوليا لهذه المأمورية من قبل. ومن ثم اتخذت سيرة أبي الحسن سبيلها إلى حيث غدا - خصوصاً في عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المومن بن علي - واحداً من ألمع الكتاب الذين تألقوا في العصر الموحدي حتى وفاته سنة 568[5] وكان من بينهم - كما يعلم - عدد من المعروفين بابن عياش، وقد استعرضنا معظمهم فيما سلف، والملحوظ في هذا الصدد، أن أكثر أو جميع من تصدر من بني عياش هؤلاء في خدمة الدولة الموحدية، إنما كان تصدرهم في خلال فترات لاحقة للفترة التي سما فيها صيت أبي الحسن وبلغ الشأو الذي بلغه، فهل كان هذا الأخير هو القدوة لهم في الخط الذي سلكوه، على احتمال أن تكون المنزلة التي نالها - باعث تشجيع لهم أو لبعضهم على الأقل، على الوفادة إلى المغرب، والتماس فرص فيه لم تتوفر بالأندلس لتحقيق ارتقاء وظيفي أو اجتماعي في حظيرة البيئة المغربية ؟ على أي حال، فالأمر هنا يتعلق بمجرد افتراض وكفى، طالما لا تتوفر معلومات مدققة عن ظروف نشأة وتطور علاقة بني عياش في عمومهم-بالمغرب،وعن الإطار الذي استوعب وقائع هذه العلاقة والمسار الذي انسلكت فيه، ومهما يكن فإن الحقبة التاريخية التي تنفتح في منظوياتها لأبي الحسن بن عياش آفاق رحبة كهذه للإعراب عن جودة مواهبه البلاغية، وحسن كفايته في هذا المضمار، كانت، أي هذه الحقبة، من منظور آخر حقبة ذات أهمية قصوى - تاريخيا - باعتبارها - من جهة - إحدى المنعطفات الكبرى في وقائع المغرب القديم (استكمال مقومات تأسيس الدولة الموحدية) ثم باعتبار هذه الحقبة - من جهة ثانية،

4) ع. عنان : عصر المرابطين والموحدين، ج. 2 ص.138.
5) المصدر السابق.

أنها كانت علاقة متميزة على طريق استئناف المغرب ـ بعد وهن الفترة الانتقالية بين المرابطين والموحدين ـ لمهمته التاريخية في حماية الأندلس، ولم شعثها الشتيت، وموالاة التلاقح الفكري والحضاري معها، على منحى أوسع وأكثر ثراء؛ وفي هذا، أو بالأصح في بعضه، كان قلم أبي الحسن ابن عياش ككاتب لعبد المومن بن علي، ثم لخلفه أبي يعقوب يوسف ـ شاهداً (بريئاً طبعا) على بعض ما حفل به الأفق المغربي الأندلسي من مشاغل واهتمامات في هذا الباب، وما تداخل فيه من ملابسات مختلفة، ونركز القول فيما يلي على ما يتصل من هذه الاهتمامات بالشؤون الأندلسية، وقد كانت هذه الشؤون ذات ثقل قيمي تقليدي في جانب أساسي من سياسة المغرب الجهوية ضمن نطاق البحر الأبيض المتوسط، وكان لها من ثمة تفاعلات جد عميقة مع مجمل مجريات التاريخ هنا وهناك عبر طرفي بحر الزقاق.

☆ ☆ ☆

كان تسنم أبي يعقوب يوسف بن عبد المومن بن علي لسدة الحكم على رأس المغرب الموحدي (سنة 560 هجرية) يعني بالنسبة لعلاقة المغرب بالأندلس، مزيداً من الارتكاز لأسس هذه العلاقة، وتضاعف ترسخها، وذلك بما هو مترتب عن الأمر من ازدياد حجم التبعات الواقعة على كاهل المغرب بصدد الدفاع عن العدوة، وتوطيد مناعتها السيكولوجية والسياسية في مواجهة القوى المضادة وما يتصل بالحال من توالي تطور وتنوع ارتباطات هذه العدوة بالأخرى وتداخلهما على مستويات مختلفة.

وقد كان ثمة اعتباران هامان لفرض مثل هذا التركيز على صعيد الصلات المغربية الأندلسية في هذه الفترة بالذات غداة صيرورة الأمر إلى ابن عبد المومن بن علي أبي يعقوب يوسف الموحدي.

أولا : منطق الظرف التاريخي نفسه، وقد كان المنطق هذا محكوماً بدواعي الإلحاح على المشاكل الأندلسية بالنظر من ناحية، إلى الحتميات الدائمة، دينية وأخلاقية وحضارية وغيرها والتي ما انفكت تطرح على المغرب في العموم، عبر متعاقب العصور، ضرورة احتضانه لهموم العدوة وكفالته لها، ومن ناحية أخرى، لاتصال موضوع أمن الأندلس، بأمن عامة منطقة غربي الأبيض المتوسط إلى أواسطه بالنسبة للضفة الجنوبية من البحر، مع الوضع في الاعتبار، أن المغرب بالذات، كان هو الذي يقع على كاهله تولي أمر هذا الأمن والسهر عليه. والأخذ بزمام العوامل المتداخلة، التي تكمن في خلفياته.

وحيث إن العمل المغربي من أجل الأندلس، كان أثناء الفترة المتحدث عنها على عتبة مرحلة جديدة يقودها الموحدون، استئنافاً منهم لمجرى المهمة المغربية بالعدوة خلال المرابطين، فإنه كان من الطبيعي أن يتعزز أكثر زخم حوافز التجاوب مع الحتميات والضرورات التي ذكرنا، ولن ينبعث ـ بحكم ذلك في النطاق المغربي ـ عزم متجدد وأشد فاعلية، لتطويق الإشكالات الأندلسية ذات الأوجه المتعددة، وحالة عقدها، وقد انطلقت في وقت مبكر من العصر الموحدي (عبد المومن بن علي بالذات) المبادرات التمهيدية لاستعادة مدلول هذا التكامل الإجمالي للأمن على مستوى منطقة المتوسط الغربي آنئذ، فكان من ذلك ما أنجزه الخليفة الموحدي ـ بعد توطيد ركائز الدولة ـ من زحزحة الحضور الافرنجي بالمغرب الأدنى، وتخليص منطقة المغرب العربي بذلك من جاثوم كان قد أناخ عليها بكلكله أمداً طويلاً، وأعنتها أيما إعنات تحت وطأته، وقد كان تحصين عبد المومن بن علي بجبل الفتح (جبل طارق) سنة 555 هجرية وتشييده مدينة مجهزة فيه، لتكون قاعدة عسكرية ومواصلاتية مع الأندلس، كان ذلك واقعا في نطاق هذا التركيز الستراتيجي على العدوة، الذي بدأ يأخذ ـ موحديا ـ مجراه بهذه الصورة ونحوها، ليتخذ بالتالي الشكل الكثيف، الذي كان لابد أن يتخذه في عهد أبي يعقوب يوسف.

2) علاوة على هذا الجانب العام، المندرج في إطار التداخلات التقليدية ـ على صعيد التاريخ ـ بين المغرب والأندلس، مما كان يتحتم معه ـ عند المنعطف الموحدي ـ

التركيز - مجدداً على المسؤولية المغربية عن العدوة، كان هناك أيضاً - فيما يبدو - داع آخر من دواعي هذا التركيز لكنه منبثق عن حيثية خاصة؛ ويتعلق الأمر بالصلات الشخصية والحميمية، التي كانت لأبي يعقوب نفسه بالأندلس، زمن أن كان والياً - من قبل والده على إشبيلية،[6] ومطوقا، ضمن القيادة الموحدية آنئذ - بقسط من المسؤولية العامة عن الوضع الإسلامي بالعدوة؛ وقد احتفظ أبو يعقوب نتيجة لأهمية حصيلة اطلاعه آنذاك على الأحوال الأندلسية، واحتكاكه - ميدانيا - بحقائق وملابسات هذه الأحوال -احتفظ- بعد أن آل أمر الدولة الموحدية إليه - بحوافز قوية على الأخذ أخذا لا هوادة فيه بناصية الشأن الأندلسي، الالتزام - أكثر ما يمكن - به، إلى أن كان منتهاه هو نفسه على أرض العدوة تحديدا (580 هـ).

لقد كان ارتباط أبي يعقوب بالأندلس على هذا النحو - ارتباطا مستقى من جذور مبدئية تقليدية انحدرت إليه من سلفه عبد المومن ومن قبله من المرابطين، وكان من معززات هذا الارتباط المبدئي الارتباط الفكري والعاطفي الذي يبدو أنه كان ذا صلة بما صرفه الخليفة الموحدي من جهود ذات صبغة حضارية، خاصة في إشبيلية[7] التي كانت بيئتها - خلال الفترة التي أمضاها في هذه الحاضرة كوال - مجالا ملائماً له للتجاوب مع النوازع الثقافية التي يمكن القول إنها كانت من بين أقوى نوازعه الذاتية وآثرها لديه[8].

على أنه بصرف النظر عن هذين الاعتبارين المذكورين بصفتهما أسهما في مزيد التركيز على الصلات المغربية الأندلسية غداة بداية عهد أبي يعقوب كخلف لوالده على رأس دولة بني عبد المومن فإن تزايد الضغط العسكري والسياسي المسيحي على الأندلس في خلال الظرف والمؤثرات النفسية الثقيلة المنبثقة عنه، كل ذلك لم يكن من شأنه في العموم، أن يترك للمغرب خيارا آخر، إلا خيار المبادرة إلى تعديل ميزان القوى الذي مني باختلالات جدية، بقدر كبير في الساحة الأندلسية، والتصدي لمد الإفرنج من شتى جهات العدوة، غربا وشمالا وشرقاً، وهو المد الذي كان ينذر بتفاقم هذه الاختلالات أكثر، إذا لم تقع مجابهته بالكيفية الملائمة.

لقد كان أبو يعقوب، وهو الذي لم يكن حديث الإلمام بتعقيدات الأندلس، يستوعب على نحو لا تنقصه الدقة والشمول - أبعاد الوضع الإسلامي بشبه الجزيرة، وما يلزم عند اضطلاع المغرب بتقويمه - من جهود مركزة على المستوى الجهادي والسياسي والتنظيمي وما إليه، ومن ثم كان التفكير الموحدي متوجها في غضون ذلك الظرف - إلى إعداد الأمور على منحى بعيد النفس، للقيام بمواجهة جد كبيرة، تتسم بسعة الاستيعاب وشموله أقصى ما يمكن، وتستغرق من الوقت حيزاً غير محسوب، طالما دعت إلى ذلك مقتضيات العمل الذي كان الحال يتطلبه بهذا الصدد، وهو توجه منطقي في التصور والاستنتاج، كانت تتوفر له مع معلّلات مختلفة، إذا روئيت من منظور التحركات الإفرنجية آنئذ على الساحة الأندلسية، وما كانت تترامى عليه تلك التحركات من جبهات عريضة، وما تحدثه على مسلمي العدوة من ضغوط كثيفة.

وعلى ضوء هذه الملاحظة يمكن تقدير مدلول الحركة الواسعة التي قام بها أبو يعقوب لاستقدام جموع الأعراب الذين كانوا يروجون في بادية المغرب الأدنى وما

6) انتزع الموحدون حاضرة إشبيلية من بقايا المرابطين سنة 541 هجرية في سياق الحملة الموحدية العامة، التي تم بموجبها - أيام عبد المومن - اجتثاث مخلفات النفوذ المرابطي من عموم شبه الجزيرة، وعقب ذلك عقد عبد المومن لابنه أبي يعقوب على المدينة وبعد وفاة عبد المومن وصيرورة أمر الدولة الموحدية إلى أبي يعقوب أسند هذا الأخير ولاية إشبيلية إلى أخيه.

7) يورد صاحب «الاستقصاء» في هذا قوله، نقلا عن المصادر التي قد يكون اعتمدها، ومعلوماتها بهذا الصدد مفصلة أكثر «..عقد أبو يعقوب يوسف) الجسر على وادي إشبيلية بالقوارب، وبنى قصبتها الداخلية. وبنى الزلاليق للسور، وبنى سور باب جوهر، وبنى الرصفتان المتدرجة بضفتي الوادي وجلب الماء من قلعة جابر حتى أدخله إشبيلية، وأنفق في ذلك أموالاً لا تحصى (ج 2 ص 135). طبعة الدار البيضاء.

8) يقول المراكشي في «المعجب» بهذا الخصوص عن أبي يعقوب : «كان أعرف الناس كيف تكلمت العرب وأحفظهم لأيامها ومآثرها، وجميع أخبارها في الجاهلية والإسلام، صرف عنايته إلى ذلك أيام كونه بإشبيلية والياً عليها في حياة أبيه ولقي بها رجالا من أهل علم اللغة والنحو والقرآن، منهم الأستاذ اللغوي المتقن أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الملك المعروف عندهم بابن ملكون، فأخذ عنهم جميع ذلك وبرع في كثير منه» (ص 237 - طبعة القاهرة 1368 - 1949).

إليه وذلك بقصد إشراكهم في العمل الجهادي بالأندلس، والإفادة بذلك، من إسهامهم كقوة مدد مهمة، وقد دأب الإفرنج بشبه الجزيرة خلال حقب متعددة، من جهتهم، على التآزر في جهدهم القتالي بأعداد وفيرة من المحاربين الواردين على العدوة من أنحاء شتى من أوروبا، لقد كانت حركة الاستنفار تلك، ذات مدى بعيد فيما تستغرقه من طول وقت وجهد، لإمكانية التوصل من خلالها إلى إصابة الأهداف الستراتيجية المبتغاة آنئذ.

بيد أن وتيرة الضغط الإفرنجي في الأندلس، كانت أسرع وأشد إلحاحاً من أن تترك مجالا للتريث والتأني الطويل النفس، إلى حين إتمام تنظيم الحملة الشاملة الجاري إعدادها في ذلك الحين، وتحريكها بعد ذلك نحو الهدف، لقد كان فكا الكلابة يضيقان في أثناء الفترة حول الأندلس الإسلامية أكان ذلك من الغرب في الواجهة الواقعة تحت ضغط البرتغال، أو من الشمال المعرض لضغوط قشتالة، أو من الشرق المواجه للضغط الآتي من طوائفية «ابن مردنيش - وقد كانت في أخرياتها - ومن معه من قوى إفرنجية. وقد شهد غربي الأندلس، تطورا مثيرا في دوامة الصراع الدائر - ساعتها - تمثل في محاصرة البرتغال بقيادة «هنريكيز» لحاضرة بطليوس ذات الأهمية في المنطقة وإلحاحهم - عسكريا - عليها، إلى حين توصلهم لقسر مسلميها على اللواذ بالقصبة، واستصراخ أبي يعقوب. وهي حال بدا حادا معها - في نطاق الستراتيجية الموحدية - حجم الفارق بين ضرورة الاستعداد المتأني للحملة الشاملة كما كان يعد لها أبو يعقوب، وبين الضرورة الأخرى التي فرضها تطور الصراع في الساحة الأندلسية، والقاضية باستعجال التحرك الموحدي - على أي وجه - من أجل وقف مضاعفات الانحسار المرحلي في قدرة الوجود الإسلامي بالعدوة على المجابهة ساعتئذ، إن لم يكن لحسم العوامل حسما سريعا، التي أدت إلى حصول هذا الانحسار من أساسه. لقد كان داعي البت في الاختيارات المطروحة - هكذا - على أبي يعقوب - واقعا في الصميم مما كان يتحتم أن ترتكز عليه الستراتيجية الموحدية - خلال الظرف - من معادلات وتوازنات دقيقة.

وبالفعل، فقد أفضت القيادة الموحدية إلى ما كان عليها أن تختاره، ومبنى ذلك الأخذ بأسلوب المزاوجة بين الحملة الجزئية المستعجلة، وبين الحملة التالية لها، الأكثر شمولية، والأوفر استيعاباً لمقتضيات ونتائج الإعداد الطويل المدى، المتريثة ترتيباته.

☆ ☆ ☆

في هذا المناخ المفعم بالحوافز الجهادية الجياشة، والذي بلورته معطيات المنعطف الموحدي في ماضي المغرب كان للأدب - كالحال في عهد المرابطين - سوقه النافقة التي راجت في خلالها معروضات شتى مما صاغته القرائح المغربية والأندلسية، مستقية إياه من طبيعة ومحمولات السياق التاريخي الذي كانت تعيشه المنطقة حينئذ وتتكيف مساراتها بتطوراته، وكما أسلفنا، فإن أبا الحسن ابن عياش - الذي واكب بفكره وبمعايشته الموصولة تيارات هذا السياق أثناء شطر من عهد عبد المومن بن علي، وعهد أبي يعقوب خلفه - قد كان له من أدبه، شأنه في ذلك شأن عدد من أعيان عصره - مجال واسع لاستلهام اللحظة التاريخية الماثلة، والمشاركة - عبر قنوات التعبير الأدبي، في تسجيل المواقف والرؤى والتوجهات العامة، المرتبطة بالأمر، ومن المألوف فيما هو متأت من أشتات الإفادات الواردة حول ابن عياش في المصادر التي تتضمن شيئاً عنه، أن الرجل كان في أساس أمره ناثرا وضليعاً في أسلوبه على منوال النثر الفني فيما كان يدبجه، وسنرى - بحول الله فيما سنسوقه من نثريات لهذا الكاتب في خلال الحلقة القادمة من هذا الموضوع - نماذج ذات دلالة بليغة، على مبلغ ما كان من ضلاعته في فنه هذا وحسن تمكنه فيه، إلا أن الذي نود التوقف عنده قليلا في هذا الموطن من الحديث، هو ما يتعلق بالشعر في توجهات الرجل الأدبية، وما إذا كان له في هذا المقام، موقع يعتد به، على غرار الموقع الذي يعرف له من خلال مخلفاته في مجال النثر ؟

لا نرى في الواقع - تبعاً لما يتوفر لنا - ما يساعد على الجزم - نفياً أو إثباتا - بشيء نهائي بهذا الخصوص، غير أن ما يلفت النظر - في هذه النقطة

بالذات، هو ما أورده ـ على سبيل المثال ـ بعض المؤرخين المعاصرين من شعر ذكر عنه المؤرخ المشار إليه[9] أنه من نظم أبي الحسن ابن عياش، وإن وضعه لهذا الشعر كان تنفيذا لرغبة مخدومه أبي يعقوب يوسف بن عبد المومن، ضمن نطاق التأهب للحملة التي كان الخليفة الموحدي يهيئها لوقف تردي الأوضاع ساعتها بالأندلس الإسلامية، ومحاولة إعادة الأمور إلى نصابها لصالح مسلمي العدوة.

ويتعلق الأمر بأبيات حماسية، يزيد عددها أو ينقص حسب الروايات، ويتصل موضوعها بما سلفت الإشارة إليه من كون أبي يعقوب يوسف عمد ـ بين يدي الحملة التي كان يعتزم القيام بها باتجاه الأندلس ـ إلى استنفار قبائل العرب المنبثة بافريقيا (المغرب الأدنى) كي يشاركوا بجموعهم في تعزيز الطاقة الجهادية الموحدية، التي كان يتم ساعتئذ حشدها في هذا النطاق، وقد ذكر في السياق، أن أبا يعقوب يوسف، الذي بعث برسالة استنفار إلى هؤلاء العرب (بنو هلال الخ..) قد أشفع رسالته بشعر حماسي يتصل بالموضوع، وهو من صياغة ابن طفيل، الفيلسوف والطبيب، والأديب كذلك. ثم أعقب ذلك برسالة أخرى مصحوبة بلامية، كانت استنهاضية هي أيضاً من نظم أبي الحسن بن عياش ورد فيها :

أقيموا إلى العلياء عوج الرواحل
وقودوا إلى الهيجاء جرد الصواهل
وقوموا لنصر الدين قومة ثائر
وشدوا على الأعداء شدة صايل
فما العز إلا ظهر أجرد سابح
يفوت الصبا في شده المتواصل
وأبيض مأثور كأن فرنده
على الماء منسوج وليس بسائل
وأسروا بني قيس إلى نيل غاية
من المجد تجنى عند برد الأصائل
تعالوا فقد شدت إلى الغزو نية
عواقبها مقصورة على الأوائل

9) ع. عنان : عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس (ج 2 ص.61).

والأبيات ـ كما يرى ـ رصينة السبك والصياغة، وقد أوردها المراكشي في «المعجب» بإضافة أبيات أخرى منها هذه :

هي الغزوة الغراء والموعد الذي
تنجز من بعد المدى المتطاول
بها تفتح الدنيا بها تبلغ المنى
بها ينصف التحقيق من كل باطل
أهبنا بكم للخير والله حسبنا
وحسبكمو والله أعدل عادل[10]

إلا أن ما يسترعي النظر فيما ورد عن هذا الأمر في «المعجب» أن «المراكشي» لم يومئ إلى علاقة الأبيات بابن عياش، علاوة على ما ساقه من أن الذي بعث بها إلى القبائل العربية بالمغرب الأدنى، هو عبد المومن بن علي، وإن كان هذا لا ينتفي به احتمال أن يكون قد وقع الترويج لهذه الأبيات في عهدي عبد المومن وخلفه كليهما. خصوصاً وأن المناسبة التي دعت إلى وضع هذا الشعر (مناسبة الرغبة في استنهاض القبائل العربية للجهاد) كانت هي نفس المناسبة التي حصلت في عهد عبد المومن، وتكررت في أثناء ولاية أبي يعقوب ابنه، ثم إن ابن عياش المعني بنسبة الأبيات إليه كان كاتبا لولي الأمر في أثناء العهدين معا، على التتابع، وقد يستأنس بهذا الاعتبار في التوفيق بين ما ورد في المصدرين على أساس أن يكون ابن عياش قد نظم الأبيات في عهد عبد المومن ثم تكرر استعمالها في عهد أبي يعقوب.

مهما يكن فإن قاعدة مصاحبتنا لأبي الحسن بن عياش، أساسها النثر لا القريض : ذلك أن مجال المهمة الوظيفية للرجل بالمغرب، والتي أفرزت ـ على ما نعلم ـ أهم إنتاجه الفكري بهذه العدوة، قد ارتبط ـ أساساً ـ بالصفة التي له ككاتب، لا كشاعر، ومن ثم فإن ما سنستعرضه من آثاره، سيكون عبارة عن رسائل وليس قصائد، وهي رسائل تعكس من ماجريات تاريخ العدوتين خلال الحقبة خاصة ما يهم واقع الجهاد، الشيء الكثير، فإلى بقية الحديث بحول الله.

10) المعجب، ص. 225.

من قضايا تحقيق التّراث ونشره

للدكتور عياد الثبيتي

اهتم نفر من الأساتذة العلماء بشئون التراث وشجونه، يمتحون من تجارب عديدة داخلوا فيها المصادر، وتمرسوا بمشكلات النصوص، فاكتسبوا من الخبرات ما مكّنهم من الحديث بلغة الأساتذة عن تحقيق النصوص، وما يتطلبه من حلّ معضلاتها وإيضاح غوامضها، وتوثيق مسائلها، وتخريج شواهدها، وما يسبق ذلك من انتقاء ما يصلح للتحقيق والنشر، وتوثيق نسبته. وعن التصحيف والتحريف أسبابه وخطره.

ولست أزعم أني سأجاري هؤلاء الأساتذة الأفاضل في مباحثهم، ولا في الطريقة التي تناولوا بها تلك المباحث.

لكنني سأحاول الحديث عن مسائل متفرقة، يجمعها أمران :

أولهما : تعلقها بالتراث، تحقيقه ونشره، وفهم بعض قضاياه.

ثانيهما : انبثاقها من معاناة زملائي طلبة الدراسات العليا الذين يصطدمون بطرائق شتى من التعامل مع التراث داخل الجامعة وخارجها.

أولا - تحقيق النصوص من قبل طلاب الدراسات العليا :

مما تجدر الإشارة إليه : ظاهرة الإسراف في توجيه الطلاب للاشتغال بتحقيق المخطوطات دون نظر إلى قيمة المخطوط المراد تحقيقه، وإلى قدرات الطالب وتكوينه، فالذي يهم الطالب والمشرف في كثير من الأحيان أن يجد الطالب مخطوطة في الفن الذي يشتغل به، أوراقها لا تتجاوز عددا معينا ولم يحققها أحد قبله - في غالب ظنه - ليبدأ بحثه جذلا مسرورا، وينجم عن ذلك ألوان من العبث بنفائس التراث تارة، وبأوقات الطلاب تارة أخرى.

وأعتذر عن استعمال كلمة العبث على مثل هذا الصنيع، إذ لم أجد كلمة أصف بها عمل من لا يعرف من تحقيق النصوص إلا : في نسخة أكذا، وفي نسخة ب كذا، ضاربا صفحا عن إقامة النص، بل يحدث كثيرا أن يثبت الشيء وما ينقضه في سياق واحد دون تنبه إليه أو إشارة، ولا يبعد عن هذا أن يخشى التقصير فيعلّق على كل مسألة، وإن كانت من المسلمات، ويترجم لكل الأعلام الذين ترد

أسماؤهم في مخطوطته، يستوي عنده أن يكون العلم مشهورا معروفا عند كل أحد كالخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وأن يكون مغمورا لا يعرفه أكثر أهل الاختصاص.

ونحو هذا أن يثقل كاهل النص بتعليقات وحواش طويلة لامبرر لها، كأن يحقق الطالب كتابا في الفقه أو النحو وينتهز فرصة ذكر المؤلف مسألة خلافية فيحشد - في تعليقه - الآراء المختلفة، مبينا حججها، ذاكرا الاعتراضات على تلك الحجج، مرجحا ما يراه راجحا.

وهذه الطرائق في التعامل مع النصوص تعود إلى أسباب كثيرة أوجز أهمها فيما يلي :

1 - عدم الخبرة لدى الطلاب، إذ يُزّج - بأكثرهم - في ميدان التحقيق دون سابق معرفة بأساليب تحقيق النصوص ومكملاته، من خلال مادة دراسية يدرسونها، أو من خلال قراءات خاصة للكتب التي ألفت في هذا المجال مثل : «تحقيق النصوص للأستاذ عبد السلام هارون»، و «منهج تحقيق النصوص ونشرها للدكتورين نوري القيسي وسامي العاني»، و «التوثيق : تاريخه وأدواته لعبد المجيد عابدين»، و «ضبط النص والتعليق عليه للدكتور بشار عواد معروف».

2 - إسناد الإشراف على رسائل التحقيق إلى أساتذة لم يتمرسوا بتحقيق النصوص، وإن كانوا أساتذة كبارا في فنهم، وهؤلاء ينبغي أن يستفاد منهم في المجال الذي يبرّزون فيه.

3 - نقص المتابعة لما يجدّ طبعه من كتب التراث محققة أو غير محققة، والكتب التي تتناول قضايا التراث، وفهارس المخطوطات، وهذا النقص أو التقصير يشترك في تحمل مسؤوليته : المكتبة التي ينبغي أن توفر للباحثين ما يحتاجون إليه من مصادر ومراجع في شتى التخصصات أولا بأول. والأستاذ الذي يعد انقطاعه عما يطبع في مجال تخصصه دليلا على تخليه عن واجب من أهم واجباته، والطالب الذي تعرف جدّيته من خلال حرصه على الحصوص على كل جديد يتصل بموضوع بحثه من قريب أو بعيد.

4 - قلة النماذج المحققة تحقيقا جيدا في بعض الفنون، الأمر الذي يحول بين الطلاب وبين الاستفادة من مناهج المحققين الأثبات مع مراعاة ما لكل كتاب من خصوصية.

5 - غياب النقد العلمي الهادف لتحقيقات الكتب التراثية. ومن المعلوم أن كتب التراث تلقى رواجا كبيرا لدى الناس، ودعما ملموسا من الهيئات والمصالح الحكومية في كثير من الأقطار العربية، وقد أتاح ذلك للناشرين والمحققين الذين تخلوا عن مبادئهم في التحقيق، وأشباه المحققين اتخاذ تحقيق التراث وسيلة للكسب السريع دون التفات إلى واجبهم نحو الكتب التي ينشرونها، ونحو القارىء الذي يقدمونها إليه، ولو واكب هذه الحركة نقد موضوعي لعرف الناس زيف كثير من الرتوش التي تسمى - ترخصا - تحقيقاً، ولقدر الناس التحقيق حق قدره، ولحرص المحققون على رصيدهم من الثقة والتقدير لدى القراء.

ثانيا - نقد تحقيقات النصوص :

على الرغم من أهمية النقد العلمي لتحقيقات الكتب فإن العناية به قليلة تنتهي في معظم الأحيان بانتهاء وقته، مع أن الاستفادة من كثير من الكتب لا تكون تامة إن لم يضم إليها ما قيل في نقد تحقيقها.

فمن يقرأ شرح ديوان المتنبي الموسوم «بالتبيان» ينبغي أن يضم إليه ما كتبه الدكتور مصطفى جواد في مجلة المجمع العلمي بدمشق في تصحيح نسبته.

والذي يملك نسخة من شعر عمرو بن أحمر الباهلي ينبغي أن يضم إليه نقد واستدراكات الدكتور رمضان عبد التواب له، والتي نشرها في مجلة المجمع العلمي أيضا.

والذي يملك نسخه من معجم السّفر للسلفي ينبغي أن يضم إليه ما كتبه الدكتور بشار عواد معروف في نقد تحقيقه، ونشره في مجلة المورد.

والذي يمتلك نسخه من كتاب الإحاطة لابن الخطيب ينبغي أن يضم إليه ما كتبه الدكتور لطفي عبد البديع في نقد تحقيق الجزء الأول منه ونشره في مجلة

معهد المخطوطات، وما كتبه الأستاذ محمد بن تاويت في مجلة المناهل، ومثل ذلك كثير جدا.

ثالثا ـ مناقشات تراثيه :

سوف أقصر هذه المناقشات على صفحات قليلة من كتابين نحويين :

يمثل أولهما ظاهرة التوارد على تحقيق كتاب واحد من قبل أكثر من باحث.

ويمثل ثانيهما اتجاه بعض المحققين إلى اقتران أسمائهم بالكتب المعتمدة دون أن يقدموا في تحقيقاتهم ما يجعل ذلك الاقتران مقبولا. والكتابان هما :

1 ـ المسائل العسكريات :

حققت المسائل العسكريات لأبي علي الفارسي ثلاث مرات : في العراق، وفي الأردن، وفي مصر، ونشرت في أوقات متقاربة، وتمتاز الطبعة الأردنية عن الطبعتين الأخريين باعتماد المحقق على نسختين.

احداهما : «نسخة شهيد على» التي فرغ من نسخها أحمد بن تميم بن هشام اللبلى في العاشر من جمادى الآخرة من سنة خمس عشرة وستمئة. وعلى هذه النسخة وحدها اعتمد المحققان : المصري والعراقي.

ثانيتهما : نسخة قرئت على أبي علي الشلوبين، وفي صدرها إجازته أحد تلاميذه، وتم نسخها في الحادي عشر من ذي القعدة سنة اثنتين وستمائة». وعلى النسخة حواش، بعضها بخط أبي علي الشلوبين.

وتمتاز الطبعة المصرية بنوعين من الفهارس يسهلان الاستفادة منها :

فهرس المفردات والأساليب النحوية.

فهرس تفصيلي للمسائل النحوية.

والباحث المتأمل للطبعات الثلاث يخرج بملاحظات كثيرة بعضها مشترك، وبعضها يخص طبعة دون الأخريين.

ففي الطبعة الأردنية اعتمد المحقق على نسختين أشار إلى مكان واحدة منهما هي نسخة «شهيد على» بتركيا، وقال عن الثانية ـ وهي النسخة التي قرئت على أبي علي الشلوبين ـ : «ويعود الفضل في حصولي على صوره من هذه النسخة إلى العالم الفاضل الأستاذ راتب النفاخ، وهي صورة عن مصورة أبلغني أنها أهديت إليه من المغرب ـ المملكة المغربية ـ من بعض أصدقائه».

قلت : كأن الشيخ النفاخ نسي مصدر هذه المصورة، وأصلها نسخة مكتبة الزاوية الحمزية رقم 43، يضمها مجلد واحد هي والمسائل البغداديات، ومنها مصورة بالخزانة العامة بالرباط، ومصورة في معهد المخطوطات بالقاهرة رقمها «759» نحو مصنف غير مفهرس.

وفي الطبعة العراقية : جاء عنوان الكتاب : «المسائل العسكريات في النحو العربي لأبي علي النحوي» وفيه إضافة المحقق إلى العنوان قوله : «في النحو العربي»، وهي إضافة لا داعي لها، وعدوله عن أبي علي الفارسي، إلى أبي علي النحوي لسبب لم يذكره، لكنه ـ على كل حال ـ لا يمت إلى العلم بصلة.

وفي الطبعة المصرية جاء عنوان الكتاب «المسائل العسكرية» في حين جاء العنوان في النسخة الخطية التي اعتمدها المحقق : «المسائل العسكريات».

وإذا تجاوزنا المقدمات الثلاث التي صدّر بها المحققون الثلاثة طبعاتهم، وجدنا ما يلي :

1 ـ في صفحة 84 من الطبعة المصرية، قول أبي علي ـ في معرض حديثه عن تفريق سيبويه بين أقسام الكلام الثلاثة ـ : «وإذا عرّف من هذه الأشياء الثلاثة شيئين على الوجه الذي ذكرنا، امتاز الثالث منهما ولم يستبهم» وفي العراقية : «وإذا عرف... شيء... امتاز».

قلت : (امتاز) في الطبعتين قراءة خاطئة لـ (انماز) الواضحة تماما في مصورة نسخة «شهيد على» التي اعتمدها المحققون الثلاثة، وقد قرئت قراءة صحيحة في الطبعة الأردنية، لكن المحقق أوردها في الهامش، وأثبت في المتن ما جاء في نسخة الزاوية الحمزية، وهو قوله : «صار الثالث منهما معرفة ولم يستبهم»، وبيّن أن عبارة النسخة التركية أدق في أداء المعنى الذي أراده أبو علي.

2 ـ في صفحة 69 من الطبعة العراقية قول أبي علي : «وأمّا «إذ» فإنّه يضاف إليه الإسم، في نحو : يومئذ. وحينئذ. ويقع خبراً عن الحدث كإذا. وهذه الأسماء التي تجريها على هذا الوصف الذي وصف به أبو العباس الاسم، أنها ليست متمكنة في الاسمية، ولا يكاد النحويون يطلقون عليها الاسم حتى يعتبروه بغيره».

وعلّق المحقق على كلمة (تجريها) بقوله : «الأصل (تجريه) توهما».

قلت : الذي في الأصل : «تخرج عن» واضحة تمام الوضوح، و (تجريه) التي ذكرها المحقق من أخطائه في قراءة النص، ونجم عن ذلك أن أصبحت (عن) في طبعته (على) ولم يشر إلى ذلك، وقد جاءت الكلمتان صحيحتين في الطبعتين الأخريين.

وكلمة (أنها) من قول أبي علي : «أنها ليست متمكنة» تحريف في نسخة «شهيد على» صوابه «أسماء» كما جاء في نسخة الزاوية الحمزية، واعتمادا عليها جاءت الكلمة صحيحة في الطبعة الأدرنية.

وكلمة «يعتبروه» قراءة خاطئة لكلمة «يقيدوه» الواضحة تمام الوضوح في النسختين الخطيتين. وقد جاءت صحيحة في الطبعة المصرية، كما جاءت صحيحة في الطبعة الأُردنية اعتمادا على ما في نسخة الزاوية الحمزية، وأخطأ المحقق في قراءة الكلمة في نسخة «شهيد على» فقال : في ش : تقدره».

3 ـ سقط قول أبي علي : «مثل هذا الوصف في شموله عامة الأسماء ما وصف به أبو العباس من أنّه مادخل عليه حرف من حروف الجرّ» من الطبعة العراقية.

4 ـ في صفحة 26 من الطبعة الأردنية قول أبي علي في معرض حديثه عن اسمية «كيف» مع عدم دخول حرف الجر عليها» ومع ذلك فحرف الجر لا يدخل عليه كما لا يدخل على الأسماء التي (كيف) دالّ عليها». وعلق المحقق على ذلك بقوله : «المقصود أسماء الاستفهام نحو : من، وأين».

قلت : هذا التعليق خطأ في فهم كلام أبي علي، والصواب في فهمه ما جاء في الطبعة المصرية تعليقا عليه، إذ قال المحقق : يعني أن (كيف) إنما امتنع دخول الجار عليها، لأنها سؤال عن الحال، والحال في مثل قولك : (رأيت رجلا راكبا) لا يجوز دخول حرف الجر عليها وانظر الإيضاح في علل النحو ص 52.

غير أن مثال المحقق لا يصح إلا على مذهب الخليل إذ أجاز مجيء الحال من النكرة. انظر الكتاب 112/2.

5 ـ في صفحة 89 من الطبعة المصرية قول أبي علي : «وقد وصف الاسم أيضا بأنّه مادلّ على معنى، وذلك المعنى يكون شخصا، وغير شخص»، ففصل بقوله : «مادل على معنى» بينه وبين الفعل الذي يدل على معنيين، إلى أن قال : «...فصار ذلك وصفا شاملا لجميع الأسماء مخصصا له من الفعل والحرف. فإن قلت : معنى الأسماء نحو : من وما في الاستفهام، فمن يدل على معنى وعلى الاستفهام... فقد دلّ على معنيين إذن».

وبيّن «أن قوله «معنى الأسماء نحو : من وما في الاستفهام» لا يستقيم معناه، وسبب ذلك أن كلمة (معنى) الواردة في نسخة «شهيد على» هي : «معنا» كتبت ألفها مقصوره، فسببت الإشكال، وقد جاءت العبارة في الطبعة الأردنية ـ اعتمادا على ما جاء في نسخة الزاوية الحمزية ـ : «فإن قلت : معنا في الأسماء، نحو : من، وما في الاستفهام...».

وقد حاول المحقق العراقي الخروج من الإشكال فزاد في العبارة ونقص، وظل الإشكال قائما، والعبارة عنده : «فإن قلت : معنى أسماء الاستفهام مثل (من) و (ما) (تدل على معنى) وعلى الاستفهام.

6 ـ في صفحة 28 من الطبعة الأُردنية قول أبي علي : «وكذلك إذا حذفت «أن» الناصبة للفعل مع الفاء، وما أشبهه مما يلزم فيه الإخبار، ولا يستعمل معه الإظهار كان بمنزله الثابت في اللفظ».

قلت : وقوله : «الإخبار» هكذا جاء في نسخة «شهيد على»، وأصلحه المحققان المصري والعراقي فجعلاه

«الإضمار». وجاء كذلك أيضا في نسخة الزاوية الحمزية لكن جاء بإزائه من الجهة اليسرى : «كذا» وتحتها «الإضمار». وقد فات المحقق الأردني إصلاح هذا الخطأ استفادة من هذا التصحيح الذي لم يتيسر لصاحبيه.

7 ـ في صفحة 71 من الطبعة العراقية : السطر الخامس، والسادس والسابع : قول أبي علي : «فإذا كان (أن) التي يستعمل معها إظهار (كان) بمنزلة المثبت في اللفظ، يختص الاسم من الصفات دخول الألف واللام...».

قلت : وهذا النص تصرف فيه المحقق تصرفا عجيبا، فحذف من النص ألفاظا وأقحم (كان)، وادعى أنّ (أن) زيادة من عنده يقتضيها السياق» ولم يتنبه إلى ما في النص من نقص، ولإيضاح ذلك أورد عبارة أبي على كما جاءت في نسخة «شهيد على». قال أبو علي : «فإذا كان (أن) التي لا يستعمل معها إظهار بمنزلة المثبت في اللفظ... ومما يختص الاسم من الصفات دخول الألف واللام..».

فأسقط المحقق (لا) من (لا يستعمل) ونجم عن ذلك إقحامه (كان) بعد كلمة (إظهار)، فزاد العبارة إفسادا، وحذف (ممَّا) من قوله : (ومما يختص) ولم يتنبه إلى أنّ (إذا) لم يأت لها جواب.

وقد سلمت الطبعة المصرية من هذه المآخذ، إذ زاد محققها ـ وهو أقدر الثلاثة على فهم النص ـ على العبارة الصحيحة مالا يتم فهمها إلا بنحوه وهو قوله : فكذلك حروف الاستفهام مع هذه الأسماء». وقد سلمت الطبعة الأردنية من النقص.

والكلام الساقط من نسخة «شهيد على» في هذا الموضع موجود في نسخة الزاوية الحمزية ففيها «فإذا كان... فما قد يستعمل معه الإظهار إذا تعدّيت موضع الدلالة أحرى أن يكون بمنزلة المثبت في اللفظ...»

2 ـ همع الهوامع :

همع الهوامع لجلال الدين السيوطي (ـ 911 هـ)، من أهم المصادر النحوية المتأخرة وأجمعها لخلافات النحويين وحججهم، عوّل فيه السيوطي على كتاب التسهيل لابن مالك، وشرحه لأبي حيان، وارتشاف الضرب له أيضا. وأضاف إلى ما استفاده من هذه المصادر الرئيسة نقولا كثيرة عن تلاميذ أبي حيان ومن بعدهم إلى عصره، وعن غيرهم.

وطبع الهمع سنة 1327 «سبع وعشرين وثلاثمائة وألف» بتصحيح محمد بدر النعساني. وظلت هذه الطبعة معتمد الدارسين يفيئون إليها في مراجعاتهم، وبحوثهم ورسائلهم العلمية على الرغم من كثرة تحريفاتها وأخطائها.

ولم ينتدب أحد نفسه لإعادة طبع الكتاب بعد تحقيقه تحقيقا علميا يتيح للباحثين الاستفادة منه على أتم صورة، حتى طبع الجزء الأول منه سنة 1394 «أربع وتسعين وثلاثمائة وألف» في الكويت بتحقيق الدكتور / عبد العال سالم مكرّم، ثم تتابع ظهوره، حتى نجز بطبع الجزء السابع سنة 1400 هـ «أربعمائة وألف» والذي اشتمل على كثير من الفهارس المفيدة.

وقد أصيب الباحثون بخيبة أمل كبيرة في هذه الطبعة التي روّج للجزء الأول منها بعزو الاشتراك في تحقيقه إلى المحقق الكبير الأستاذ عبد السلام هارون، وكتب اسمه على صفحة العنوان الداخلية منه، كما أشير إلى اشتراكه في تحقيقه في نهاية المقدمة.

وليس من همي هنا أن أتتبع سقطات المحقق، وهي كثيرة جدا، وبعضها مما لا يقع فيه صغار الطلبة، ولكني سأكتفي بالإشارة إلى بعضها في عدد قليل من صفحات الجزء الأول لا يتجاوز ثلاثين صفحة :

1 ـ جاء في الثلاثين صفحة الأولى من الجزء سبعة أحاديث خرّج المحقق ثلاثة منها فقط كما يلي :

أ ـ قال السيوطي الصفحة 11 : «إيّاك واللو، فإن اللو تفتح عمل الشيطان» رواه بهذا اللفظ ابن ماجه وغيره». وعلق المحقق على ذلك بقوله : النهاية لابن الجزري 280/4، يريد النهاية في غريب الحديث لابن الأثير الجزري، وكان ينبغي أن يشير إلى مكان الحديث في سنن ابن ماجه وغيره، إذ أن كتاب النهاية لا يعتبر من مصادر تخريج الأحاديث.

ب - وقال السيوطي : «والاستقبال كحديث : «نضَّر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها» فعلق المحقق على ذلك بقوله : النهاية لابن الجزري 71/5.

ج - وقال السيوطي الصفحة 12/11 : «وعلى الثاني يتخرج قول العرب... وحديث الصحيحين : «لا حول ولا قوة إلاّ بالله كنز من كنوز» وعلق المحقق على ذلك بقوله : سنن ابن ماجه 1256/2.

2 - وليس حال الشعر بأحسن من حال الحديث إذ ورد في الثلاثين صفحة ثلاثة عشر شاهدا، اكتفى المحقق بتخريج ثلاثة شواهد منها فقط.

3 - ذكر المحقق أن من عمله في التحقيق «التعريف ما أمكن بالكتب النحوية واللغوية التي ورد ذكرها في الكتاب».

وقال السيوطي : «وقد خرق إجماعهم الشيخ بهاء الدين ابن النحاس فقال في تعليقه على المقرب» فعلق على كلامه بقوله : «المقرب في النحو لابن عصفور، مخطوط بدار الكتب المصرية... وقد قام بتحقيقه يعقوب غنيم في أطروحة جامعية.

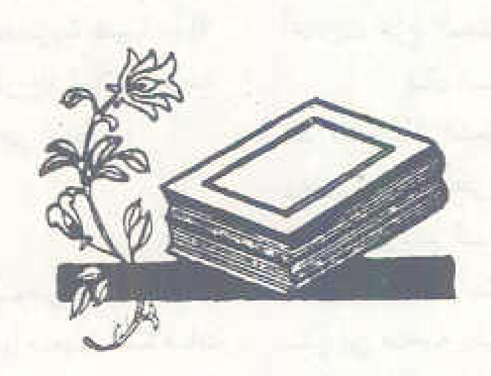
وكان المقرب قد طبع وتداوله الناس قبل طبع الجزء الأول من الهمع بثلاث سنوات فلا داعي إلى الإشارة إلى مخطوطاته وإلى تحقيقه في رسالة علمية لم تر النور حتى اليوم.

- وكان الذي يحتاج القارئ إلى معرفته تعليق ابن النحاس على المقرب الذي أشار إليه السيوطي.

4 - قال السيوطي في إطلاق الكلمة على الجملة المفيدة - الصفحة 4 : «وهذا الإطلاق منكر في اصطلاح النحويين، ولذا لا يتعرض لذكره في كتبهم بوجه، كما قال ابن مالك في شرح التسهيل».

وعبارة ابن مالك في شرح التسهيل هي : «والحاصل أن إطلاق الكلمة على ثلاثة أقسام : حقيقي وهو الذي لا بد من قصده، ومجازي مهمل في عرف النحاة، وهو إطلاق الكلمة على الكلام التام».

ب - وقال السيوطي الصفحة 28 : «وذهب الزجاجي إلى أن كان وأخواتها حروف». والزجاجي في قوله : «باب الحروف التي ترفع الاسم وتنصب الخبر» يستعمل الحروف بمعنى الكلمات وقد صنع ذلك في أكثر من موطن من كتابه الجمل.



البحث التاريخي بالمغرب
واقع وآفاق

للأستاذ أحمد بوكاري..

مدخل :

ليس المقصود من هذه المساهمة؛ أن نؤرخ لطفرة علمية اعتمدت كمادة أساسية لها المخطوط والوثيقة المغربية أو التي لها علاقة بالتاريخ الوطني في إطار ما يمكن نعته «بمشروع مدرسة تاريخية وطنية».. ومع لك يظل هذا المسعى مطلبا علميا لا مندوحة عنه. لأن الدراسات التقويمية والنقدية هي وحدها الكفيلة بجعل مسيرة الفكر والثقافة على بينة من أمرها؛ كمشروع وهدف. لأن العبرة ليست بكثرة الضاربين في حقل وفضاء المعرفة الرحب؛ ولكن أيضا بوضع علامات الطريق، ونقط توقف، وتقييم لعملية التراكم في مجال من المجالات... في محاولة لتأمين خطوات المستقبل.

مجال البحث التاريخي :

البحث التاريخي أو التنقيب عن الماضي ووقائعه؛ من الدراسات العلمية والفنية التي تسعى بمختلف الوسائل لمعرفة وإحياء ثرات الأجيال السالفة؛ ومن جهة أخرى تقييم هذه الأحداث والعمل على فهم مسارها، والاهتداء إلى العناصر الفاعلة والمتفاعلة فيها.

لقد أكد العلامة ابن خلدون (المتوفى 1406/808) ومنذ وقت بعيد؛ على خصوصيات هذه الثقافة مؤكداً على أن فن التاريخ في ظاهره : «لايزيد على إخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى..».

وفي باطنه «نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفية الوقائع وأسبابها عميق...».

من هذا يظهر لنا فعلا مدى أهمية الباحث المؤرخ ودوره، ليس فقط في جمع المادة التاريخية - وهذا عمل أساسي - ولكن أيضا في كتابة وصياغة وتحليل تلك المعلومات، واستخلاص ما يمكن استخلاصه من الحقائق والنتائج.

من هنا تطرح الإشكالية من وجهتين :

أ - إمكانيات المؤرخ ومؤهلاته الفكرية والذاتية :

ويرتبط بهذا أيضا أدواته وتقنياته أو بتعبير أدق؛ منهجه في البحث والاستقصاء، والمقارنة والمواجهة والتعليل.. من هنا يكون التميز بين مؤرخ ومؤرخ وربما في معالجة قضية واحدة خلال فترة تاريخية معينة.

ما هو مؤكد؛ أنه بقدر تعدد هذه الذوات والمناهج، بقدر ما تصبح المادة التاريخية طيِّعة وغزيرة العطاء؛ وفي كل الحالات، فإن البحث التاريخي شأنه في ذلك شأن سائر العلوم والفنون؛ يمثل مشروعا يتنافس المختصون والمهتمون في إغنائه وتطويره وإقامة بنائه. وبقدر تعدد الأبحاث، وتنوع المناهج؛ تزداد الأضواء الكاشفة للزوايا والواجهات؛ بهدف التوصل إلى فهم موضوعي لهذا الماضي وثراته.

ب ـ المادة التاريخية : تشكل المادة التاريخية حقل ومجال عمل المؤرخ؛ فبقدر تنوع هذه المادة وغزارتها، تكون فرص المعرفة التاريخية أفضل... وتمثل هذه المادة كل مخلفات وشواهد الماضي، انطلاقاً من المنجزات العمرانية إلى الإنتاج الفكري في مختلف مجالاته الفنية والعلمية والأدبية، بل ومختلف التقاييد والسجلات والمراسلات التي تدخل في باب الوثيقة التاريخية.. ولا شك أن أهمية هذا الثرات هي التي تميز أمما عريقة في الحضارة، وأخرى لا تجد في ماضيها إلا الفلوكلور والميثولوجيا التي أبدع المؤرخ وعالم الاجتماع والأنتروبولجي الأجنبي في استنطاقها وتأويلها وفق منظور وثقافة خارجية، وبذلك ليس صدفة أن تجد هذه الشعوب إنها لا تعرف عن «تاريخها» أو ماضيها، إلا ما سمح لها به الآخر.

☆ ☆ ☆

ننتقل الآن إلى محاولة تطبيق الأفكار السالفة على واقع البحث التاريخي في بلادنا.

عندما يتكلم باحث في تاريخ المغرب عن هذا التاريخ وإشكالاته فإنه في الحقيقة يعرض خلاصة تجربته في هذا الميدان؛ مهما كانت هذه التجربة متواضعة.. وتعدد هذه التجارب وتنوعها؛ هو الذي سيفضي في نهاية المطاف إلى مشروع مدرسة تاريخية وطنية متكاملة وشاملة لكل قضايا الثقافة التاريخية في بلادنا... بيد أن من هموم المؤرخ الآنية جملة قضايا يمكن طرحها من خلال المحاور التالية :

1 ـ عبء الإرث الأجنبي أو ما يعبر عنه بـ«الكولونيالي» :

أشرت سالفا إلى سهولة المشروع الاستعماري ثقافيا في البلدان الفقيرة حضاريا؛ إلا أن الموقف يختلف بالنسبة للشعوب المثقلة بماض زاخر. خاصة إذا كان هذا الماضي عاش تجربة المساهمة في إغناء تاريخ البشرية كما هو الشأن بالنسبة لحضارتنا العربية المغربية... لقد استغل المفكر الأمبريالي الفراغ العلمي والفكري في هذه البلاد، ليتصرف في ذلك الثرات وفق نزواته وخدمة لأغراضه وأهدافه.. إيماناً منه بحقيقة مفادها : إن الاستسلام العسكري والسياسي إذا كان بالأمر الهين أحياناً؛ فإن الاستسلام الحضاري يتطلب مجهودا أكبر ووقتاً أطول.

لقد عمل هؤلاء على فهم هذا الثرات ودراسته في محاولة لرصد حركية وديناميكية المجتمع الفكري الذي أفرز هذا المجهود الحضاري... لأنه بهذا العمل يسهل استقطاب هذه الشعوب ماديا ومعنويا إتماما لحلقة الهيمنة في مفهومها الشامل.

لقد كان الفكر «الكولونيالي» متيقنا كل اليقين ـ أو على الأقل هذا ما حدث بأن التأثير الحضاري أطول بقاء من التأثير العسكري.. ذلك أنه إذا قدر له يوما أن يخرج من الباب، فإنه مطمئن إلى النوافذ العديدة التي فتحها في صرح هذا الثرات.

إن المسؤولية التي يتحملها المفكر في هذه البلدان؛ والمؤرخ أحد ركائز هذا التفكير؛ تبدو أكثر جسامة؛ لأنه موكول إليه مهمة إعادة كتابة هذا التاريخ وتصفية أجوائه مما لحق به من تشويه ودس؛ وفي نفس الوقت الاستفادة من الخبرة العلمية التي تكونت للآخر؛ لأنها الوسيلة الناجعة لفرز ما هو موضوعي وعلمي وما هو مقصود لأغراض وأهداف غير معلنة.

إن مختلف مظاهر الاستلاب أو الاستغراب التي تشهدها الساحة الفكرية في أفقها الواسع؛ تجعل كل طرح للقضايا

الحيوية محكوم عليه بالفناء العاجل أو المؤجل ما دام يقع خارج التاريخ بمفهومه الإيجابي المتطور.

2 ـ آفاق البحث العلمي :

أشير في البداية إلى دور المعاهد والكليات الجامعية، التي لها علاقة بالتاريخ والحضارة؛ وعلى رأسها كلية الآداب بالرباط، والتي كانت في الأصل معهداً للدراسات الاستعمارية... وفي عهد الاستقلال تحولت إلى أول مؤسسة جامعية تعليمية وطنية، كان لها فضل تعرف الشباب المغربي، شباب الاستقلال على قسم هام من تاريخنا الوطني والقومي.. لقد سهرت هذه المؤسسة بالدرجة الأولى على تكوين الأطر التعليمية، التي كان عليها أن تخلف المؤطر الأجنبي؛ أي تحمل مسؤولية تدعيم استقلالنا العلمي من خلال عمليتي التعريب والمغربة؛ لمساندة الاستقلال السياسي والاقتصادي.

إن تقييم تجربة ما يزيد على ربع قرن في مجال الدراسات التاريخية ببلادنا لا يتسع إليها المقام ولا المقال؛ سيما وأنها تدخل في الوقت الراهن مرحلة جد حاسمة ستتكشف أبعادها وخصائها في السنوات القليلة المقبلة، إلا أن هذا لا يمنع من تسجيل بعض النقط والملاحظات التقيمية.

أ ـ طبيعة التكوين الجامعي في مرحلته الأولى؛ والذي تميز بالسرعة والعمومية وعدم وضوح الرؤيا العلمية؛ وهذا بالطبع كان من تبعات الفترة التاريخية وخصوصياتها.

ب ـ ضعف التأطير والتخصصات في ميدان التاريخ أو العلوم المساعدة له؛ بحيث أن الأمر لا يعدو أن يكون محض اجتهادات شخصية احتلت فيها الترجمات عن المؤرخين والمفكرين الأجانب الحيز الأكبر.

جـ ـ ضعف الاهتمام بالتاريخ الوطني إلا في مجالات جد ضيقة...

د ـ شدة وطأة الإيديولوجية الاستعمارية في مجال الثقافة التاريخية شكلا ومضموناً.

هل تغير الوضع الآن ؟

هناك عدة معطيات إيجابية مستجدة غيرت وتعمل على تغيير وتجاوز ما كان سائدا خلال الفترة الأولى؛ والتي يمكن القول إنها استمرت حتى منتصف السبعينات، بعض هذه العلامات نبرزها من خلال النقط الآتية :

ـ إن استيفاء الحاجة للأطر المتوسطة؛ طرح ضرورة وضع أهداف واضحة للبرامج العلمية في المعاهد والكليات؛ وبالتالي يطرح قضية أولويات البحث العلمي بحدة بالغة.

ـ إن تعزيز الجهاز التعليمي وتوسيعه مؤخراً أدى إلى تبلور توجهات «مدرسة تاريخية وطنية» في طور النشوء؛ تعتمد مناهج حديثة ومتطورة في البحث والدراسة؛ والتي تتخذ كمنطلق لها كتابة تاريخ وطني من منظور داخلي اعتماداً على وثائق ودفائن الخزانات...

ـ تجاوز النظرة الأولية للتاريخ التي تقوم على الانتقائية؛ واعتماد منهج نقدي سواء تعلق الأمر بمناقشة الأطروحات والفرضية التي وجهت البحث التاريخي منذ مطلع القرن؛ أو من خلال تعاملها مع المخطوطات ومختلف المصادر الوطنية.

ـ تبلورت هذه المعطيات والمؤشرات من خلال مجموعة من المنشورات أو الأطروحات التي يوجد معظمها في خزانات الكليات دون نشر؛ والتي رغم قلة عددها، إلا أنها تحمل بوادر عهد جديد سيأكد في المستقبل القريب.

3 ـ التراث الوثائقي الوطني :

من المعلوم أن فترة الحماية شهدت عمليات تنقيب وجمع للعديد من المخطوطات والوثائق؛ وأن قسما لا يستهان به من هذا التراث يوجد خارج البلاد؛ سيما وأن موقع بلادنا على الخريطة الجغرافية وحضوره على الساحة التاريخية؛ يجعل منه بلدا مشاركا لبلدان أخرى في قسم هام من التراث؛ وهذا ما أظهرته مثلا أعمال. هـ. دوكاستري عن المصادر الدفينة في التاريخ المغربي.

وبعد الاستقلال بذلت محاولات جادة وهامة لجمع تراثنا التاريخي وتسهيل الاستفادة منه من ذلك جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق والتي ساهمت في الكشف عن العديد من الدفائن والنوادر.

ومن ثم يطرح مشكل المكتبات الوطنية بشكل ملح؛ مما يستوجب إحداث جهاز مختص من الأساتذة والفنيين والمهندسين في ميدان الإعلاميات وعلم التوثيق للسهر على تنظيم الخزانات تنظيما ينسجم مع متطلبات ومكتشفات العصر، من ذلك تسهيل عمليات التصوير والاستنساخ وإنتاج الأفلام الوثائقية والتي يجب أن تزود بها سائر المكتبات والخزانات الجامعية في مختلف المدن الكبرى التي توجد بها معاهد وكليات مختصة.

إن الدراسات البيبليوغرافية التي صدرت في الآونة الأخيرة؛ توضح فعلا ما تزخر به مكتباتنا من دفائن كمّاً وكيفا؛ مما يستوجب وضع برنامج علمي وعملي في إطار معهد أو مركز وطني للمخطوطات والوثائق.

إن المعروف من هذه الخزانات يتمثل في المكتبات المشهورة مثل خزانة القرويين بفاس، ودار الوثائق والخزانة العامة بالرباط، والخزانة الملكية الحسنية بالرباط أيضا؛ وخزانة ابن يوسف بمراكش وخزانات أخرى في كل من مكناس وتطوان وسلا. بالإضافة إلى عدة مكتبات خاصة وعائلية مثل خزانات الأسر الصوفية المرابطية، والأسر العلمية والأسر المخزنية؛ وهي خزانات يكاد يكون انتشارها يغطي كل التراب الوطني مدنه وبواديه، جباله وصحرائه كتأكيد على ما عرفته الحياة العلمية عبر التاريخ من إشعاع وشمول على اعتبار أن ثقافتنا الإسلامية العربية لعبت دورا بارزا في لم عناصر المجتمع وتجاوز معطيات التجزئة والانشقاق.

وكخلاصة لما سبق يمكن القول :

إن نهضتنا الثقافية والعلمية - والتي منها ميدان التاريخ أصبحت واقعا ملموسا؛ وأن ما يشوب ساحتنا الفكرية من تشويش وضبابية أحياناً؛ لا يمكن أن نجد له تفسيرا أو تعليلا إلا من خلال موقعين :

- موقع المفكر والفكر العربي عموماً كامتداد لواقع حضاري وثقافي له أبعاد إنسانية تضرب في عمق الماضي السحيق.

- موقع التعامل مع الطفرة الحضارية المعاصرة؛ بين الانجذاب والمحافظة على الخصوصية والهوية.

ومن ثم يصبح كل اهتمام بإحياء الماضي وتفهم عناصره جزءاً لا يتجزأ من مشروعنا في اتجاه المستقبل.. هذا المستقبل الذي نشارك العالم المعاصر مخاوفه منه؛ بالإضافة إلى هاجسنا الخاص المتمثل في ضرورة الحضور الفعلي فيه.



علمتنا كيف الفداء يكون

للشاعر عبد الواحد السلمي

كلما أشرقت شمس يوم 20 غشت إلا وتطالعنا تلك الصورة القاتمة لرمز الجهاد ومحرر البلاد جلالة المغفور له الملك العظيم والقائد المخطط والزعيم = مولانا محمد الخامس طيب الله ثراه = هزبراً مقداماً عشق الحرية وعاف الاستعباد، فباع لذاته من أجلها. وضحى بالراحة وآثر طريق الجهاد، وللحرية ثمنها ونضالها، كوكباً وقادا تحيط به دراريه اللامعة، وقد توسط الصورة الطاغية وشيعته من دعاة الشر والمكر والقهر...

تلكم ذكرى ليوم أراد به الاستعمار القضاء على روح المقاومة ببلادنا. وأراد العلي القدير أن يكون فاتحة عهد لانطلاقنا وحريتنا.

فإحياءً لهذه الذكرى الجليلة كان ميلاد هذا القصيد :

نـاضلت يـا ابن الأكرمين ... فحميتنـا دنيـا ودين

خلـدتنـا : خلـدت في التـاريخ يـا ابن الخـالـدين

ورفعتنـا حتى امتطيـنـا ذروة المجـد الحصين

وجلـوتنـا للنـاس شعـبـاً للعـدى لا يستكين

قلـدتـه المنن التي ... أبقتـه مرفـوع الجبين

أذكيت همتـه فتـا ... ب يحن للمجـد الـدفين

علمتـه كيف الفـدا ... ء يكون بـالغـالي الثمين

وفـــديتـــه بـــالتـــاج بـــا لروح الكريـــة : بـــالبنين
فبرزت شهما مـــالـــه في هـــذه الـــدنيـــا قرين
وبـــك اقتـــدى فغـــدا يســـا رع للمعـــالي في حنين

☆ ☆ ☆

للـــه يـومـــك بين أيـــا م الملـــوك بـــلا شبيـــه
أقبلت فيـــه على دعـــا ة البغي : سلطـــانـــا تتيـــه
طـــأمنت من زهـــو = الأشـــل وشيعـــة البـــاغي الكريـــه
جرثـــومـــة الخـــزي المسر بـــل بـــالخنـــا الفـــدم العتيـــه
ودعـــــاة الاستعمار لا يمشـــون في الركب النزيـــه
أعرضت عمن خـــالفـــوا نهجـــا قـــويمـــا ترتئيـــه
ومضيت في شمم إلى النسر المجنـــح تمتطيـــه
ووراءك الأمـــراء تحـــ ـــت رعـــايـــة البطـــل الشبيـــه
هـــل ينجب الشهم النبيـ ـــه سوى الفتى الشهم النبيـــه ؟

☆ ☆ ☆

وتـــــأوه الشعب الأبي لطعنـــة الـــوغـــد الحقير
ديست كرامتـــــه فهب وزمجر الأســـد الكبير
وتســـابـــق الشهـــداء للـ ـميـــدان يفـــدون الأمير
وبـــدا = ابن عبـــد اللـــه = في الأبطـــال مشبـــوب الضير
يمنـــاه تطعن بـــاسر الـ ـــوجـــه العميـــل المستجير
فتلعثم الجبـــــار معـ ـتـــذرا كا استخـــذى الـــوزير
والفـــدم طـــأطـــأ صـــاغرا ويـــلاه جـــاءكم النـــذير !
قطفت رعـــودا لـــلانتقـــا م : فـــزلـــزلت قـــدم المغير
وتسلـــح الريف الأشم فكان تقرير المصير

☆ ☆ ☆

وتنفس الصبــــــــح الجميـ　　ـــل، وأشرقت شمس الرجـــاء

فـــإذا الـــدنيـــا، بشر، وتغـ　　ـريـــد، وشعر، وانتشـــاء

الطير يصـــدح، والـــورو　　د تفـــوح، والعيش رخـــاء

لاهم بعـــد اليـــوم يـــا　　قـــومي : أنـــا حـــامي اللـواء

وتـــابـــق الأحرار للـ　　ـمـذيـــاع هـزهم النـــداء

فـــإذا الإمـــام الخـــامس الـ　　ـفـذ المفـدى بـــالـــدمـــاء

في هيبـــــــة الأبرار تعـ　　ـلـوه المهـابـــة والبهـــاء

يـــدعـو رعـــايـــاه بصـو　　ت رد للـــدنيـــا الهنـــاء

يـــا للمحبـــة... كيف تعـ　　ـبث بـــالقلـوب كما تشـــاء

يـــا للـــوفـــاء وسحره　　لبيـــك يـــا رمـز الفـــداء

☆ ☆ ☆

للـــه يـومـــك في تـــألـ　　ـقـــه على الأيـــام طرا

أضحى لنـــا عيـــدا فخلـ　　ـــــد ذكره : نثرا وشعرا

نحيي بــــه أمجـــادنـــا　　فـــاعجب لمـــا قـــد ســـاء سرا

ذكراه بـــــــالأمس القر　　يب تـوقـــد الأحشـــاء جمرا

واليـــوم تجعلنـــا نشـــا　　وى غـــلأ الأيـــــام فخرا

رام العـــدى ترويعنـــا　　فيـــه، ورام اللــــه نصرا !

مـولاي يـــا حسن الصفـــا　　ت : لقـــــد تحملت الأمرا

شـــاطرت والـــدك العظيـ　　ـم حيـــاتـــه عسرا ويسرا

عجبي لنفي واغترا　　ب، رد الاستقـــــلال قسرا

رحم الإلاه أبـــــاك ولـ　　ـتسلم لنـــا ردءا وذخرا

وليحفـــظ الرحمـــان دو　　لتكم، ويبقيـــــك الأبرا



صـــاح، ردد روائـع الإنشـــاد،   في جلال الـذكرى، وحي بلادي !

ثم خلـــد مــلاحم الثـورة العظـ   ـمى، وثــابر على فصـول الجهـاد،

وتـــأمـل إيمـــانـنـــا بحقـوق   عرفت بـالتعليـق بعض الكســاد

لم تـدم جـولـة الفســاد، ولكن   هب صـوت للمستغيث الصـــادي

فـأقـام الـدنيـا وأقعـدهـا الحـ   ـق، وبـارت مكايـد الأوغـاد !

إنهـــا ثـــورة لعرش وشعب،   أخلصـا في صيـانـة الأمجـاد،

إذ همـا في الكفـاح حصن حصين،   يستميتـــان في أعــز اتحـــاد !

لم تنل منهما زعـازع الغـدر، كـلا !   أبـدا ! تلـك نخـوة الأسيـاد !

جــذوة الفـــاتحين ترفض إخمـــا   دأ، وتـأبى الرقـاد تحت الرمـاد !

من جـذور التـاريـخ يشمخ دوح   لمليـك فـذ، وشعب فـادي !

لم تكن تلكم (الحمـــايـــة) إلا   فترة للتعليـــق، لا للتمـــادي !

همـة العرش تلهم الشعب درسـاً،   بـــه يمحـو الأحرار كل ســواد

وانقطاع الصلات لم يكن، حاشا !   بـل تـوالت أواصر الآبـــاد

كلنـا في التحرير، في مقاومـة البغـ   ـي دوامــا من أخلص الأجنـــاد

مستمرون نحن قبـلا وبعـــدا،   في أصـالاتنـــا، ونهـج الرشـاد

فعروق الإبـــاء منـــا إلينـــا،   جعلتنـــا نصـد كل اضطهـــاد

نحن شعب له عناصر مجد … راسخ، صار كعبة القصاد،

وبما نحن نرتضي من سلام، … ثار حقد الأشرار والحساد !

نحن نرعى الجوار إذ نتحاشى … موبقات التمزيق والأحقاد !

ما نسينا للعرش ما هو يسدي … من صنوف النعمى وبيض الأيادي !

تتوالى منه المواقف في نهـ … ـج سداد، وحكمة، واتئاد !

بمعاني الذكرى أحلق زهوا، … فكأني أطير في منطاد !

في انتقاد للذات نحيا أباة : … فلكم يكمل الهدى بانتقاد !

شعلة في يد المكارم تعلو، … وتوالي توهجا في اتقاد،

هكذا نحن في القريحة، جيلا … بعد جيل في درسنا المستفاد

ما نسينا في الملتقى (ابن نصير)، … لا، ولا في عبورنا (ابن زياد) !

وروابي (الجولان) قد عاد فيها … بأسنا، في براعة الإعداد !

كم أغثنا أخاً شقيقا، وقلنا : … نحن نحمي الذمار يامن تنادي !

قد سعينا ـ للخير، يا حبذا السعـ … ـي بوعي، وصحوة، واجتهاد !

وشجبنا استعباد كل دخيل، … وانتزعنا جذور الاستبداد :

في ثبات، وهمة، وصمود، … نحن عند اللقاء كالأطواد !

في سجل الأمجاد، ماذا عساني … أن أوفي، وأن يخط مدادي ؟!

قد ضربنا الأمثال شرقا وغرباً، … واكتفينا بذاتنا في ارتياد،

ليس أشهى للعين والأذن طبعا، … في علانا من الحديث المعاد !

بارك الله دائما أمة الخيـ … ـر، ففيها للذات أقوى استناد !

قد رفعنا الصروح دينا ودنيا، … وأقمنا في الكون زاد المعاد،

إذ نخوض الجهاد، إما لنصر، … أو لتكريمنا بالاستشهاد !

من أراد الحياة هب إليها … بتفان، وعاشها باطراد

همة الحر تلك فوق الثريا، … تتسامى من فوق سبع شداد

ومن اعتاد رفعة وصعودا، … بلغ الأوج في أعز اعتياد

ومن اعتد بالضمير، وبالوعـ … ـي، فإن الوجدان خير اعتداد

يسكن النسر قمة، فتراه … ليس يخشى قذائف الصياد

ومن (الأطلس) الأشم، من (الريـ … ـف) إباء الآباء في الأولاد :

هكـذا شيمـة المغـاربـة الغـ ـر، أعبر الأبطـال والأسيـاد !
كم هـدينـا، وكم فتحنـا قلـوبـا، عرفت قـدرنـا بـالاستعـاد !
من (رباط الفتح) الفتوح توالت، فهـو للمكرمـات أوسـع نـادي !
دمنـا قـد محـا الفـواصـل منـا، فـاقتربنـا منـدون أي ابتعـداد !
لـوحت دوحـة السـلام اعتزازاً، في ربـانـا بغصنهـا الميـاد !

☆ ☆ ☆

حبـذا، حبـذا مليـك طمـوح لفنـون الإبـداع والإيجـاد !
إننـا أوفيـاء قـولا وفعـلا، في ولاء، وبيعـة واعتقـاد :
منـذ (ادريس) والمـلاحم تترى، وهي تـزهـو برائـح، أو غـادي
حلقـات في إثرهـا حلقـات، من جهـاد صعب مرير القيـاد !
لم يخف من من مثبـط في مسـار بـه جمر الغضـا، وشوك القتـاد :
بانتصـار (الزلاقـة) انسحق الكفـ ـر، ورهـط الصلبـان والإلحـاد
و(ابن تـاشفين) للكرامـة يمضي، ويلبي للـه صوت المنـادي !
وبـوادي المخـازن، ازدهر الحـ ـق، وبـادت مطـامع الجـلاد !
وبـأنـوال منطـق الـدهر يروي قصـة من بطـولـة الأجـواد
ونرى الأطلس المجـاهـد يحكي لجبـال الريف اتصـال الجهـاد
فبـلادي على الـدخيـل حرام، لم يـزل قلبهـا رفيـق السهـاد :
أبـدا مغرب البطـولات يـأبى أي قيـد لغـاصب، أو عـادي !
إننـا أمـة يـوحـدهـا القر آن طبعـاً، وتـزدهي بـالضـاد !
كلنـا في في حـواضر وبـواد، ننتمي لـلأوطـان في الإسنـاد !
في إخـاء نمضي إذا حـزب الأمـ ـر، ولا نرتضي فلـول الفسـاد !
رمزنـا (الخامس) المنـاضل حقـا، من تحدى بالصدق كيد الأعادي !
فهـو تـاج الأحرار قـدرا وجـاهـا، زاد قربـا في النفي والإبعـاد !
وبـه الفجر لاح فـوق بـلاد، مـؤذنـا للخـلاص بـالميـلاد !
كلمـا طـاف طـائف من بـلاء كان تكريس بـأسنـا في ازديـاد :
مغرب العـز كان دومـا ويبقى جيش صـون لمجـده المستعـاد !

ورصيد التاريخ أثمن كنز،   كلنا في حماه بالمرصاد
وطنيون نحن في الحكمة المثـ   ـلى، نباهي بغيرة الآساد
ورباط الوجدان رمز سلوك   وحدوي في عزمنا الوقاد !
يشهد العالمون في كل صقع   أننا دائما على استعداد
ومن الله قد حمتنا جنود،   وتوالت روافد الإمداد !
إن تاريخنا يدل علينا،   في المساعي... أكرم به من زاد !
فالمعاني في الاتصال تجلت   مشرقات بروعة الأشهاد،
والتقاليد ثابتات بحرص   وطني يهد كل العوادي !
قد قطعنا (عهد الحماية) نفني   بقراراتنا صنوف العناد.
إنما ذلك الترابط فينا   خير حل لمشكل الأضداد :
وطن الوعي قد تحدى خطوبا،   وعلى الله فيه أقوى اعتماد،
فالحضارات والثقافات تزهو   في رباه، من أمهر الرواد
والقيادات نحو كل جليل   فيه تزهو بأحكم القواد !
باجتهاد، ونخوة لا تضاهى   قد كسبنا التقدير بين العباد،
وربحنا انتصارنا بامتياز،   في ثبات على العراك الجلاد :
قد فدينا أمجادنا في سخاء   بنفيس الأرواح والأجساد
ونوالي في الله حقا وصدقا   من نوالي، وفيه أيضا نعادي !
والمواثيق بين عرش وشعب،   حركت بالتوحيد قلب الجماد !
ثقة المؤمنين بالله كانت   لهمو في الوجود خير عتاد !

☆ ☆ ☆

أرضنا للهدى مهاد، وفيها   للسلام المنشود أقوى عماد :
وحدة للكيان حسا ومعنى،   حيث عزت عيوننا بالوادي
والجيوب الأخرى ستأتي، ففيها   يكمل الشعب بهجة الأعياد
جمع الحب شملنا في بطاح،   وجبال، وأنجد، ووهاد !
غدنا مثل أمسنا في انتفاض،   ومسيراتنا حديث النوادي :
منذ كنا، ونحن ثورة خير،   ونماء في دولة الإسعاد

فالأمانات والوصايا توالت من ذكاء الأجداد في الأحفاد
وشباب البلاد باق، ففيه كوثر الفضل ما له من نفاد !
والأصول الفروع ضمت رصيدا، لا يضاهى، من طارف وتلاد،
في ضمير الأجيال جذوة نور منهمو، لا تنساق للإخماد :
كلما جد للمنادي نداء، سمع الكون رعشة الأكباد !!!

☆ ☆ ☆

ها هنا أو هناك منا وجود مستمر الإصدار والإيراد !
كلنا نقتدي إماما شجاعاً، صادق الوعد، ناصع الإرشاد !
منذ فجر التاريخ كنا أباة، وبناة للمجد ذي الأوتاد !
حسنات التكوين في (الحسن الثا ني) بها بز أجمع الأنداد :
تلكم النظرة العميقة منه أنبأتنا عن طبعه الجواد !
في جلال السجود تدعو بنصر له طبعا ضمائر العباد !

☆ ☆ ☆

شغلنا الشاغل الصعود إلى الأو ج، وكسر الأغلال والأصفاد
ها هنا العهد مستمر، فها نحـ ـن استجبنا لروعة الميعاد !
كل لحظ إمدادنا يتجلى في انقياد إلى الضياء الهادي !
في جمال التشريف بالوحدة الكبـ ـرى جلال الجموع والأفراد :
بانسجام للذات خير ضمان لبقاء في عزة وسداد !
حفظ الله تاجنا (الحسن الثا ني)، ففيه نزهو بنيل المراد !
ولتدم دولة الجهاد، ففيها أطربتني حلاوة الإنشاد !

المجاعة وغزو الفضاء

للشاعر المدني الحمراوي

المـال في غـزو الكـواكب يـذهب ... والأرض من هـول المجـاعـة ترهب
عجبـا لـذاك المـال لا يفنى لـه ... مـدد، ولا - يـومـا - معينـه ينضب
لم ييـأسـوا من بـذلـه في خطـة ... عميـاء ليس لهـا مـال يعجب
جنـوا بهـا، فكـأنهم في سكرة ... أعمت بصـائر عن صـواب تحجب
يـا من تطلـع للغيـوب وسرهـا ... سر الغيـوب إذا طلبتـه متعب
في واقـع متشعب متعثر ... شغـل لنـا متـأكـل مستصـوب
نـأسـو بهـا دنيـا يئن جنـوبهـا ... من فقره، وشمالهـا متـألب
آلاتـه لا تنتهي حركـاتهـا ... فهـديرهـا في كـل حين يصخب
تبني وسـائـل للخراب خطيرة ... وتبث سما شره متغلب
قـد لـوث الجـو النقي ولم يـزل ... بـالأرض حتى أصبحت تتصلب
لم يبـق للغـابـات فيهـا رونـق ... قـد كـان ينعش جـونـا ويطيب

☆ ☆ ☆

يبست خمـائلهـا، وصـوح نبتهـا ... واغبر مربعهـا النضير المعشب
وجـداول الأنهـار جف معينهـا ... والطير من تلـك الخرائب يهرب
يـا هـول مـا جنت المصـانع عندمـا ... طلب الأنـام بهـا ثراء يكسب
داء يعـز دواؤه في عصرنـا ... يـاليت شعري في غـد مـا يعقب
صـار الأنـام عبيـد آلات لهـا ... في كـل صقـع ضجـة وتلهب

نعم من الإنتـــاج تخفي خلفهـــا ... نقمـــا تكـــدر عيشنـــا وتكهرب
بـــات الفقير بهمـــه متسهـــدا ... والجـوع ينهـك جسمـه ويـــذوب
في كـل يـوم للمجـاعـــة فتكـــة ... تـوهي نفـوسـا في الجنـوب وتسلب
أمم يهـــددهـــا الفنـــاء ولا ترى ... غـوثـــا يخف، ولا حقـولا تخصب
والنـــاس في ذاك الشمـــال كـلابهم ... بلـــذائـــذ العيش الرغيـــد تربب
ذهب الثراء إلى هنـــاك بحيلـــة ... دهيـــــــاء لا تبقي، ولا تترقب
فكـــأن شيطـــان الـــدهـــاء يعينهم ... وكـــأنمـــا الـــدنيـــا إليهم تنسب
فعليهم الآمـــال تعقـــد وحـــدهم ... وعليهم التكـــلان فيمـــا يحسب
تجبى إليهم ثروة الـــدنيـــا فـــلا ... يبقى لغيرهم النصيب الأنسب
يتنعمـــون هنـــاك كيف يروقهم ... بـــدمـــاء شعب في الجنـوب تصبب
ويرون ذاك حضـــارة لكنـــه ... جشـــع وحقـــد مضرم وتعصب

☆ ☆ ☆

يـــا ويـح سمراء الجنـوب ينـوشهـــا ... جـوع، ويحرقهـــا تراب مجـــدب
ذبلت نضـــارة عيشهـــا، ورعـــاتهـــا ... في فتنـــة حلقـــاتهـــا تتشعب
يتـــوءبـــون كـــأنهم في ملعب ... والنـــاس من شطحـــاتهم تتعجب
وعـــدوهم يعطي سـلاحـــه سلعـــة ... وينـــال كنـــزهم النفيس وينهب
وجنـوبهم يشقى بـــأفظـع عصبـــة ... تنفي وتقتـــل من تشـــاء وتضرب
بيض الجلـــود قلـــوبهم مســـودة ... ولصـــوص أوطـــان تعين وتسلب
جـــاءوا جيـــاعـــا معـــدمين أذلـــة ... فـــإذا بحـــال مجيئهم يتقلب
وثبـوا على حكم البـــلاد بحيلـــة ... خلف البحـــار لهـــا ذيـول تسحب
عصبيـــة الألـــوان فيهم علـــة ... تـــزري بفكرهم المريض وتشجب
زعمـوا ضـلالا لفقـوه حضـــارة ... ولهـــو أحقر مـــا يكـــون وأخيب
إن الحضـــارة ذمـــة ومروءة ... وعـــدالـــة وتكـــافـــل وتحبب
لا نـــزعـــة عرقيـــة دمـــويـــة ... سنت شعـــارا يعتـــدي ويخرب
الغرب كـــان ومـــا يـــزال زعيمهـــا ... فيهـــا يكـــد ويستـــزيـــد وينصب

☆ ☆ ☆

يـــا قـوم لا تخفـوا نيـات قـد بـدت ... أسرارهـــا، وغـــدت تـــذاع وتكتب
إنـــا بلـونـــاكم: فكنتم فتنـــة ... تلهـو وتمكر بـــالشعـوب وتلعب
مـــاذا لقينـــا من تعنتكم ومن ... شطـــط على أحـــلامكم يتغلب
فلعلنـــا نعلـو وتخمـــد نـــاركم ... ويقـول قـــائلكم أغث يـــا يعرب

فلِمَ الرّيث؟ وماذا ننتظر؟

للشاعر عبد الكريم التواتي

عبق الوصل بأحلام المنى ... فاختلسناها، وبادرنا العمر

وهصرنا من جناها باقة ... أقعمت أحناء قلبينا بعطر

ومضينا ـ والدنا ملك لنا ـ ... نقطع الدرب، ولا نخشى الغير

وليالينا مضت في إغفاءة ... والهوى العذري نجوى وسمر

وتشابكنا الأيادي قيما ... بارك النجم دعاه والقمر

ووعاه الليل سرا، بثّه ... قلب صب دنف لا يزدجر

قد وعى إسراره من لا يعي ... من دناه غير حب مستعر

فإذا أحناؤنا أغرودة... ... رجعت دغدغة الشوق الأشِر

وإذا العمر ربيع والمنى ... مغريات، وورود وزهر

☆ ☆ ☆

وانتشت من صفونا أرجوحة ... وقعت رقصا تملاه الوتر

وشداه الطير شعرا ريقا ... ردد الروض غناه.. والشجر

الروابي الهاجعات استيقظت ... شاقها اللحن الندي المزدهر

قد سباها ما رأت من حبنا ... فشذاها من هوانا منبهر

☆ ☆ ☆

واحتوانا الليل في غيهبه ... وسقانا في صفاء كأس خمر

ووددنا إذ سكرنا أننا ... قد غفونا في حميا تستمر

ونبذنا جانبا عذالنا ... ونسينا ساعة سود الفكر

وسبحنـــا في متـــاهـــات الهـوى ... لا نرى شيئـا سـوى عـذب الـذكر
فـإذا الـدنيـا ثـواني لحظـة ... ليس فيهـا ـ لسـوانـا ـ من أثر
وغرقنـا في حميـا قُبـل ... جـاهلين الكـون : دنيـا وبشر
وثملنـا بعنـاق مسكر ... متنـاسين تعـاسـات القـدر

☆ ☆ ☆

لا تعيري الـدهر أو أحـداثـه ... أي هم، ودعيـه يـأتمر
وتعـالي نغتنم غفـوتـه ... فغـداً تفجـأنـا منـه غير
وغـدا نمضي على غير هـدى ... وإلى حيث مضى من قـد غبر
وغـدا نـندب من أحـلامنـا ... مـا أضعنـا وسكبنـا من عبر
والمنـايـا حـوم من حـولنـا ... وهي لا تبقي علينـا أو تـذر
والقضـا حتم، وعمرانـا لنـا ... والمنى خلسـة فكر ونظر
فلم الريث ؟ ولم لا نغتنم ؟ ... فرص الآمـال ؟ والعمر يمر ؟

☆ ☆ ☆

لا تقـولي : أسحر العمر، فمـا ... سر هـذا العمر إلا في السحر
لا ولا تنتظري ليـل غـد ... فغـدا أحـداثـه قـد لا تسر
وغـدا، وهم يعني وأسى ... وابتسـامـات سراب ينتحر
والأمـاني : خـدع أهـواؤهـا ... وحيـاتـانـا : خيـال وصـور
والبرايـا رمم منهـوكـة ... ودمى تقـذفهـا أيـدي القـدر
وكـلانـا في غـد أحـدوثـة ... مـالهـا في الكـون شـأن أو أثر
غير أوهـام وبرق خلب ... وأكـاذيب تبنـاهـا البشر
وخيـالات وجـود ضـائـع ... في خضم من أمـان وفكر
هي أشبـاح أمـانينـا التي ... خنقتهـا ذكريـات تحتضر
ذكريـات والعمر بنـا.. ... يسرع الخطـو لأمر قـد قـدر
هـو أمر لسنـا نـدري كنهـه ... فلم الريث ؟ ومـاذا ننتظر ؟

كلمة حول 20 غشت

للأستاذ عبد السلام جبران

بسم الله الرحمن الرحيم.

إن للذكريات أغراضا شفافة في عدة مناسبات ومن أقدسها ذكرى 20 غشت، فلها وحدها أكثر من معنى، وتوحي من جوانبها بأكبر مغزى، إذ هي ذكرى تجسد التلاحم الحاصل بين الشعب المغربي النبيل، وبين العرش العلوي المجيد الجليل. تتجاوب فيها المشاعر وتتخابر فيها الضمائر، وتتحمس فيها من جديد الدوافع والعواطف، ويبدو جليا وسط مرآته الصافية أعظم صور لأنواع التضحيات، وأعظم صور لما تحقق من الرغبات، وأعظم صور لدواعي وحدة الصف في ميدان المواجهات. ذكرى لها وقع كبير في نفوس المواطنين، مرت عليها سنون ولكنها لا تنسى أبدا، إذ هي ذكرى منقوشة على أفئدة الشعب، وماثلة بين أعينه. إن اعتلاج الآمال والآلام وتضاربهما في ذلك اليوم لاعتلاج أليم، وتضارب عظيم؛ إذ هو يوم امتدت فيه الأيدي الأثيمة إلى أعظم المقدسات؛ امتدت بدون خجل ولا حياء إلى جلالة الملك محمد الخامس رحمه الله، وإلى أسرته الكريمة بما في ذلك آنذاك ولي عهده جلالة الملك الحسن الثاني، وقد كان مساعده الأول وعضده الأقوى في سائر ما يدفع عجلة التحرير إلى المسير.

وقد كان غرض المستعمر الغاشم أن ينزع من القلوب فكرة الحرية والاستقلال، ويحول دون تحقيق المطالب الوطنية المشروعة يبث ألغامه في الطريق. ويضع عوائقه وبوائقه. لكن كانت عاقبته أن باء بالفشل الذريع (وفي طي كل نقمة نعمة)، كان ذاك أكبر حافز لاندلاع ثورة الملك والشعب، تلك الثورة التي أودت بكثير من المواطنين الأحرار. وكان قائدها الأول وبطلها الأوحد مولانا محمد الخامس رحمه الله، إذ هو الذي أطلق الضوء الأخضر نحو طريقها المسلوك، لإحقاق الحق، وإبطال الباطل، **(ليهلك من هلك عن بينة ويحي من حي عن بينة)**، وأوصى شعبه الوفي بأخذ الحذر وملازمة الوعي والتبصر. والاعتصام بالصبر والصمود أمام تلك الاعتداءات حتى يأتي أمر الله. وقد وقف مضحيا بأسرته وراحته وقفة حاسمة في تاريخه الذهبي، فواصل السير حتى حقق الأمنية الغالية التي هي إنقاذ بلاده وشعبه ووطنه من بين مخالب الاستعمار، وقد أطلق كلمته المدوية في الآفاق حيث قال : (ما ضاع حق وراءه طالب) فاستمع لها الشعب بأسره، وانشرحت لها الصدور، وانفتحت لها الآذان، فبرهن على المثالية والكمال في الثبات على

المبدإ الصادق يتحدى طغيان العتاة المتمردين. حيث قال : أقول لكم كما قال جدي رسول الله ﷺ. (والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري لأترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أموت دونه).

وهكذا همة الرجال تهدم الجبال. فالثقة بالله، والإيمان بالحق أمران يصنعان المعجزات، وهكذا قطع محمد الخامس رحمه الله وبجانبه ولي عهده تلك المراحل العظيمة التي سجلها التاريخ بمداد الفخر والاعتزاز على صفحات الخلود. كل مرحلة منها تحتاج إلى بيان ضاف وسطور طوال، وقد تولت الأقلام شرحها في الصحف، وكتبت عنها الشيء الكثير سارت بها الركبان، وطارت بها الألسنة على أجنحة الأثير في سائر البلدان، مما يضيق عن ذكرها في هذا المجال نطاق البيان. نعم ماذا كانت خاتمة المطاف ؟ كانت أن عاد محمد الخامس من منفاه إلى وطنه العزيز مرفوع الرأس عاليا معززا مكرما، مفدى بالمهج والنفوس والأرواح، حاملا بين يديه راية الحرية والاستقلال، فشكر الله على إتمام نعمته عليه قائلا في أول خطبة خطبها بعد عودته الميمونة (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور) ثم قال بعد ذلك قولته المشهورة : رجعنا من الجهاد الأصغر لنجتهد الجهاد الأكبر. فكان ذلك لبناء صرح المستقبل أول توجيهاته الرشيدة وتخطيطاته الحميدة.

الله أكبر جاء الأجل المحتوم، فأجاب داعي ربه، فتولى الأمانة بصدق وإخلاص وعن جدارة واستحقاق شبله ووارث سره جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله، فتقمص تلك الروح النضالية وذلك الاستعداد المستميت. وتقدم فورا للجهاد الأكبر المتواصل. يوالي فيه الليل بالنهار ووراءه شعبه الوفي؛ كلما دعاه لتحقيق المطالب والمكاسب، ولصيانة الوحدة الترابية أجابه سريعا، ولباه، وحزم الأمم دائما على قدر حزم قاداتها، وفي تاريخنا المعاصر (والتاريخ أصدق شاهد) سلسلة لا متناهية من المنجزات العظام تدل على حزم قائدنا الملهم جلالة الملك الحسن الثاني في تسيير شؤون أمته والتقدم بها إلى الأمام في كل خطوة يخطوها في جميع الميادين. ومن أهم خطواته الكبرى أن صنع المسيرة الخضراء لتحرير الصحراء، وأن تابع السير في وحدتها. حتى وصل العيون بأجفانها، وجمع بين أطرافها، وألحق سائر الفروع بأصولها. وكشف بزيارته القناع عن حقيقة أمرها. والحقيقة دائما تدافع عن نفسها. فالتأم الجرح، واجتمع الشمل، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.

أيد الله ملكه، وخلد في الصالحات ذكره، وأقر عينه بولي عهده الأمير الجليل سيدي محمد، وصنوه مولاي رشيد وسائر أفراد أسرته النبيلة. وأغدق شآبيب الرحمة على والده المقدس جلالة الملك مولانا محمد الخامس رضي الله عنه، وأنزل وابل رحماته على أرواح شهدائنا الأبرار الذين سقطوا في ميدان الشرف في الليل والنهار إنه على كل شيء قدير. وبالإجابة جدير. والسلام عليكم ورحمة الله.



عودة لعودة يوسف بن تاشفين

للدكتورة عصمت عبد اللطيف دندش

أثار مقال «عودة يوسف، بن تاشفين»، في العدد الماضي من مجلة دعوة الحق العديد من التساؤلات والاستفسارات، مما دعاني إلى معاودة البحث بعمق أكثر في بعض النقاط التي أثيرت، ومع أني وضحت بعضا منها خلال بعض المكالمات الهاتفية أو مباشرة في الكلية، فإني وجدت أن تكون الفائدة عامة خصوصا بعد أن توصلت برسالة من أستاذنا العلامة الدكتور عبد الهادي التازي، والتي طرح فيها أكثر من علامة استفهام، فرأيت أنه من الواجب علي أن أعاود القراءة والبحث حتى أستفيد أكثر من الاستفسارات التي أثيرت، ويستفيد معي من يهمه أمر هذا الموضوع.

ونظرا لضيق الوقت لكتابة مقال آخر مفصل فأكتفي بالإجابة على بعض التساؤلات، على أن أنشر رسالة يوسف ابن تاشفين إلى صاحب قلعة بني حماد في عدد تالٍ إن شاء الله، محققة ومعززة بشيء من الدراسة. وسأقتصر في هذه السطور على تركيز الضوء على بعض الأحداث التي أراها ـ حسب معلوماتي المتواضعة ـ من الأهمية بمكان. وأرجو ممن يرى إضافة شيء إلى هذا الموضوع أن يدلي بدلوه، حتى تكون الفائدة عامة، وفوق كل ذي علم عليم.

من الملاحظ أن يوسف بن تاشفين لم يعبر إلى الأندلس إلا بعد إلحاح متواصل من قبل أمراء وفقهاء الأندلس، وكان رده على وفودهم حتى يوحد بلاده ويستكمل هذه الوحدة بفتح سبتة وطنجة[1].

فالأوضاع في العدوة لم تكن توحي بالاطمئنان، كما أن الأوضاع في منطقة البحر المتوسط عامة لا تبشر بخير.

وسوف أستعرض باختصار بعضا من هذه الأمور، بالإضافة إلى ما سبق أن ذكر في المقال السابق.

إن ترجيح رجوع الأمير يوسف بن تاشفين بعد الزلاقة لأسباب عائلية يكون فيه بعض التحفظ خصوصا بالنسبة للأمير يوسف الذي كان يرى في الجهاد ووحدة البلاد ومحاربة البدع الهدف الأول.

---

1) ابن أبي زرع : روض القرطاس، ص 142 ط، دار المنصور 1973، ابن بسام : الذخيرة، قسم 2، مجلد 2، (653 ـ 656) تحقيق د.إحسان عباس، د.حسن محمود : قيام دولة المرابطين، (261 ـ 264) وعن فتح سبتة، ذكر ابن أبي زرع أنها فتحت في ربيع الأول 477 هـ يوليه 1084 (روض القرطاس، ص 144) بينما ذكر ابن خلدون : العبر، ص 6، ص 456 أنها فتحت عام 476 (ط بيروت،1959)، ابن بسام : م.س. (660 ـ 663).

يبدو لي أن وفاة ابنه الأمير أبي بكر بمدينة سبتة كان يشكل خطورة كبيرة على وجود المرابطين بها، فلم يكن قد مضى على فتحها سوى عامين، ولا شك أن أنصار الحموديين الأدارسة،[2] وسقوت البرغواطي والموجودين على الخصوص في منطقة غمارة، كان يعاودهم الأمل في الرجوع إلى سبتة..

وهذا معناه لو نجحو قطع خط الرجعة على الأمير يوسف بن تاشفين، والسيطرة على المجاز «مضيق جبل طارق» وقطع خطوط إمداداته، ومما يعزز هذا الرأي أنهم وجدوا صفوفهم مرة أخرى عندما ظهر أمر الموحدين فانضموا إليهم لحصار سبتة من عام 537 هـ / 1142م.[3]

أما بالنسبة لبني حماد «الإخوة الأعداء» فقد تعددت اعتداءاتهم منذ بداية حركة المرابطين،[4] وكان لابد لتوحيد المغرب وإصلاح أحواله القضاء على أمراء زناتة الذين استبد كل واحد منهم بمدينة، ونجح يوسف بن تاشفين في ذلك، ولكن كان عليه لكي يستتب له الأمر أن يقضي على فلول زناتة التي تجمعت في المغرب الشرقي، فاستولى على تلمسان، ووهران وجبال ونشريس وأعمال شلف إلى الجزائر في نهاية عام 474 هـ/1081م[5] وعندها توقفت جيوش المرابطين. إذ كان هدف يوسف بن تاشفين القضاء على فلول زناتة أو المقاومة الزناتية، ولم يكن هدفه التوغل لأكثر من ذلك، أو الصدام مع أبناء عمومتهم بني حماد الصنهاجيين. ولو كان هدفه الاستيلاء على قلعة بن حماد لأمكنه ذلك، فالبلاد في هذه الفترة كانت ممزقة أصابها عرب بني هلال بأضرار جسيمة، لذلك عندما توقف المرابطون بعد فتح تلمسان ووهران ولم يجاوزوها، لم يكن خوفا من فتح ما يليها وإنما إبقاء على صلات القربى بينهم.[6]

والغريب أن العلاقة كانت طيبة بين أبناء العم الزيريين[7] في إفريقية بعكس العلاقة مع أبناء عمومتهم الحماديين التي اتسمت في أغلب مراحلها بالتوتر الذي يصل في كثير من الأحيان إلى الحرب، وعلى أية حال فسوف أتعرض لهذه العلاقة بالتفصيل من خلال تحقيق ودراسة رسالة الأمير يوسف بن تاشفين إلى صاحب قلعة بني حماد.

أما على صعيد الدول النصرانية، ففي هذه الفترة كانت البابوية قد استعادت نفوذها القديم وبسطت سيطرتها على ملوك أوربا وشعوبها، وصارت تحرض على المسلمين وتعد لحرب صليبية طويلة المدى، فوجهت ملوك أوربا إلى المشرق للاستيلاء على بيت المقدس وغيره من مدن وحصون المسلمين.[8]

ووكلت البابوية لملوك اسبانيا مهمة طرد المسلمين من شبه الجزيرة الإيبرية وإنهاء حكم الإسلام بها، وساعدتها الظروف على نجاح مهمتها، بسبب الفرقة والتطاحن والتناقس بين زعماء لايقدرون المسؤولية ولا يفيقون لهذا المخطط سواء في الغرب الإسلامي أو المشرق، فالذي لم تنجح فيه عسكريا، نجحت فيه سياسيا عن طريق «فرق تسد»، أو عن طريق الصداقة الوهمية المزيفة لهذا الفريق أو ذاك.

---

2) عن بني حمود انظر، المراكشي : المعجب، ص.ص 43 ـ 69، ابن خلدون : م.س. ص.ص 455 ـ 460، الحميدي، جذوة المقتبس، ص.ص 21 ـ 24.

3) يقول ابن خلدون : «ولما نجم المهدي بالمغرب واستفحل أمر الموحدين بعد مهلكه تنقل خليفته عبد المؤمن في بلادهم في غزاته الكبرى لفتح المغرب سنى سبع وثلاثين وما بعدها قبل استيلائه على مراكش، فوحدوا صفوفهم واتبعوا أمره ونازلوا سبتة في عساكره، وامتنعت عليهم وتولى كبر امتناعهاقاضيهم الطائر الذكر رئيسهم لذلك العهد بدينه وأبوته وعمله ومنصبه، ثم افتتحت بعد فتح مراكش سنة احدى وأربعين، فكان لعمارة هؤلاء السابقة التي رعيت لهم سائر أيام الدولة، ابن خلدون : م.س.ص. 458.

4) بعد فتح فاس عام 453هـ/1061م هاجم بلقين بن محمد بن حماد فاس، انظر ابن الخطيب أعمال الإعلام، ص 3 تحقيق د.أحمد مختار العبادي، وإبراهيم الكتاني ص 87،
ابن خلدون، م.س.ص 355، 377.

5) ابن أبي زرع، م.س.ص 143.

6) د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين، ص 205.

7) بعد انتصار يوسف ابن تاشفين في الزلاقة أرسل كتبا إلى بلاد المغرب وإلى تميم بن المعز صاحب افريقية، ولم يرسل إلى الناصر بن علناس صاحب قلعة بني حماد.
ابن أبي زرع : م.س.ص 149.

8) عن الحروب الصليبية انظر د. سعيد عاشور : الحروب الصليبية.

وتهاوت المدن والقلاع الإسلامية واحدة تلو الأخرى، ولا نجد في تعقيب المؤرخين وغيرهم ممن لاحول له ولا قوة غير عبارة «أعادها الله» وهم يعلمون حق العلم أنها لن تعود. لأن الحق سبحانه لايعيد النعمة إلا لمن يستطيع الذود عنها، والحفاظ عليها.

وقويت في هذه الفترة أيضا جمهوريات جنوب إيطاليا مثل جنوة والبندقية وبيزا وغيرها، واستطاعت أن تعزز بسلطانها التجاري والبحري فنازعت المسلمين السيادة البحرية في البحر المتوسط، وأتاحت فرقة المسلمين في جزيرة صقلية الفرصة لتدخل النورمان الذين كانوا قد استولوا على بعض المناطق في جنوب إيطاليا واستقروا فيها، فاستدعاهم بعض المنتزين في مدن صقلية، فاستولى النورمان على مدنها الواحدة تلو الأخرى حتى تم لهم الاستيلاء على كل الجزيرة عام 484 هـ / 1091م منتهزين الصراع بين الحماديين وأبناء عمومتهم الزيريين[9].

وتوزعت الصداقة المزيفة لنصارى البحر المتوسط بين أبناء العم أصحاب القلعة، وأصحاب المهدية، البابوية وجنوة وبيزا وأمال في ناحية بني حماد بينما أظهر روجار النورماندي الذي تم له الاستيلاء على صقلية المودة للأمير تميم بن المعز، إذا كان روجار يعمل حسابا للعلاقة التي بين المرابطين وأمراء إفريقية، فلم يستطع الاستيلاء على المهدية إلا عام 543 هـ/1148م بعد سقوط المرابطين[10].

ويبدو موقف روجر تجاه الأمير تميم بن المعز عندما هاجمت أساطيل جنوة وبيزا وأمالفي المهدية وزويلة سنة 480 هـ/1087م لتحطيم القوة البحرية للزيريين في غياب تميم بن المعز عنهما، ولم يشترك النورمان في هذا الهجوم ورفض روجار المساعدة التي عرضوها عليه حتى يستطيعوا النجاح في مهمتهم، فلما رفض حرصا على علاقته بالأمير تميم اضطر المسيحيون الغزاة للانسحاب مقابل فدية قدرها مائة ألف دينار.[11]

ويذكر ابن الأثير[12] أن روجار رفض مهاجمة إفريقية حتى «**لايقول تميم غدرت بي، ونقضت عهدي، وتنقطع الوصلة والأسفار بيننا، وإفريقية باقية لنا، حتى وجدنا قوة أخذناها، وأما إفريقية فبيني وبين أهلها أيمان وعهود**».

وبعد هذا العرض المختصر لوضعية المنطقة قبيل الزلاقة وبعدها بشهور، أتساءل هل الأمير يوسف بن تاشفين الرجل المحنك الذكي كان يجهل هذه الأوضاع ؟ أعتقد أنه كان يعلم بكافة هذه الظروف، ولا شك انه كان يرصد حركة المدن التجارية التي تهدد البحرية الإسلامية، وتنوي الإجهاز على أسطول الزيريين وإلحاق ضربة قاصمة به.

فعذرا أستاذي الجليل لست معك في أنها أسباب عاطفية عائلية، فأمير المسلمين يوسف بن تاشفين خرج مع المرابطين قصد الجهاد، ومصالح الجماعة الإسلامية فوق العواطف الشخصية، ومعذرة لعدم حضوري اللقاء حول المصادر العربية لتاريخ إفريقيا، فلا شك انه تقصير مني كان يمكنني أن أستفيد منه.

أما الإخوة الذين تساءلوا عن فائدة الخريطة[13] الملحقة بالمقال فلبيان المدن التي كانت خاضعة للمرابطين في السودان والتي ذكرت في سياق المقال.

وأخيرا أرجو أن أكون وفقت لتوضيح بعض ما أثير من تساؤلات على أن أستكمل هذا الموضوع في عدد قادم إن شاء الله.

---

9) عن صقلية انظر د. تقي الدين عارف الدوري : صقلية علاقتها بدول البحر المتوسط، العراق 1980.

10) ن.م.

11) ابن خلدون. م.س. ص 328.

12) ابن الأثير : الكامل، ج 8، ص 185.

13) الخريطة مصدرها كتابنا «دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا» وهو تحت الطبع، وأصل الكتاب رسالة ماجستير قدمت لمعهد البحوث الدراسات الإفريقية جامعة القاهرة عام 1974.

عبد الله كنون
الباحث الأدبي

للأستاذ محمد الفاضي

المدخل :

نظم فرع اتحاد كتاب المغرب بمدينة طنجة بتنسيق مع المكتب المركزي أياما ثقافية (خلال أيام 17 و18 و19) من شهر أكتوبر 1986م تكريما للعلامة الأستاذ عبد الله كنون، وذلك تقديرا لعطائه الفكري والأدبي، وقد شارك في هذا التكريم مجموعة من الأساتذة والباحثين بأبحاث وعروض مهمة تناولت جوانب فكرية مهمة عن النشاط الثقافي للأستاذ عبد الله كنون.

ومن بين هؤلاء الدكتور عباس الجراري الذي تناول في عرضه كتاب «النبوغ المغربي وتاريخية الأدب العربي بالمغرب».

والدكتور محمد السرغيني الذي حدد «منهج عبد الله كنون في تاريخ الأدب المغربي».

والدكتور محمد عزيز الحبابي الذي تحدث عن «عبد الله كنون المعجمي».

والدكتور محمد الكتاني الذي حلل «مفهوم التجديد الإسلامي عند عبد الله كنون».

والدكتور حسن الوراكلي الذي تناول «رؤية البناء والتغيير في فكر عبد الله كنون الإصلاحي».

والدكتور محمد بنشريفة الذي شارك ببحث قيم عن «ديوان ابن فركون؛ شاعر الملك يوسف الثالث».

كما شارك الأستاذ الباحث محمد المنوني بموضوع عن «السلفية المغربية في أعمال الشيخ محمد بن المدني كنون».

أما الأستاذ عبد الكريم غلاب فقد بعث بدراسة عن «عبد الله كنون الباحث الملتزم».

وألقى الأستاذ إدريس الناقوري بحثه عن «الأصولية الإسلامية في كتابات كنون».

وقد تتبع هذه الأبحاث والعروض جمهور غفير من المثقفين والأساتذة والطلبة.

لماذا تكريم العلامة عبد الله كنون ؟

في سنة 1981م كنت قد بعثت إلى مجلة «دعوة الحق» برسالة اقترحت فيها على المجلة تكريم الأستاذ العلامة عبد الله كنون، وذلك بتخصيص عدد من المجلة يكون سجلا لأعماله ومساهماته في الفكر المغربي الحديث، كما أنه لا يخفى على أحد المكانة المتميزة التي يحتلها أستاذنا الكبير عبد الله كنون، فعمله غزير وإنتاجه خصب في حقل الدراسات الأدبية والإسلامية، حقق دفائن

التراث الفكري المغربي، وأنجز دراسات تتسم بالتحري والدقة وقد يطول بنا الحديث لو أحصينا ما قام به من مجهود جبار في البناء العلمي والثقافي لبلادنا وللعالم الإسلامي. وإذا كان عمر الإنسان يقاس بالعمل الذي يقدمه لغيره فإن الأستاذ عبد الله كنون قدم من الأعمال الكثير، إنه دين في عنق طلاب العلم والمعرفة[1].

إننا بتكريمنا للعلامة عبد الله كنون، إنما نكرم علما من أعلام الفكر العربي وأديبا من أدباء العربية، ومصلحا كرس حياته من أجل خدمة بلاده ثقافيا ونضاليا. وما تكريمنا له إلا اعترافا بمجهوده وعطاءاته المتنوعة؛ إنه القدوة التي يجب أن ينهج نهجها الجيل الصاعد.

والأستاذ عبد الله كنون من الأسماء التي ستظل خالدة في دنيا الفكر والأدب، وسوف يخلده إنتاجه في التراث العربي والإسلامي لقرون عدة؛ فهو علم من أعلام الفكر في العالم الإسلامي وأديب من أدباء العربية وأحد الشخصيات التي لا تعرف فتورا ولا توقفا في أداء رسالتها سواء في المجال الفكري أو الإصلاحي، سلاحه القلم والكلمة، ساهم ويساهم بإنتاجه الفكري الغني في ميادين ثقافية متنوعة. يقول الأستاذ أحمد زياد «عبد الله كنون باحث مجيد ومؤرخ حصيف وكاتب مبرز وسلفي لامع، وقبل ذلك وطني أصيل يؤثر العمل الصامت في هذا الميدان، وهي خصلة التزم بها طوال جهاده ونضاله الفكري والوطني»[2].

تميز عبد الله كنون بتجربة طويلة اكتسبها من خلال اتصالاته المتعددة بالكثير من الأدباء والكتاب والمؤرخين والمستشرقين في المؤتمرات والندوات التي كان يحضرها، زيادة على عضويته في المجامع اللغوية العربية والمنظمات الثقافية الإسلامية والأكاديمية المغربية.

يقتضي الإنصاف منا أن نذكره بالتمجيد والاعتزاز، فقد كان المربي والمرشد والأستاذ والباحث، يفتح قلبه وبيته لكل باحث ودارس ومستفسر، متواضعا تواضع العلماء، حديثه لا يمل. ولعل أحسن ما يمكن أن أستشهد به هنا هو ما وصفه به الدكتور تقي الدين الهلالي : «جمع بين خصال الشيوخ من سعة العلم والأدب وكمال العقل والمروءة وبعد النظر وسداد الرأي والرزانة والحلم والوقار إلى خلال الشباب من النشاط والحزم وفكاهة الحديث وحسن المحاضرة وطرافة النكتة مع صحة العقيدة والكرم والشهامة والوطنية الموزونة بميزان الشرع المحمدي المكتسبة من القرآن وسيرة الرسول... فهو من الأدباء الذين يذهبون إلى التجديد المطلق... وله تآليف غزيرة العلم جيدة التأليف حسنة السبك»[3].

عبد الله كنون... الباحث الأدبي

سجل التاريخ الأدبي المغربي للأستاذ عبد الله كنون حضورا متميزا ونشيطا، فهو الباحث الذي لا يمل والأديب الفاحص المتمكن من أدواته، لا يغفل حدثا أدبيا أو تاريخيا أو اجتماعيا يتعلق بالمغرب أو العالم العربي والإسلامي دون أن يلم به إلماما، ملتزما لمبادئه وصريحا في آرائه. يقول عنه الدكتور الراجي التهامي الهاشمي : «المتأمل في نتاج عبد الله كنون يلاحظ زيادة على هذا وذاك أنه التزم خطة منذ بدأ يكتب ما حاد عنها رغم كثرة ما كتب، ورغم المدة الطويلة التي قضاها معتكفا على التأليف، خطة لا يدوم عليها إلا من أوتي عزم المصلحين وقوة المؤمنين ويقين المهتدين»[4].

ولعل أهم ما أنجزه عبد الله كنون في ميدان البحث الأدبي كتابه «النبوغ المغربي في الأدب العربي» و«أحاديث عن الأدب المغربي الحديث». وهما معا يشكلان تاريخا للأدب المغربي قديمه وحديثه، وقد نوه الكثير من الأدباء والباحثين بالكتاب الأول «النبوغ المغربي في الأدب

---

1) انظر نص الرسالة في مجلة «دعوة الحق» / عدد : 3 / سنة : 22 ص : 108.

2) انظر «الملحق الثقافي» لجريدة العلم / عدد : 796 / سنة : 16 / ص : 1.

3) ذكريات مشاهير رجال المغرب / عدد : 16 / (المقدمة).

4) انظر مجلة «دعوة الحق» / عدد : 9 / 10 (مزدوج) / 15 ماي : 1973 / ص : 191.

العربي» أمثال طه حسين وشكيب أرسلان وكارل بروكلمان ونقولا زيادة وغيرهم. كما حظي الكتاب الثاني باهتمام الباحثين والدارسين والمهتمين بالأدب المغربي الحديث؛ في المغرب والمشرق. وكان الدافع إلى تأليف الكتاب الأول هو ما لاحظه المؤلف من جهل وإهمال المؤرخين والباحثين العرب للأدب المغربي وتاريخه، فنفض عنه الغبار وأثبت وجوده لأولئك الذين شككوا في أن يكون لهذا البلد أدبا كباقي الدول العربية الأخرى. ويقول في هذا المضمار. «ظلت الآداب المغربية منسية طيلة الثلاثة عشر قرنا الماضية، وكان هناك عاملان يتعاونان على بقائها مغمورة لا تلفت نظر أحد ولا تستثير اهتمام باحث... أولهما : انصراف المؤرخين المغاربة سواء منهم مؤرخو السياسة ومؤرخو العلم عن تسجيل الناحية الأدبية من تاريخ الفكر المغربي وإعطائها ما تستحق من العناية والدرس والتمحيص ! بل وتعمد إغفالها وغمطها وهضمها... وثانيهما : اختلاط تاريخ أدب المغرب والأندلس وتعود الناس على نسبة كل فضل وعبقرية للجزيرة، بداعي النبوغ العظيم الذي أبداه أهلها في العلوم والآداب... وعلى كل حال فقد عرف أبناء المغرب أخيرا هذا الأمر وأخذت الأقلام المثقفة تعالجه من شتى النواحي، وصدرت بحوث مهمة في هذه القضية»[5].

لقد بذل الأستاذ عبد الله كنون مجهودا كبيرا في جمع ودراسة النصوص الأدبية وتصنيفها والتعليق عليها وإثبات مصادرها شعرية كانت أم نثرية، ويجب أن نتصور الفترة التاريخية التي ألف فيها الكتاب والصعوبات التي اعترضت الكاتب، وهي فترة صعبة ومنغلقة وقد حددها الدكتور عباس الجراري فيما يلي : «كتاب النبوغ المغربي لا يمكن أن نتحدث عنه إلا لنقر بأنه فريد في بابه، وأنه سبق به إلى طرق باب من أبواب التأليف لم تكن معهودة أو معروفة عند المغاربة. الأدب والتأريخ للأدب جديد بالنسبة لاهتمامات المغاربة، ليس لأنهم لم يكتبوا الأدب. بل لأنه مشتت ومفرق في كتب كثيرة ومظان متنوعة. إنه في كتب التراجم والطبقات والتاريخ والرحلات والنوازل والفقه، وأن يأتي عالم متمكن وأن يضع يده على هذه المصادر ليخرج منها شيئا يكون نواة كتاب النبوغ فعمل جليل له قيمته وله أهميته، ذلك أن الحديث عن الأدب في حد ذاته في فترة تأليف كتاب النبوغ لم يكن درسا أو موضوعا يهتم به كبقية العلوم المتدارسة في المساجد، بل كان هناك من العلماء من يحارب درس بعض العلوم ومن بينها الأدب... أما أن يؤلف كتاب في الأدب يجمع أطرافه قبل خمسين سنة فيعد حدثا يؤرخ له في مسيرة فكر المغرب»[6].

جاء كتاب النبوغ ليملأ فراغا استمر قرونا، فكانت الحاجة ماسة إليه، وخصوصا في الفترة التي ظهر فيها، وهي مرحلة الاستعمار وما تشكل هذه المرحلة من صعوبات ومواجهات بين المغاربة والاستعمار الفرنسي - الإسباني. فحقق بذلك مؤلفه أمنية طالما تطلع إليها رجال الفكر والأدب في المغرب وهي الحضور الثقافي والأدبي للمغرب في الساحة العربية. «ولولا النفس الطويل الذي يتميز به الأستاذ الباحث والمنقب لما أمكن التوصل إلى تلك الحصيلة التي ألفت كتاب «النبوغ المغربي» وما كان غير الأستاذ عبد الله كنون أن يقدر على الاضطلاع بمثل تلك المهمة الساقة»[7].

وأصبح كتاب النبوغ المغربي مصدرا معرفيا مهما للباحثين والمهتمين والدارسين للأدب المغربي وتاريخه. ولا أظن أنه يوجد من هؤلاء من لم يقرأه أو يطلع عليه كله أو على بعض فصوله، بل واعتمده الكثير منهم في أبحاثهم ودراساتهم مستشهدين بنصوصه ومقتبسين من فصوله. وقد اعترف بأهميته العلامة شكيب أرسلان حيث قال : «من لم يطلع على هذا الكتاب لا يحق له أن يدعي

5) انظر مقدمة كتاب «المنتخب من شعر ابن زاكور» دار المعارف / مصر / ص : 6/5.

6) العرض الذي شارك به الدكتور «عباس الجراري» في الحفل التكريمي انظر «الملحق الثقافي لجريدة العلم» / عدد : 799 / ص : 3.

7) أحمد زياد / كتابه «لمحات من تاريخ الحركة الفكرية بالمغرب... وقصص أخرى».

دار الكتاب / الدار البيضا / ص : 134.

في تاريخ المغرب الأدبي علما ولا أن يصدر على حركاته الفكرية حكما... إن من لم يقرأ كتاب النبوغ المغرب في الأدب العربي فليس على طائل من تاريخ المغرب العلمي والأدبي والسياسي»[8].

أما كتابه الثاني «أحاديث عن الأدب المغربي الحديث» فقد كان تكملة للعمل الأول، وهو عبارة عن محاضرات ألقاها المؤلف على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية في معهد الدراسات العربية العالية لجامعة الدول العربية بالقاهرة؛ وبطلب من بعض الشخصيات الأدبية المرموقة التي ترأست إدارة المعهد كشفيق غربال وطه حسين وعبد الرحمن البزاز. وتحمل الأستاذ عبد الله كنون المشاق من أجل جمع مادة هذا الكتاب لأن جلها لم يكن مدونا أو منشورا في كتب يعتمد عليها نظرا لقلة وسائل النشر وتيسيرها، ونظرا لظروف الاستعمار الصعبة. ويعترف المؤلف بذلك قائلا : «قبلت القيام بالمهمة، ولم يسعني إلا النزول عند رغبة هؤلاء الأفاضل... ولا أخفي أنني من أول وهلة اعتزمت أن لا اتصل بأحد لا بالكتابة ولا بالشخص، تخففا من المتاعب وتجنبا لضياع الوقت الذي غالبا ما يكون بغير طائل، وأن اكتفي بما عندي من مواد ومراجع أكثرها من الجرائد والمجلات التي صدرت في المغرب منذ بداية هذا القرن. وفعلا فقد نفضت ما لا يقل عن عشرة آلاف صحيفة وانتقيت منها ما يلزمني لهذا العمل ثم صنفته كما يجب وراعيت الإكثار من النصوص والنماذج لأني رأيت بعضها إذا طالت المدة سوف يدخل في خبر كان، ولأني أيضا أردت أن أقول بالحجة وأحكم بالدليل»[9].

وبهذا يكون الأستاذ عبد الله كنون قد كتب للمغرب تاريخا أدبيا قديمه وحديثه، إضافة إلى كتب متنوعة أخرى جمع فيها مقالات أدبية ودراسات متنوعة : كواحة الفكر - والتعاشيب - وأزهار برية - والعصف والريحان - وخل وبقل - وأشذاء وأنداء - إضافة إلى سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب التي صدر منها أربعين عددا - وكتاب «أمراؤنا الشعراء» و«أدب الفقهاء» و«القاضي عياض بين العلم والأدب» و«لسان الدين بن الخطيب الكاتب الساخر» و«من أدبنا الشعبي». ومجموعة من التحقيقات التراثية، وكتب إسلامية، وديوانين شعريين «لوحات شعرية» و«إيقاعات الهموم». وبذلك استحق ما وصفه به الدكتور «زكي المحاسني» «أديب المغرب وعلامة العرب والإسلام في القرن العشرين»[10].

أو ما قاله فيه العلامة محمد المختار السوسي :

ما قام بالأدب العالي وبالدين
إلا يراعة عبد الله كنون[11]

---

8) انظر مقدمة كتاب «النبوغ المغربي في الأدب العربي» / طبعة ثالثة / ص : 23.

9) كتاب «أحاديث عن الأدب المغرب الحديث» / عبد الله كنون / ص : 14.

10) انظر مجلة «دعوة الحق» / عدد : 5 / سنة : 11 / ص : 65.

11) ذكريات مشاهير رجال المغرب / عدد : 10 / (المقدمة).

حول ابن أبي الخصال

الأستاذ محمد الطاهري

نشر الأستاذ المهدي البرجالي مقالا في العدد 259 من مجلة «دعوة الحق» بعنوان : «أدب الجهاد في العدوتين، نموذج الجهاد المرابطي في العدوة لابن أبي الخصال».

ويبدو لي أن حديث الأستاذ البرجالي عن ابن أبي الخصال ضمن هذا المقال يحتاج إلى بعض التفصيل :

- إن الإسم الكامل لهذا الأديب الأندلسي هو : محمد بن مسعود بن طيب بن فرج بن خلصة بن أبي الخصال[1]. يكنى أبا عبد الله، ويلقب بذي الوزارتين. وتشير جل المصادر إلى أنه غافقي نسبة إلى قبيلة غافق[2].

- ولد أبو عبد الله ابن أبي الخصال في قرية صغيرة تعرف باسم «فرغليط» بشقورة قرب بلنسية. يقول ابن الأبار :

«أوليته من قرية بشقورة تسمى «فرغليط» وبها نشأ ومنها تردد في طلب العلم والأدب»[3].

وروى عنه ابن بشكوال في صلته أن مولده كان سنة 465[4].

- هناك نصوص كثيرة لابن أبي الخصال توضح بأنه قد أخذ علمه عن علماء عصره المشهورين كقوله في إجازة كتبها لمقرئ[5].

«فقلّ إمام مذكور إلا وقد شد إليه لي كور، وتهادتني نحوه رواح وبكور. إلى أن تسقهم سلك إسنادي، ووريتُ بلقائهم زنادي، فصدرت بحمد الله عن الأئمة والرواة كما صدر الظمآن عن الفرات...».

ومن بين هؤلاء العلماء نشير إلى مرشده الأول ابن مالك اليعمري[6]، والشيخ أبي الحسين ابن السراج[7] والشيخ أبي محمد عبد الرحمن بن عتاب[8] والشيخ أبي علي الغساني[9] والشيخ أبي علي الصدفي[10] وغيرهم.

1) انظر القلائد للفتح بن خاقان ص 199 والذخيرة لابن بسام ق 3، مجلد 2 ص 786 الفهرسة لابن خير ص 502 و575، الصلة لابن بشكوال ق : 2 ص 588. بغية الملتمس للضبي ص 131، المعجب للمراكشي ص 255، المعجم لابن الأبار ص 149 المغرب لابن سعيد ج 2 ص 66، أزهار الرياض للمقري ج 5 ص 156 نفح الطيب ج 1 ص 294، الإحاطة لابن الخطيب ج 2، ص 388.

2) لقد نص ابن حزم على أن قبيلة غافق نزلت في الجوف في شمال قرطبة بعد الفتح الإسلامي (جمهرة أنساب العرب : ص 328).

3) المعجم لابن الأبار ص 149.

4) الصلة لابن بشكوال ق 1 ص 588.

5) انظر المخطوط رقم 519 بخزانة الاسكوريال ص 40.

6) الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي س : 5 ق : 1 ص 158.

7) المعجم لابن الأبار ص 318.

8) الصلة ق، 2 ص 348.

9) نفس المصدر : ق، 1 ص 142.

10) المعجم : ص 80.

ونوجز الحديث عن دراسته فنقول : إنها كانت دراسة متنوعة وشاملة. ويمكن أن نميز في حياته الدراسية ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : اتسمت أولى هذه المراحل بانكبابه على الثقافة الدينية بوجه عام. ونرجح أن ميولاته كلها كانت للأدب ولكل ماله صلة بالأدب ولأستاذه الأول ابن مالك اليعمري دور في تربية وتوجيه هذه الميول.

المرحلة الثانية : وتتميز المرحلة الثانية بإقباله على الدراسات القرآنية المعمقة.

المرحلة الثالثة : أما المرحلة الثالثة فهي امتداد للمرحلة الثانية إذ أن الدراسات القرآنية دفعته إلى التعمق في دراسة الحديث وتفسيره وروايته.

ولا يمكن أن نغفل جانبا آخر مهما في تكوين ابن أبي الخصال وهو اهتمامه بالسياسة والتاريخ، لأنه يدرك تمام الإدراك بأن من يريد الوصول إلى المراكز العليا في الدولة لابد وأن يمر بهذه القنوات الملتوية ابتداء من العلم وانتهاء بالسياسة.

☆ ☆ ☆

علاقته بالمرابطين : ولم يبق أمامه الآن إلا أن يبحث عن السبيل التي ستقوده إلى الأوساط العليا ليحقق الحلم الذي رافقه طوال فترة طلب العلم، وهو الآن مقتنع كل الاقتناع بأنه سيصل، خاصة وبيده وسيلة فتحت لغيره أبوابا عريضة للارتقاء إلى دنيا الجاه والشهرة الأدبية. وسيكون الأمر طبيعيا إذا رأينا ابن أبي الخصال يحتل مكانة مرموقة في الدولة بعد التكوين الذي حصل عليه، ولم يكن هذا التكوين يخل بما يمكن أن يشترطه المرابطون في كتابهم وأعوانهم. وأهم هذه الشروط القدرة على الكتابة مع التمكن من الكتاب والسنة فضلا عن التمسك والتحلي بالأخلاق الإسلامية مستأنسين هنا بالمبادئ التي قامت عليها الدولة، ولكننا نلاحظ أن أبا عبد الله لم يرق سلم الشهرة بالسرعة التي كان يتمناها، ولعل هذه الرغبة الجامحة في تسلق هذا السلم بأقصى سرعة هي التي حالت بينه وبين الوصول إلى مبتغاه في الوقت الذي كان يرتضيه.

كان ابن أبي الخصال مقتنعا بأن العلم وحده لن يوصله إلى هدفه، وهذا ما كان يعتقده إبان هذه المرحلة من حياته - فدفعه طموحه إلى خوض غمار السياسة وكيف لا وقد تسنت له فرصة ثمينة !؟ وتتمثل هذه الفرصة في موقف القائد المرابطي ابن الحاج من بيعة علي بن يوسف سنة خمسمائة، وألهمه هذا الموقف بأن يقف في صف ابن الحاج حاكم قرطبة، ومن ابن الحاج هذا ؟

هو أبو عبد الله محمد بن داوود بن عمر اللمتوني أمير قرطبة[11]، من رجالات يوسف بن تاشفين وذوي السابقة في الجهاد بالأندلس، وكان يتمتع باحترام المرابطين وباحترام مشايخ وفقهاء قرطبة. ومركز ابن الحاج هذا في قرطبة لفت انتباه أديبنا فحاول التقرب منه. ويظهر أن ابن أبي الخصال صحب أحد أبناء ابن الحاج أول الأمر، وهذا الابن هو أبو بكر الملقب بأبي يحيى، وكان ابن أبي الخصال يخدمه. (وقد ذكر الفتح بن خاقان بأن أبا يحيى هو الذي لقب ابن أبي الخصال بذي الوزارتين).

وعندما تلكأ ابن الحاج عن بيعة على بن يوسف لأول ولايته سلطان أبيه مالأه من أهل قرطبة مشيختها وفقهاؤها، ولعل ابن أبي الخصال كان من أوائل هؤلاء الفقهاء الذين رأوا رأي ابن الحاج ودفعوا إمرة علي بن يوسف سنة خمسمائة.

ونتساءل عن السبب الذي دفع ابن أبي الخصال إلى رمي نفسه إلى هذه التهلكة المحققة، فلا نجد ما يشفي الغليل إلا ما أشرنا إليه سابقا وهو تطلعه إلى احتلال مركز مرموق في الدولة في أقرب وقت، ويمكن أن نعتبر مشاركته في تمرد ابن الحاج نزوعا ورغبة في تكوين إمارة مستقلة بقرطبة أو تكوين إمارة أندلسية تحت سلطان القرطبيين على الأقل. ولا نستبعد رغبة أخرى وهي الأخذ بالثأر بمن تسبب في إبطاء صعوده، ويسند زعمنا هذا ملاحظة أبداها ابن الأبار عندما أكد بأن ابن أبي الخصال

---

11) المعجم : ص 138.

مع كماله لم يحظ من أمراء عصره بآماله[12]، وتجد ابن الأبار نفسه يبدي من الأسى والحسرة لما يصيبه ويصيب أمثاله من الإهمال في جميع العصور. فعبارة ابن الأبار : «هي عادية الأيام في أمثاله تواري مما يهر وخفي أضعاف مما ظهر»[12م] يمكن أن ينطبق مدلولها عليه هو نفسه وعلى كثير من أمثاله الذين غمرتهم الأيام.

ويؤكد ابن الأبار بأن هذه الثورة التي قام بها ابن الحاج وفشل فيها كانت سببا آخر من الأسباب التي قعدت بأبي عبد الله ابن أبي الخصال. ونكب أميره ابن الحاج ثم أعيد له اعتباره. وكانت عودة ابن الحاج للخدمة نعمة على حاشيته ومن بينها كاتبنا. وقد زادت حظوته عند الأمير بما أبداه من وفاء وإخلاص، ويبدو أن العفو الذي لحق ابن الحاج كان نتيجة السياسة المرابطية المعهودة تجاه أفراد الأسرة الحاكمة وحاشيتهم، لذلك فإن علي بن يوسف لم ينس لابن الحاج ما أسلفه في بناء دولة المرابطين بالأندلس وإخلاصه لوالده.

فابن الحاج من الأمراء المرابطين الذين أبلوا البلاء الحسن في خدمة الدولة فقد كان من القواد الكبار الذين شاركوا في حملة الإنقاذ. فعندما تأكد المرابطون من اتصال ابن عباد بالأفرنجة استفتوا الفقهاء فأفتوا بخلعه، وإثر هذه الفتوى أطبقت عليه جيوشهم بقيادة سير بن أبي بكر فاستولت على إشبيلية سنة 484[13] واقتحم الأمير أبو عبد الله ابن الحاج أسوار قرطبة واستولى عليها بعد قتل المأمون بن المعتمد[14]، وعندما كانت بلنسية في يد السيد القنبيطور كان لابن الحاج دور هام في استرجاع المدينة. فقد كان المسلمون يحتلون مرسية وشاطبة ودانية ومكثوا يناوشون السيد القنبيطور مدة سبع سنوات فاستطاعوا أن يحدوا من نشاطه حتى أتم يوسف بن تاشفين الاستعداد لخوض المعركة الفاصلة التي بدأت نذرها تلوح... وأطبق ابن الحاج على قوات الفونسو عند **كونسوكرا** فأنزل بها هزيمة ساحقة وقتل ولد القنبيطور الوحيد كما هزم البرهانس عند **كونكة**. ولم يكن ابن الحاج وحده. في هذه الحروب الثغرية الشرقية شارك فيها قواد مرابطون عديدون وكان حشد يوسف لهؤلاء القواد في هذه المنطقة من الأندلس إدراكا منه لخطورة هذه المعارك، فعلى نتائجها يترتب مستقبل الإسلام والمسلمين في بلاد الأندلس كلها.

يقول ابن عذاري[15] في صدد هذه الحادثة (أي تلكأ ابن الحاج عن بيعة علي بن يوسف) «وبعد مواراة علي بن يوسف أبيه (أباه) خرج ويده في يد أخيه أبي الطاهر تميم على قبائل المرابطين والمصموديين وغيرهم من زعماء القبائل ورؤسائهم فنعياه إليهم، وجدد أبو الطاهر بيعة أخيه[16] وأخذ الحاضرون بذلك فاستتب الأمر».

ويذكر ابن عذاري الولاة الذين لحقوا بحواضر مكناس وفاس وتلمسان وإشبيلية وغرناطة بعد أن جددوا بيعتهم، ولم يذكر حاضرة قرطبة وكان واليها أبو عبد الله محمد بن الحاج، فمعنى هذا أن هذا الوالي لم يقدم إلى مراكش ليجدد بيعته.

ويخبر ابن عذاري بأن أمير المسلمين علي بن يوسف «تحرك إلى الأندلس مع جيوش المرابطين والمصموديين والجنود والحشود... لتفقد أهلها وسد خللها... فولى أخاه أبا الطاهر تميما غرناطة، وولى أبا عبد الله محمد بن أبي بكر اللمتوني قرطبة وبقي محمد بن الحاج تحت الخمول»[17].

ويذكر ابن الأبار موضحا هذا الخمول بقوله : «نكب وقبض عليه وفسد تدبيره»[18] ثم يضيف لكن علي بن

---

12) المعجم : ص 151.

13) الذخيرة المجلد الأول القسم الأول : ص 388 / المعجب ص : 207.

14) القلائد : ص 19.

15) البيان المغرب لابن عذاري ج 1 ص 48.

16) يذكر ابن عذاري أن يوسف جاز إلى الأندلس سنة 497 وصدر إلى غرناطة وعقد عليها لعلي بن الحاج وجمع أعلام المرابطين والرؤساء الأندلسيين في حالة البيعة (لابنه علي).

17) البيان ج 4. ص 48 و49.

18) المعجم ص 138.

يوسف «رضي عن ابن الحاج وأخيه علي وقومه ومن عليه وصفح عنه».

ولا يذكر ابن الأبار سبب هذا العفو ولذلك فنحن نميل إلى الاعتقاد بأن علي بن يوسف قد أحسن التدبير عندما أعاد ابن الحاج إلى حضرة الدولة والمشروعية ليستفيد من خدمات هذا القائد الذي حنكته المعارك في صفوف الجيوش المرابطية. وهذه المعاملة التي لقيها ابن الحاج من أمير المسلمين أضمن لسلامة الدولة لأنه فوت الفرصة على أولئك الممالئين لابن الحاج ولاشك أنهم هم الذين دفعوه إلى مثل هذا الموقف، فقطع علي بن يوسف دابر هذه المعارضة التي لا يعرف أحد عقباها بالعفو والحلم. ولا يعزب عن ذهننا أننا في أول ولايته فهو إذن في حاجة لتأييد عريض من جميع القواد المرابطين بالخصوص.

فسيرة هذا البطل، باستثناء هذا الموقف المتمرد، برهان واضح على تفانيه في خدمة المرابطين، وسبب للعفو عنه وإتاحة الفرصة ثانية أمامه ليقوم بدوره داخل الدولة.

ولعل علي بن يوسف كان يرى أن إبعاده عن قرطبة عقاب كان له، فعينه واليا على مدينة فاس وما إليها من الأعمال[19].

ولم تطل ولاية ابن الحاج لفاس، إذ سرعان ما أعاده علي بن يوسف إلى الأندلس وأعاده إلى المنطقة الأكثر اضطرابا فولاه مدينة بلنسية سنة ثلاث وخمسمائة (503) أو 502[20].

ولكن الاضطرابات التي حصلت في سرقسطة بسبب خيانة عماد الدولة عبد الملك بن المستعين بن هود وتعامله مع اذفونش دفعت أمير المسلمين إلى أمر ابن الحاج بالزحف على سرقسطة. وقد وصف ابن عذاري هذا الزحف بإسهاب في كتابه البيان[21] المغرب. وذكر بأن جيوش ابن الحاج ظلت النهار كله على أهبة المواجهة ولكن الجند أخلوا مراكزهم آخر النهار وتسللوا إلى المدينة فظهر الخلل والتسلل وانتهز ابن رذمير الفرصة وقسم جيشه فرقتين وصدمت إحداها ابن الحاج وصدمت الأخرى ابنه أبا يحيى ولكن جند أبي يحيى تفرقوا عنه واستشهد أبو يحيى ابن الحاج في هذه الموقعة مع جملة من المسلمين.

وفي سنة 504 استقر ابن الحاج بسرقسطة وابن رذمير يساجله الحرب والظهور عليه وعبد الملك بن المستعين معه في جيوش كثيرة، ومحمد ابن الحاج يُثَنا وشه الحرب صباحا ومساء إلى أن لحق أبو عبد الله ابن عائشة الوالي على مرسية من قبل أمير المسلمين، فطالت هذه الحروب بين المسلمين وابن رذمير إلى أن استشهد ابن الحاج سنة 509[22] وقد قتله كمين نصراني، وهكذا يستشهد هذا البطل وقد سبقه إلى الاستشهاد ابنه أبو يحيى في ساحة المعركة مدافعا عن الإسلام في منطقة من أخطر المناطق الأندلسية، وكأن عفو علي بن يوسف قد فتح مرة أخرى باب الجهاد أمام هذا البطل وأمثاله ليبلوا البلاء الحسن في الدفاع عن الإسلام والمسلمين في الثغر الشرقي الأندلسي.

وعندما عين ابن الحاج علي فاس صاحبه ابن أبي الخصال هو «وطائفة من رجاله انضوت من حرمته إلى الحصن الحصين والحرز الحريز وذلك لشفوف هذا الأمير على أترابه وخفوق ذاته الراجحة في حقوق أصحابه»[23] ويضيف ابن الأبار بأنهم انتقلوا بانتقاله إلى سرقسطة. ويؤيد هذه الرواية التي أوردها ابن الأبار - أي انتقال ابن أبي الخصال وحاشية ابن الحاج إلى فاس - رسالة كتبها ابن أبي الخصال نفسه يصف فيها حاله في فاس ويوجه فيها لوما عنيف إلى النفس[24]. وأثارت هذه الرسالة كثيرا من شجوه فهي تدل على الخيبة التي مني بها بعد أن طمحت نفسه في تحقيق بعض أماله في فاس.

19) نفس المصدر والمكان، البيان ج 4 ص 48.

20) يذكر صاحب روض القرطاس بأن ابن الحاج ولي بلنسية سنة 502، ص 104.

21) البيان المغرب ج 4 ص 54.

22) نفس المصدر، ص : 61.

23) المعجم ص : 138.

24) المخطوط رقم 519، بخزانة الأسكوريال. (ص 71 - 72).

وهناك رسالتان كتبهما ابن أبي الخصال تثبتان عودته من المغرب إلى الأندلس بصحبة ابن الحاج وابنه أبي يحيى. وكانت هذه العودة حوالي سنة 503.

وهذه إحدى الرسالتين(*) التي كتبها ابن أبي الخصال على لسان رجل مرابطي إلى علي بن يوسف من قرطبة في الرابع والعشرين من جمادى الأخيرة ولا تذكر الرسالة السنة، ونرجح أن تكون هي السنة الثانية بعد الخمسمائة، وهي السنة التي عاد فيها ابن الحاج وابنه أبو يحيى من المغرب. وقد أشرنا من قبل إلى أن ابن الحاج تولى مدينة بلنسية سنة 502. وفي هذه الرسالة إشارة إلى ولاية أبي يحيى ومما جاء في شأن هذه الولاية :

«فتيمن الناس هناك بولاية أبي يحيى... وبقيادة هذا القائد الذي اقترن الفتح بمأتاه».

وتخبر الرسالة عن العدو بالعبارات التالية : «وأنباء العدو... الآن خامدة، وعزائمهم هامدة، وأيديهم جامدة».

وعن المواشي : «إن مواشي تلك الجبال قد أخذت في الانبساط والإسهال والدنو من الوادي طلبا للخصب وتحولا من البرد إلى الدفء والله يجعلها للمسلمين طعمة ويزيدهم قوة بعزته».

نص الرسالة :

«أطال الله بقاء أمير المسلمين وناصر الدين مؤيدا بجنوده معانا بتوفيقه وتسديده، ولازال عدله ينعش الأمم وسعده ينهض الهمم، كتبت أدام الله تأييده من قرطبة، حرسها الله، لست بقين من جمادى الآخرة، وقبل بثلاث وافيتها من الوجهة التي صحبني ومن معي فيها يمن أمره واكتنفتنا عزة نصره بعد أن أودعنا حصى أزلية حماه الله قوتا موفورا ومرفقا كثيرا، وحطت عندهم الأسعار وعم الاستيشار وتسلم أبو الخيار مسعود الدليل، سلمه الله، الحصى واحتوى عليه وصار أمره إليه. ووافينا فلانا أبقاه الله قد استاق غنيمة ظاهرة وجملة من البقر وافرة، وقتل من العدو، قصمه الله، عددا وقضى وطرا وشفى وحرا، فتيمن الناس هناك بولاية الأمير أبي يحيى أعزه الله وبقيادة هذا القائد الذي اقترن الفتح بمأتاه وكانت عند مقدمنا، هذا الحصى، خيل طليطلة، بددها الله، مجتمعة فوقذهم الرعب وشملهم الصغار والرغم. وتحققنا هناك أن مواشي تلك الجبال قد أخذت في الانبساط والإسهال والدنو من الوادي طلبا للخصب وتحولا من البرد إلى الدفء، والله يجعلها للمسلمين طعمة ويزيدهم بها قوة بعزته. وأنباء العدو، قصمه الله الآن خامدة وعزائمهم هامدة وأيديهم جامدة، استأصل الله بحد أمير المسلمين نعمهم وقطف قممهم وأداخ بلادهم وانتسف طارفهم وتلادهم، وألفيت الحضرة حرسها الله وقد أخذ السرور من أهلها كل مأخذ «وسرى فيهم كل مسرى ومنفذ بولاية الأمير أبي يحيى أعزه الله، وكثر الدعاء لأمير المسلمين أيده الله مما جدد لديهم من حسن نظره وخلع عليهم من جمال سيره ولقيته فلفيت كل ما أبهج وكان وفقا لما انتشر ومشاكلا لما استذاع وظهر، تمم الله النعمة وظاهر عليه الكفاية والعصمة ووافتني كتبه الكرام بما بلغ الأمل وحسم العلل، وأنا ممتثل في كل معنى ما يجده مجتهد فيما يقيم ذلك الثغر ويسره إن شاء الله عز وجل».

إن هذه الرسالة دلالة واضحة على حرص أمير المسلمين على تلقي التقارير الإخبارية عن المناطق الإسلامية كلها ولو كانت بعيدة عن حضرته مراكش ليكون على علم بشؤون المسلمين وخاصة في هذه الأمصار التي تقع على تخوم العدو.

☆ ☆ ☆

أثبت ابن الأبار في معجمه[26] أن ابن أبي الخصال لزم داره بعد مصرع الأمير أبي عبد الله ابن الحاج مشيرا إلى خوفه من «تلك الأحقاد القديمة ورضاه بالإياب إليها من الغنيمة» ويضيف ابن الأبار مصدرا مصير ابن أبي الخصال : «وفي أكثر عمره ارتد على العقب مأموله وامتد بطول مدة ابن تاشفين خموله إلى أن حمت منيته بالفتنة الحمدينية فاستشهد رحمه الله ودفن يوم الأحد الثالث عشر من ذي الحجة سنة أربعين وخمسمائة».

إن هذا الخبر الذي أورده ابن الأبار تناقضه رسائل ابن أبي الخصال الكثيرة التي صدرت من ديوان علي بن يوسف في مراكش وتحمل تواريخ مختلفة، وهذه التواريخ كلها كانت بعد سنة ثمان وخمسمائة، السنة التي استشهد فيها ابن الحاج - وسنشير إلى رسالة كتبها ابن أبي الخصال

(*) نفس الرسالة التي وقف عندها الأستاذ البرجالي.

26) المعجم ص 152.

صادرة من مراكش سنة 507 أي قبل استشهاد ابن الحاج بسنة.

ثم إن الخوف الذي يشير إليه ابن الأبار لا مبرر له لأن أسباب ذلك الخوف قد زالت عندما عفا أمير المسلمين على ابن الحاج وعلى جميع أتباعه، وابن أبي الخصال منهم، فلم يكن لديه ما يخاف منه ولو كان يريد ابن تاشفين الانتقام منه لما امتنع عليه.

ثم إن ابن عذاري يورد رسالة كتبها ابن أبي الخصال من ديوان علي بن يوسف في مراكش. عندما انضافت ولاية قرطبة إلى تاشفين بن علي بن يوسف وتحمل تاريخ عشرين بقين من رجب الفرد سنة ست وعشرين وخمسمائة (526)[27].

وهناك رسالة كتبها ابن أبي الخصال من مراكش في تاريخ سابق عن هذا بعدة سنوات وكتبها عن أمير المسلمين جاء في مستهلها بالخصوص :

«كتابنا أعزكم الله بتقواه... من حضرة مراكش... يوم الإثنين منتصف شوال من سنة سبع وخمسمائة (507)[28].

إذن فزعم ابن الأبار باعتكاف ابن أبي الخصال في داره بعد مقتل ابن الحاج مردود، ولعل ابن الأبار قصد الاختصار في ترجمة أديبه ولا نعتقد أنه كان غافلا عن أخبار هذا الأديب الذي اشتهرت رسائله في الأندلس وجمعت حتى أصبحت «ديوانا يدور بأيدي أدباء أهل الأندلس».

إن الرسالة التي أشرنا إليها سابقا تثبت وبطريقة لا يكتنفها الشك وجود ابن أبي الخصال في بلاط أمير المسلمين بمراكش. وقد كان وجوده بهذا البلاط قبل استشهاد ولي نعمته الأول ابن الحاج. ونتساءل الآن عمن كان السبب في وصول ابن أبي الخصال إلى حضرة مراكش، وما هي أسباب هذا التحول الذي طرأ عليه، فقد كان في إحدى رسائله من فاس يتبرم من الخدمة الديوانية ويتمنى اعتزالها، وها نحن نراه الآن في بلاط علي بن يوسف ولم يمض على لقائه بأبي علي الصدفي - أحد شيوخه - بالمرية إلا سنة واحدة، (أي سنة 506) حيث قرأ عليه صحيح مسلم وجامع الترمذي ومصنف أبي داوود وأكثر صحيح البخاري[29].

وقد يتبادر إلى ذهننا أن أبا عبد الله ابن الحاج هو السبب في هذه الطفرة التي طفرها أديبنا، ربما كان الأمر كذلك، ولكن ليس هناك ما يثبت تدخل ابن الحاج لصالح ابن أبي الخصال لدى البلاط المرابطي، وكل ما هناك فيما يخص هذا التحول إشارة وردت في كتاب المعجب لعبد الواحد ا لمراكشي[30].

لقد أشار عبد الواحد المراكشي إلى اهتمام علي بن يوسف باستدعاء أدباء الأندلس، يقول : «ولم يزل أمير المسلمين من أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس، وصرف عنايته إلى ذلك، حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك كأبي القاسم ابن الجد المعروف بالأحدب، وابن القبطرنة، وأبي عبد الله ابن أبي الخصال وأخيه أبي مروان، وأبي محمد ابن عبد المجيد بن عبدون في جماعة يكثر ذكرهم».

يؤكد النص على أن أبا عبد الله وأخاه أبا مروان كانا في خدمة المرابطين. وحددنا تاريخ بدء هذه الخدمة بسنة سبع وخمسمائة بالنسبة لأبي عبد الله. وتواجهنا نقطة أخرى متعلقة بتحديد مدة هذه الخدمة، متى انتهت وما هي الظروف التي انتهت فيها ؟

يقول عبد الواحد المراكشي[31] : «فلم يزل أبو عبد الله... وأخوه كاتبين لأمير المسلمين إلى أن أخر أمير المسلمين أبا مروان عن الكتابة لموجدة كانت منه عليه سببها أنه أمره وأخاه أبا عبد الله أن يكتبا عنه إلى جند بلنسية حين تخاذلوا وتواكلوا حتى هزمهم ابن رذمير هزيمة قبيحة، وقتل منهم مقتلة عظيمة، فكتب أبو عبد الله رسالته المشهورة في ذلك، وهي رسالة كاد أهل الأندلس قاطبة أن يحفظوها، أحسن فيها ما شاء... وكتب أبو مروان رسالته

27) البيان المغرب ج 4 ص 87.

28) وثائق تاريخية جديدة لمحمود علي مكي.

29) المعجم : ص 150.

30) المعجب لعبد الواحد المراكشي ص : 258.

31) نفس المصدر ص : 259 ط. البيضاء.

في ذلك الغرض أفحش فيها على المرابطين وأغلظ لهم في القول أكثر من الحاجة».

يشك الأستاذ عبد الله كنون في صحة هذا الخبر، وقد نشر مقالته حول هذا الموضوع في مجلة دعوة الحق سنة 1960.

لقد عاد أبو عبد الله إلى الأندلس بعد أن أعفاه أمير المسلمين. ويظهر أنه بقي في مراكش بعد هذا الإعفاء الذي كان في العشر الأوائل من شهر شعبان سنة 523 هـ، وأن صلته بالبلاط المرابطي لم تنقطع بدليل رسالة كتبها عن علي بن يوسف من مراكش لخمس بقين من ذالحجة 523 هـ، كتبها بعد مرور ما يقرب من خمسة أشهر من إعفائه. وهذه الرسالة موجهة إلى أبي محمد عبد الله بن أحمد الوحيدي المالقي قاضي مالقة[32] وهذا الإعفاء لم يمنعه من الكتابة عن الأمراء المرابطين في الأندلس عندما عاد إليها كما سنبين ذلك.

ونرجح أن يكون أبو عبد الله قد عاد إلى مراكش عند ما علم بمرض أخيه ومكث بجواره إلى أن فارق الحياة وعاد إلى قرطبة.

يقول المراكشي : «رجع إلى قرطبة بعد ما مات أخوه أبو مروان بمراكش، وأقام هو بقرطبة إلى أن استشهد في داره أول الفتنة الكائنة على المرابطين»[33].

فالفترة التي يشير إليها المراكشي هي السنة أو السنتين الأخيرتين من حياة أبي عبد الله، لأن وفاة أبي مروان كانت سنة 539[34].

ووفاة أبي عبد الله كانت سنة 540، أما ما قبل هذه الفترة أي منذ نهاية سنة 523 إلى وفاة أبي مروان فالمراكشي لم يشر إليها في خبره، ولعل سبب هذا الاغفال راجع إلى كون المنصب الذي شغله أبو عبد الله بعد مغادرته ديوان مراكش كان أقل أهمية، أو لعل هذا الإغفال عائد إلى أن عبد الواحد المراكشي لم يطلع على الرسائل التي كتبها ابن أبي الخصال بعد سنة 523، أو لعله قصد الاختصار كما يشير إلى ذلك في ثنايا كتابه، وليس بوسعه أن يورد جميع الأخبار المتعلقة بشخص واحد.

ونشير الآن إلى بعض الرسائل التي كتبها ابن أبي الخصال بعد سنة 523 :

- فقد كتب رسالة يخاطب فيها القائد أبا يعقوب ينتان بن علي مهنئا بقتله غشتون والبشنقة وذلك سنة 524[35].

- وهناك رسالة كتبها عن أهل جزيرة شقر يهنئ الأمير أبا محمد تاشفين بن أمير المسلمين بولاية العهد سنة 533 هـ، كما كتب عن أهل الجزيرة يعزى أمير المسلمين في وفاة الأمير أبي محمد سير ولي العهد.

- ثم إن صاحب الإحاطة[36] يذكر أبا عبد الله من بين كتاب أبي محمد تاشفين بن علي، فوصفه بالرئيس العالم، كما أثبت له في الجزء الثاني قصيدة مدح فيها الأمير أبا محمد[37].

- وهناك رسالة أخرى كتبها إلى الرئيس أبي زكرياء يحيى بن علي (ابن غانية) يهنئه بعد عودته من بعض متوجهاته وذلك في أخريات محرم أربع وثلاثين وخمسمائة (534)[38].

وهكذا تؤكد هذه الوقائع كلها بأن أبا عبد الله عندما عاد إلى قرطبة إثر مصرع ابن الحاج لم يلزم داره كما ذهب إلى ذلك ابن الأبار.

وفاته :

يقول ابن الأبار في معجمه[39] : لقد حمت منيته بالفتنة الحمدينية، فاستشهد رحمه الله ودفن يوم الأحد

32) انظر وثائق تاريخية جديدة لمحمود علي مكي.
33) المعجب ص 260.
34) الذيل والتكملة السفر : 5 ق : 1، ص 47.
35) انظر مخطوط بنمنصور ورقة : 22 بالخزانة الملكية.
36) الإحاطة ج 1 ص : 450.
37) نفس المصدر ج 2 ص : 392.
38) انظر مخطوط بنمنصور : ورقة 31.
39) المعجم : ص 152.

الثالث عشر من ذي الحجة سنة أربعين وخمسمائة وكان دفنه ضحى بمقبرة ابن عباس».

أما ابن الخطيب فقد أورد في الإحاطة[40] خبرين عن مصرع ابن أبي الخصال.

ـ الخبر الأول نقله عن ابن بشكوال جاء فيه : «ومن خط الحافظ المحدث أبي القاسم ابن بشكوال رحمه الله : كان ممن أصيب أيام الهرج بقرطبة فعظم المصاب به الشيخ الأجل... أبو عبد الله ابن أبي الخصال، ألفي مقتولا قرب باب داره بالمدينة، وقد سلب ما كان عليه بعد نهب داره واستئصال حاله وذهاب ماله وذلك يوم السبت الثاني عشر من ذي الحجة من سنة أربعين وخمسمائة... ونعي إلى الناس وهم مشغولون بما كانوا بسبيله من الفتنة فكثر التفجع لفقده والتأسف على مصاب مثله وأجمعوا على أنه كان آخر رجال الأندلس علما وحلما...».

ـ والخبر الثاني لم ينسبه إلى مصدر معين فاكتفى بعبارة : قال غيره جاء فيه : «قتل بداخل مدينة قرطبة يوم دخلها النصارى مع مليكهم طليطلة، يوم قيام ابن حمدين واقتتاله مع يحيى بن علي بن غانية المسوفي يوم الأحد لثلاث عشرة مضت من ذي الحجة عام أربعين وخمسمائة[41] فقتله بربر المصامدة لحن ملبسه ولم يعرفوه وقتلوا معه ابن أخته».

تشير هذه المصادر كلها إلى أن وفاته لم تكن طبيعية وتؤكد على أن مصرعه زامن الفتنة الحمدينية» أو «أيام الهرج بقرطبة» أو «يوم دخلها النصارى يوم قيام ابن حمدين واقتتاله مع يحيى بن علي بن غانية».

يتبين لنا من هذه العبارات أن الظرف الذي كان يسود قرطبة كان دقيقا وصعبا.

ـ فمن جهة هناك الفتنة الحمدينية. وقد قام بها القاضي أبو جعفر بن حمدين ابن محمد بن علي بن حمدين، كان قاضيا لقرطبة. ثار بها عندما ضعف أمر المرابطين في سنة 539. وأعلن نفسه أميرا عليها، وتلقب باسم المنصور بالله وحكمها في البداية نحو أسبوعين ثم انتزعها منه سيف الدولة بن هود لأيام قليلة، وعاد ابن حمدين إلى رئاستها واستمر في رئاسة قرطبة زهاء عشرة أشهر، ثم انتزعها منه ابن غانية، وفر ابن حمدين ناجيا بنفسه وتوفى سنة 546[42].

ـ ومن جهة أخرى فقد رأى النصارى في اضطراب أحوال الملثمين فرصة يضغطون فيها على أمراء المرابطين المتبقين في الأندلس. ومن هؤلاء القائد أبو زكرياء يحيى بن علي المسوفي المعروف بابن غانية، وكان يحكم قرطبة، فتحرك الفونشو نحوها بعد أن استولى على حصون عديدة، ونزل له ابن غانية عن بياسة وأبدة وتغلب على أشبونة وطرطوشة والمرية وماردة وأفراغة وشنترين وشانت مرية، وطالب ابن غانية بالزيادة على ما بذل له أو الأفراج على قرطبة. وهنا يقف القائد المرابطي وقفة راعي فيها أولا شؤون المسلمين قبل شؤون أمر الدولة المرابطية، إذ أرسل ابن غانية إلى بدران بن محمد أمير الموحدين واجتمعا باستجة، وضمن له بدران أمان الخليفة عبد المومن علي أن يتخلى له عن قرطبة وقرمونة ففعل ثم لحق بغرناطة وبها توفي سنة 543.

وانتهز النصارى الفرصة للاستيلاء على قرطبة ولكن ثوار الأندلس سارعوا لحمايتها، كما أرسل عبد المومن الموحدي جيوشا لنجدتها وأفرج عنها الفونشو بعد أيام من مدخله.

ليس هنالك حالة أصعب من هذه الحالة التي مرت بها قرطبة :

فابن غانية يريد أن يقر النظام ويخمد الفتن، والفونشو يريد أن يستولي على المدينة، والموحدون في صراعهم مع الزمن لاستكمال سيادتهم على الأندلس، وهكذا فقد اختلط الأمر على القرطبيين : فمن يحكمهم ؟ ابن غانية ؟ ابن حمدين ؟ ابن هود ؟ الفونشو ؟ الموحدون ؟.

40) الإحاطة ج 2 / 416.

41) نفس المصدر 2 / 418.

42) الحلة السيراء لابن الأبار.

وهذا الغموض سيدفع ولاشك الكثيرين من المغامرين إلى الاستهتار بالسلطة ويندفعون إلى النهب والسلب والقتل، وقد راعت هذه الحالة من كان يميل إلى النظام واحترام سيادة الدولة كابن أبي الخصال. فعز عليه أن يرى قرطبة فريسة هذه الفوضى العارمة، فبادر إلى العمل على التخفيف من هذه الاضطرابات مقتنعا بأن صوته سيسمع نظرا لمكانته في نفوس القرطبيين، فخرج إلى باب داره ناهيا وزاجرا، يقول ابن الأبار[43] : «فمر به بعض المصامدة وقد ارتكبوا من الجرائم واستحلوا من المنكرات ما حمل ابن أبي الخصال على زجرهم والإغلاظ لهم ثقة بمكانته وفضله، وبينما ابن أبي الخصال مشتغل بمن أمامه من الثائرين غدره آخر من ورائه فذبحه ثم طرح لتوه صريعا». نص صريح في تصوير الحالة المتردية التي عمت قرطبة وغالبا ما يسود مثل هذا الاضطراب الفترات التي تنتقل فيها السلطة من حاكم إلى آخر، ولا غرابة إذا رأينا حياة الأفراد في خطر فيسقط عدد كبير من الأبرياء، ومن هؤلاء الذين سقطوا أديبنا أبو عبد الله ابن أبي الخصال. وكان لمصرعه صدى عميق في نفوس القرطبيين عامة.

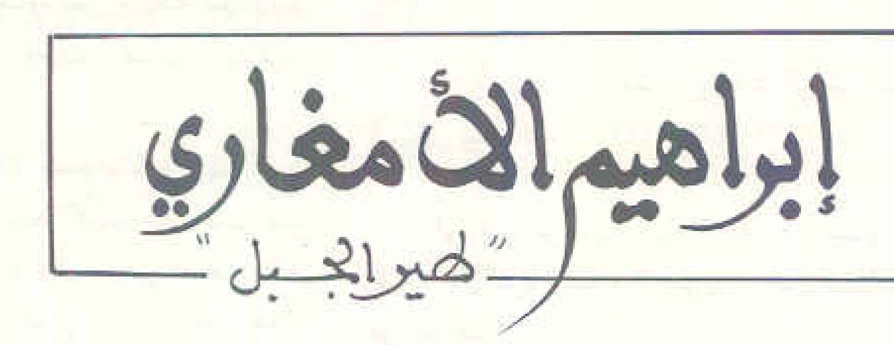
وهكذا يلقى ابن أبي الخصال مصرعه وهو الذي ناضل منذ شبابه لأجل تحصيل العلم والأدب، وخلال اكتمال رجولته طمع في الظهور ببرعة عن طريق المؤامرة واللاشرعية، ولكن هذه الشهرة التي رغب فيها واتته عندما كان كاتبا في ديوان علي بن يوسف من سنة 507 إلى سنة 523 أما المرحلة الثالثة فقد اتسمت بنوع من الاستقرار إذ نراه يعود إلى الأندلس وبالذات إلى قرطبة حيث يواصل الكتابة عن بعض ولاة المرابطين، ويقدم في الأخير حياته في سبيل الحفاظ على هذه الدولة التي عاصرها منذ ظهورها إلى عهد سقوطها.

وقد أوصى أبو عبد الله في قصيدته المعروفة بالمسمطة في منادب قرطبة والزهراء بأن يدفن في قرطبة[44].

فيا صاحبي إن كان قبلك مصرعي
وكنت على عهد الوفاء والرضا معي
فحط بضاحي ذلك الترب مضجعي
وذرني فجار القوم غير مروعي
وعندهم للجار أمن ومرحب

43) المعجم ص : 152.

44) انظر المخطوط رقم 519 ص 112.





إبراهيم بن أحمد بن عبد الله بن حسين الأمغاري.
كنيته أبو إسحاق، وأبو سالم.

ينتهي **نسبه** إلى جده : أبي عبد الله محمد بن أبي جعفر إسحاق أمغار، الصنهاجي الذي كان برباط تيط انفطر (عين الفطر) قرب أزمور. وقد اختلف المؤرخون في نسب بني أمغار : يعتبرهم البعض علويين حسنيين أو حسينيين كابن عبد العظيم الزموري، ومحمد بن جعفر الكتاني ومحمد بن علي الدكالي... في حين لا يقر آخرون بشرفهم، ويكتفون بالإشارة إلى صلاحهم وتقواهم، كابن الزيات، وصاحب مفاخر البربر، وابن مرزوق وابن قنفذ...

لقبه: «**طير الجبل**» لم يرد في الصفوة[1] ولا في باقي المصادر التي اعتمدت عليه، ورددت مقالته بالنص[2]، وورد عند ابن المؤقت في «السعادة الأبدية»[3]، فقد قال بعد ذكر اسمه ونسبه «المعروف عند العامة بطير الجبل» (ويطلق هذا اللقب كذلك على ابن مشيش دفين جبل العلم)، ويرمز لخلوته الاختيارية بجبل كيك، والتي مازالت من أهم المزارات إلى الآن[4].

لم تذكر المصادر تاريخ ولادته، في حين قال الأفراني بأن وفاته كانت سنة اثنتين وسبعين وألف عن سن عالية، (يقال أنه أناف على المائة)[5]. ويؤكد ذلك وجود جده عبد الله بن حسين المتوفى سنة 976 هـ / 1568م وأحمد ابن موسى السملالي المتوفى سنة 971 هـ / 1563م من بين شيوخه. فإذا أخذنا بعين الاعتبار سنه عند أخذه عن الشيخ الأخير، قدرنا تاريخ ميلاده بعيد منتصف القرن العاشر للهجرة / منتصف القرن 16م.

نشأ في بيئة صوفية محضة بزاوية تامصلوحت التي أسسها جده عبد الله بن حسين، بتوجيه من شيخه عبد الله

---

1) الصفوة 149 ـ 151.
2) سنذكرها في الأخير.
3) 2 / 109.
4) في الآداب الشعبية ما يفيد تعود العامة على اختيار ألقاب لصلحائهم تتصلُ ببعض صفاتهم أو أحوالهم أو مذاهبهم، فأبو العباس السبتي مثلا : هو (مول البلاد)، والجزولي هو (صاحب الدليل)، والغزواني (مول القصور)...
5) الصفوة 151، كانت وفاته قبل منتصف جمادى الأولى من 1072 وهو التاريخ الذي تسلم فيه ابنه محمد الوافي ظهير تقديمه على الزاوية وتمتيعه بما كان يتمتع به والده.

الغزواني. وقد حدثنا «ابن عسكر» عما كانت عليه الزاوية من ازدحام الزوار، وما كان يقدم لهم من طعام[6] عندما ولي أمرها أحمد بن عبد الله والد المترجم له. وقال عنه : (ناهيك به فضلا وكرما وسخاوة نفس ونزاهة فعل وعلو همة... صحبته مدة مديدة، وحمدت صحبته، وشكرت أفعاله الجميلة)[7].

في سير الأولياء حلقات متشابهة ترويها كتب المناقب والطبقات، يتم فيها تسليط الأضواء على الولي منذ طفولته أو صباه، تعظيما لمكانته وتلميحا إلى مقامه. فقد انتبه الجزولي إلى الصبي عبد العزيز التباع ورافقه خلال زيارته القصيرة لمراكش إلى بيت والده بحي القصور، وأوصاه به خيرا[8]، وأثار انتباهه الصبي عبد الكريم الفلاح، فجزّ خصلات من شعر رأسه[9]، على عادة الجزوليين مع التائبين. وللتباع نفسه موقف مشابه مع أبي عمرو المراكشي عندما حمله إليه والده، وهو صغير السن. «فعمره وثمره» كما قال[10]... أما إبراهيم الأمغاري فقد باركه ابن موسى عند زيارته لعبد الله بن حسين بالزاوية في بعض قدماته على السلطان الغالب بالله، وتنبأ له بمقام عال في التصوف. وكان أكثر وضوحا من سابقيه بتحديد المكان الذي سيشتهر فيه أمره (كيك)[11].

وعلى كل حال فقد أتيحت الفرصة للشيخ أحمد بن موسى لمحادثة المترجم له، وتيقنه، إذ أنه إلى جانب عبد الله بن حسين من شيوخه في التصوف.

في حين أخذ باقي العلوم على عدد من الشيوخ، ذكرت المصادر ثلاثة منهم :

- أحمد المنجور المتوفى سنة 995 / 1587م.
- عبد الله بن طاهر الحسني المتوفى سنة 1045 هـ /1635.
- وأبا مهدي عيسى بن عبد الرحمن السجتاني المتوفى سنة 1062 / 1651 ـ 1652[12].

في حين لم تذكر له رحلة علمية. ويبدو أنه درس طويلا بمراكش، فشيخاه الأخيران من أبرز علماء المدينة في عصرهما[13].

وعرفت المدينة في هذه الفترة اضطرابات وعدم استقرار، بسبب المواجهات بين أبناء المنصور حول الحكم : زيدان، وأبي فارس والشيخ المأمون. فلا يكاد يستقر بها أحدهم حتى يسقطه الآخر. وزاد الموقف احتداما دخول ابن أبي محلي المدينة وطرد زيدان منها، واستعانة هذا الأخير بأبي زكرياء الحاحي الذي استردها وسلمها له بعد معركة فاصلة بجبل جليز على أبواب مراكش، لذلك كان زيدان يخاف على نفسه من التفاف الناس حول شيوخ التصوف، وخاصة وأن التجارب قد أثبتت خطورة ذلك (نموذج : الدلائيين بالأطلس المتوسط، السملاليين بإيليغ...). فكان شديد المراقبة لزوايا المدينة التي تقلص نشاطها، وأشهرها : الغزوانية، والفلاحية، والقسطلية... وهكذا فعند ما اشتهر أمر إبراهيم الأمغاري، وتوسم الناس فيه الخير، فاجتمعوا عليه وتلمذوا له، أمر زيدان بالقبض عليه فخرج من المدينة إلى «كيك» من بلاد سجتانة[14].

---

6) قدر عدد الحاضرين في موسم الزاوية باثنى عشر ألفا ونيف وخمسمائة ذبح لهم بين يوم وليلة 700 من الغنم و200 من البقر و20 من الإبل.
7) الدوحة 107.
8) ممتع الأسماع 34 ـ 35.
9) إظهار الكمال 272 والإعلام 176/8 ـ 177.
10) شمس المعرفة 52، مخ خاصة والإعلام للتعارجي 331/1.
11) تقول الرواية أن الصبي كان يدرج بين يدي جده، فطلب الجد من الشيخ أن يدعو له، فقال : إن الدجاجة (كانت بالقرب منهم) تقول في قرقرتها كيك ـ يحكي صوتها ـ فهل عندكم موضع بهذا الاسم. قال الجد : نعم، فقال الشيخ : إن هذا الصبي سيظهر أمره ويعلم سره بذلك الموضع، (الصفوة 150، المناقب 127 الإعلام للتعارجي 181/1).
12) الصفوة 151.
13) انظر في ترجمتهما الصفوة : عبد الله بن طاهر ص 3 ـ 4. والسجتاني 111 ـ 112.
14) الصفوة 150.

ولم ترد في المصادر تفاصيل عن هذا الخروج، ومن الوثائق التي تشير إليه رسالة قاضي تارودانت أبي زيد التامانارتي لمحمد بن أبي بكر يخاطبه فيها بمثل ما خاطب به هو بودميعة السملالي، وينهاه عن منازعة أهل تافيلالت، وما يهمنا منها أنه يخاف عليه أن يكون كالذين استزلهم الشيطان بالخروج على أولي الأمر. قال (...فاستعظموا ذلك منكم وأشفقوا عليكم أن تكونوا مثل من استزله الشيطان قبلكم أبي العباس الساوري وكشيخنا أبي زكريا الحاحي والمصلوحي وأبي كانون، حال ذلك بينهم وبين ما هم فيه من الهداية والإرشاد والتعليم والمواساة والأخذ بأيدي الضعفة وألقاهم في مهواة الهوان...)[15].

فنعته بالضلال، وجعله في مستوى ثائرين على الوضع هما أبو محلي وأبو زكريا الحاحي، فلا يبعد أن يكون نشاطه أخطر مما ورد في المصادر.

لذلك اختار لزاويته منطقة جبلية محصنة «كيك» تاركا زاوية تمصلوحت في السهل، حيث أسرته وعصبيته ومريدو والده وجده. فأضيفت إلى الزوايا الأمغارية بتيط، وأبزو، وتمصلوحت، وكان ذلك قبل سنة 1037 هـ / 1627م تاريخ وفاة زيدان وقد شاع ذكره، وانتشر أمره، فقصده المريدون من مختلف الجهات وخاصة قبيلة سجتانة. وحسب الإفراني فإنه (اجتمع لديه في يوم، ثلاثون ألف رجل، وتسعة آلاف امرأة)[16].

وقد جرى على عادة جده ووالده في الإطعام والعطاء الوفير. ساعده على ذلك غنى المنطقة بمراعيها ومزارعها وغللها ومواشيها، وما كانت تحمله إليه قبائلها من هدايا وأعشار. وكان يفصل بينهم أفرادا وقبائل، فيما يطرأ من منازعات شخصية وجماعية حول المياه والمراعي... وينهض كذلك بدور المرشد والمربي والمدرس، فعظمت مكانته. ولم تكد تمر أربع سنوات على وفاة زيدان، حتى سعى السعديون إلى مصالحته، فأقره الوليد في ذي القعدة من سنة 1041 هـ / 1631م هو وحفدة عبد الله بن حسين على عوائده المعروفة، وأبقى لهم التصرف في أجنتهم، ودعا إلى احترامهم وتوقيرهم[17].

وستستمر هذه العناية والاحترام بظهائر التوقير والإنعام على الأمغاريين عموما، بما في ذلك إبراهيم بن أحمد، وزاوية «كيك»[18].

طريقته الصوفية : للأمغاريين مكانة بارزة في التصوف المغربي : فسند أبي عبد الله (الكبير) محمد بن أبي جعفر الصنهاجي هو امتداد لسند أبي شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي، يرتفع إلى الجنيد، ويمتد إلى الشاذلي بواسطة أبي يعزى فأبي مدين فعبد الرحمن المدني الزيات وابن مشيش[19].

فهم يربطون بين الجنيد والشاذلي في حين أن أبا عبد الله محمد أمغار الصغير هو شيخ الجزولي مجدد الطريقة الشاذلية، ومؤسس الطريقة الجزولية. ويتصل إبراهيم بن أحمد الأمغاري بالجزولي بسندين :

1 - إبراهيم بن أحمد الأمغاري

عن جده عبد الله بن حسين

---

15) إيليغ قديما وحديثا ص 147.

16) الصفوة 150.

17) مراسلات مخزنية (مجموعة تمصلوحت) عند باسكون P. Pascon SLe Haouz de Marrakech T II

18) هنالك في المراسلات المذكورة أعلاه ظهائر توقير وإنعام على حفدة عبد الله بن حسين الأمغاري، منها تبرع السلطان لإبراهيم بن أحمد (المترجم له) بنوبته من ساقية الباشا، والإذن له في بيعها أو هبتها أو التصرف فيها...

19) انظر ما كتبه عن الأمغاريين د. محمد مفتاح في أطروحته : التيار والمجتمع في المغرب والأندلس خلال القرن 8 هـ مرقونة بخزانة كلية الآداب بالرباط، 1981 ص 168 - 172.

عن عبد الله الغزواني

عن عبد العزيز التباع

عن الجزولي

2 - إبراهيم بن أحمد الأمغاري

عن أحمد بن موسى السملالي

عن عبد العزيز التباع

عن الجزولي[20].

ولم تذكر له المصادر أورادا يداوم على قراءتها أو يأمر مريديه بترديدها، ولعل ما يربطه بالطريقة الجزولية هو قراءة مريديه لدلائل الخيرات، ليلة الجمعة، واجتماعهم للسماع بين الفينة والأخرى، ويضيف الإفراني قائلا (وربما تواجدوا ودخل معهم)[21].

أحواله : ومن غريب ما يساق في ترجمته ما يروى من تركه حلق الشعر والزينة إذا دخل شهر محرم، فإذا ليم على ذلك قال : (مما فعلنا هذا إلا امتعاضا لقتل الحسين)[22]، فهل كانت لديه ميول شيعية حقيقة، أم إنها وسيلة للفت الانتباه إلى أصوله العلوية الحسينية ؟

كما تنسب إليه كرامات في حياته[23]، واعتبره ابن المؤقت المراكشي من المتصرفين في قبورهم كحالهم في حياتهم[24]، وذلك شأن الأولياء - حسب كتاب التراجم - وقد قال الإفراني عن أحواله (كان آية من آيات الله في الواردات الإلهية والأحوال الصادقة، مع حسن سمت ومتابعة للسنة في أقواله وأفعاله)[25].

وقال الحضيكي : (...وكان له قدم صدق ومقام كريم في اتباع السنة وإحيائها، وإخماد البدعة وإمحائها)[26].

من أقواله المأثورة : (لا يأتينا إلا من أمنه الله، لأن مقامنا هذا مقام إبراهيم الخليل، ومن دخله كان آمناً). (دارنا دار سر لا دار علم).

ينطبق هذا على زاوية «كيك» بصدق، فقد كانت مقصد كل خائف وحائر يجد فيها الإنصاف والطعام والتربية الروحية، ولم تشتهر مدرسة للعلم بقدر ما اشتهرت محلا لقضاء الحاجات[27].

واستمرت في النهوض بهذا الدور حتى بعد وفاة إبراهيم الأمغاري على يد ابنه : محمد الوافي وحفدته من بعده، تدعمهم ظهائر التوقير والاحترام والإنعام التي كانوا يتلقونها من سلاطين الدولة العلوية[28]. إلا أنها قد تخلت في العقود الأخيرة عن هذه الأدوار التربوية الروحية لتصبح مجرد مركز اصطياف جبلي ليس إلا.

20) انظر في أخذ أحمد بن موسى عن التباع : مناقب الحضيكي 10/1. وفي أخذ إبراهيم، عن الصفوة 151.

21) الصفوة 151.

22) الصفوة 150 - مناقب 127.

23) قال الإفراني (كانت تعتريه أحوال يغيب فيها عن حسه ويتكلم بالمغيبات).

24) تحدث عن بعض ما شاهده من كراماته بنفسه. السعادة الأبدية 109/2 - 112.

25) الصفوة 149.

26) مناقب الحضيكي 127.

27) شاع عند العامة أن زيارة زاوية كيك، تساعد المرأة العاقر على الإنجاب، وهو الدور الذي كان معروفا لعبد الله بن حسين بتمصلوحت.

28) مكاتبات سلطانية عند باسكون. انظر الهامش 17.

المصـــادر والمراجـــع

- محمـد بن محمـد الســوسي المراكشي الإفراني تـ 1140 / 27 ـ 1728م.
صفـوة من انتشر من أخبـــار صلحـــاء القرن الحادي عشر
المطبعة الحجرية بفاس دون تـاريخ. ص 149 ـ 151.

- محمـد بن أحمـدْ الســوسي الحضيكَي تـ 1189 / 1775م.
طبقات الحضيكَي.
المطبعة العربية بـالـدار البيضـاء 1357 / 1938 جـ 1 / 127.

- محمـد بن محمـد بن المـؤقت المراكشي 1369 / 1949.
السعادة الأبديـة في التعريف بمشـاهير الحضرة المراكشية
المطبعة الحجرية بفاس 1335 ج 109/2 ـ 112.

- عبـاس بن إبراهيم المراكشي التعـارجي 1379 / 1959م.
الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام
المطبعـة الملكيـة الربـاط 1974 ـ 1 ص 181 ـ 182.

- محمد المختار السوسي 1383 هـ / 1963م.
إيليغ قديما وحديثا.
المطبعة الملكية ـ الرباط 1966 ص 147.

- عبد الوهاب بمنصور
أعلام المغرب العربي
المطبعة الملكية الرباط 1979. 1 / 149 ـ 150.

P. Pascon
– Le Haouz de Marrakech
2 T. CNRSS Paris, INAV Rabat 1977.

التعديل والتجريح لمن خرّج عنه البخاري في الجامع الصحيح

للدكتور أحمد لبزار

نص العرض الذي قدم به الأستاذ أحمد لبزار أطروحته بدار الحديث الحسنية لنيل درجة دكتوراه الدولة في موضوع «التعديل والتجريح لمن خرج عند البخاري في الجامع الصحيح» لأبي الوليد الباجي.

أمام لجنة تتكون من الأساتذة.

- الدكتور محمد بنشريفة مشرفاً ورئيساً.
- الدكتور محمد الكتاني.
- الدكتور عبد السلام الهراس.
- الدكتور إبراهيم حركات.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد خاتم النبيئين وإمام المرسلين وعلى آله وصحابته ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. **﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾. ﴿وقل ربي زدني علما﴾.**

سيدي الرئيس المشرف.

أصحاب الفضيلة الأساتذة أعضاء اللجنة المحترمين.

أيها السادة والسيدات.

أحييكم جميعا بتحية الإسلام.

وبعد :

فموضوع هذه الرسالة هو كتاب : «التعديل والتجريح لمن خرج عنه البخاري في الجامع الصحيح» من تأليف أبي الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبي الباجي الأندلسي، تحقيق ودراسة.

يتألف هذا البحث من قسمين رئيسيين :

الأول يتناول مقدمة التحقيق.

والثاني يتضمن نص الكتاب.

فبخصوص المقدمة فإنها تشتمل على افتتاحية وجيزة ومدخل وبابين.

أبرزت هذه الافتتاحية دواعي اختيار الموضوع وأهميته وقيمته العلمية وما يتعلق بذلك من تحقيق التراث بصفة عامة وما خلفه الغرب الإسلامي بصفة خاصة، ومساهمته في بناء صرح الحضارة الإسلامية في مختلف

ميادين الفكر الإنساني، يشهد له بذلك ما تزخر به الخزانات العالمية شرقا وغربا، وأنه كان حاضرا في زمن مبكر من تاريخ الإسلام بالنسبة لمختلف ألوان المعرفة، ولاختيار هذا الموضوع عدة اعتبارات منها :

أولا : اتصاله بالسنة النبوية المشرفة اتصالا مباشرا وخصوصا الجامع الصحيح للبخاري الذي كادت تجمع الأمة الإسلامية على تفضيله على أي كتاب بعد كتاب الله عز وجل، وألفت حوله مؤلفات ودراسات مهمة.

ثانيا : كونه يمثل عصر ازدهار الحضارة الإسلامية في القرن الخامس الهجري بالأندلس ويبرز المساهمة الفعالة في علوم الحديث بالمغرب تمشيا مع المشرق جنبا إلى جنب، إذ لم يسبقه في التعريف برجال الجامع الصحيح للبخاري خاصة غير الكلاباذي أو ابن عدي الذي اقتصر على الشيوخ دون باقي الرواة.

ثالثا : رسوخ الميل المتحمس والرغبة الملحة لدى الباحث في نفض الغبار عن التراث وتقديمه ميسرا حسب الإمكان للباحثين.

رابعا : معايشتي مؤلفات أبي الوليد الباجي طيلة مدة إنجاز رسالة دبلوم الدراسات العليا والتي كانت عبارة عن تحقيق رسالة من رسائله.

خامسا : الشعور بمسؤولية تحقيق التراث الأندلسي على عاتق الباحثين المغاربة قبل غيرهم.

ولهذا وذاك، قررت أن أبقى متصلا بإنتاج هذا الإمام الملكي الكبير أفحصه وأتأمل فيه علني أظفر بضالتي المنشودة، فوقع الاختيار على تحقيق أحد الكتابين : «أحكام الفصول في أحكام الأصول» أو «تبيين المنهاج في ترتيب الحجاج».

ثم لفت نظري من بين مؤلفاته المهمة المشهورة كتابه : «التعديل والتجريح لمن خرج عنه البخاري في الجامع الصحيح». والذي تفضلت الدكتورة فوقية حسين محمود بإهدائي صورة منه على ميكرو فيلم من معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة المصورة عن الأصل المحفوظ بخزانة نور عثمانية بتركيا جزاها الله أحسن الجزاء.

فراودتني فكرة تحقيقه ثم أخذت أتصفح أوراقه، فتبين لي من خلال ذلك أهميته العلمية وجدارته بالتحقيق، فسجلته موضوعا لهذه الأطروحة بدار الحديث الحسنية عمرها الله.

☆ ☆ ☆

المدخل :

جرت عادة المحققين أن يمهدوا للدراسة بنظرة موجزة عن عصر المؤلف : تاريخيا واجتماعيا واقتصاديا وثقافيا وسياسيا، أو بمدخل يمت بصلة للحقل الدراسي الذي ينتمي إليه النص المراد تحقيقه. وبما أنه سبق أن وطأت بالكلام عن عصر المؤلف في إعداد رسالة الدبلوم آثرت أن يتضمن المدخل التعريف بالسنة وحكمها والمصطلحات التي تقابلها عند المحدثين خاصة : الحديث، الخبر، الأثر.

وأشرت إلى أن السنة بمفهومها العام تنقسم إلى أقوال وأفعال وتقريرات وخلق وأخلاق وسيرة؛ وبالنسبة للقرآن تنقسم إلى ثلاثة أقسام : مبينة ومؤكدة ومنشئة.

فالمبينة : تفصل ما أجمله القرآن كعدد الصلوات المفروضة والركعات وأنصبة الزكاة.

والمؤكدة : تشتمل على ما اشتمل عليه القرآن كوجوب أداء الأمانة وتحريم القتل بغير حق.

والمنشئة : تثبت حكما لم يذكره القرآن صراحة كتحريم نكاح المرأة على عمتها أو خالتها.

ثم تطرقت للحث على طلب العلم ونشره وتحرج الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين من الإقدام على رواية الحديث حتى لا يكتم العلم والاحجام عنها فرارا من

الكذب على النبي ﷺ، وأخذ معظمهم بمذهب ثالث وسط حاسم يتسم بتبليغ الأمانة لتوقف ما نزل من القرآن على السنة تبيينا وتأكيدا وتثبيتا.

فلم يكن آنئذ بد من رواية السنة وتحري الصدق والأمانة في تأديتها. الأمر الذي هداهم إلى البحث في رجال السند جرحا وتعديلا.

ثم انتقل المدخل إلى تعريف علم الجرح والتعديل ونشأته ومراحله التاريخية بالنسبة للكتاب والسنة، وعمل الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم من المحدثين ابتداء من قوله تعالى بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين**﴾ صدق الله العظيم.

وختم المدخل بمشروعية الجرح والتعديل.

☆ ☆ ☆

وخصص الباب الأول لترجمة المؤلف، اسمه وكنيته ونسبه وأسرته ونشأته ودراسته بالأندلس، وفصل الكلام بعض الشيء عن رحلته لأداء فريضة الحج ورواية الحديث والتثبت فيه وسماعه مجموعة لابأس بها من المؤلفات من أفواه مؤلفيها، أو بواسطة أساتذته. ودرسه الحديث وعلومه والفروع والأصول على كبار الشيوخ بالمشرق - وبينت ما للرحلة من أهمية لدى معاصريه ومن سبقهم من أهل بلده وحسن اختيارهم بالدرجة الأولى قراءة نافع مقرئ المدينة - مع عدم إغفالهم باقي القراءات - وتمذهب معظمهم بمذهب مالك إمام دار الهجرة، فهي اختيارات ذات اقتناع علمي معززة بمحبة النبي ﷺ -.

واستغرقت رحلته ثلاث عشرة سنة، أخذ فيها عن شيوخه بمصر ومكة والكوفة وبغداد والموصل والشام باحثا عن حلقات الدرس حيثما حل وارتحل، لا فرق عنده بين الشافعية والحنفية والحنابلة والأشاعرة والمعتزلة، مع تمسكه بالمذهب المالكي، فتبرز في الحديث والفقه والأصول أيما تبرز، فأصبح من كبار الحفاظ وأئمة المسلمين.

وذيل الكلام عن دراسته بتراجم موجزة لجملة من شيوخه وبعض مروياته عنهم.

وبعد النشأة والدراسة، تناولت الفترة العملية من حياته ولها جوانب أبرزها الكد من أجل العيش والتدريس والمناظرات والتأليف والإصلاح السياسي.

فبعد ما كان استأجر نفسه لحراسة الدروب ليلا ببغداد إبان الدراسة بالمشرق للاستعانة بضوئها على النسخ والمطالعة، وبأجرتها على لوازم العيش وتوفير الورق والحبر، عاد إلى بلده وطفق يشتغل بضرب ورق الذهب للغزل وعقد الوثائق والشروط، وولي منصب القضاء والفتوى والشورى، ثم السفارة بين ملوك الطوائف. ولقبه الحميدي بذي الوزارتين.

والجانب الثقافي يلخص في ثلاث نقط :

1) عقد حلقات الدرس والرواية لطلاب العلم بالأندلس في مختلف الأمصار باستمرار منذ عودته إلى أن توفاه الله.

2) منافحته عن الدين الإسلامي عموما، والمذهب المالكي بوجه خاص، ويتجلى ذلك في مناظرته الشيعة بحلب بين يدي أميرها معز الدولة. ولما رجع إلى الأندلس وجد المذهب الظاهري ينتشر على يد ابن حزم، فاستدعي لمناظرته بميورقة بين يدي واليها أبي العباس أحمد بن رشيق، وناظر بمرسية أبا حفص الهوزني جد أبي بكر ابن العربي لأمه، كما نوظر عليه بدانية بين يدي أميرها إقبال الدولة علي بن مجاهد العامري، فتغلب على خصومه وأفحمهم في هذه المناظرات وغيرها، وانتصر للسنة والمذهب المالكي.

3) وبالإضافة إلى ما ذكر، كان لا يتوانى عن التأليف، وكانت له مذكرات يسجل فيها الوقائع والأحداث التي شهدها أو وقعت له في حله وترحاله، وتشتمل على معلومات غزيرة مهمة، كالخلافات والمناظرات وتراجم

المحدثين والفقهاء والمتكلمين على اختلاف مذاهبهم في الفقه والعقيدة وسماها : «فرق الفقهاء». ولم نقف عليها بعد، بيد أن الاقتباسات المتفرقة في بطون كثير من أمهات المؤلفات تدل على ذلك، ومن بينها على سبيل التمثيل لا الحصر : ترتيب المدارك للقاضي عياض ومستفاد الرحلة للتجيبي وتذكرة الحفاظ والمغني في الضعفاء للذهبي وروضة الأعلام لابن الأزرق ومعيار الونشرسي.

وكان له سعي فعال في الإصلاح السياسي بالأندلس على ثلاث مراحل، فحاول أولا أن يجمع كلمة ملوك الطوائف على رجل واحد، وعندما لم يساعده الحظ في هذه المهمة النبيلة، حاول من جديد أن يوحد صفوفهم ويجعل منهم حلفا وحصنا منيعا ضد محاربيهم من ملوك النصارى فلم يستطع.

ثم بعد ذلك فكر مع علماء بلده في استدعاء المرابطين من عدوة المغرب إلى الأندلس، ومات رحمه الله ولم يتحقق هدفه إلا بعد وفاته بخمس سنوات في وقعة الزلاقة على يد يوسف بن تاشفين، وكان هذا الأخير قبل ذلك احتاج إلى أموال ليستعين بها على تجهيز الجيوش المغربية وتقويتها على الجهاد في سبيل الله، فاستفتى علماء العدوتين المغرب والأندلس فأفتوه بجواز ذلك إسوة بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وكان من أبرز هؤلاء أبو الوليد الباجي لعدم ورود اسم غيره صراحة في معرض الكلام عن وثيقة المعارضة التي كتبها قاضي المرية، ولم يكن تجويز الباجي للفتوى في هذه النازلة وغيرها تقربا للسلطان ورغبة في الحظوة والنفوذ، بل كان يرى في ذلك مصلحة الأمة الإسلامية في الدنيا والأخرى. يدل على ذلك موقفه الحاد الذي وقفه مع أحمد المؤتمن بن أمير سرقسطة المقتدر بن هود، وكان يتفلسف فسأله أثناء انتظار فرغ أبيه قائلا : هل قرأت أدب النفس لأفلاطون ؟ فأجابه الباجي بالقصر على الفور إنما قرأت أدب النفس لمحمد بن عبد الله ﷺ.

ورسالته في الرد على الراهب الفرنسي على لسان أمير سرقسطة المقتدر ابن هود. مشهورة وغنية عن التعريف، وطبعت مرتين على صفحات مجلة الأندلس.

وبالتالي : فهو أستاذ الأساتذة. وشيخ الشيوخ والحفاظ، مالكي المذهب، أشعري العقيدة، سني، مفسر، محدث، فقيه، أصولي، متكلم، مناظر، أديب، نحوي، شاعر، وكان له سمت حسن وهيبة ووقار، مع تواضع وغزارة في العلم، لم يكن من المحدثين الذين يقتصرون على الرواية أو الدراية أو من الفقهاء الذين يستنبطون الأحكام وحسب، بل كان ناقدا للحديث سندا ومتنا، يميز بين الصحيح والسقيم والعلل والرجال ضعفاء وثقات، جامعا بين علوم التفسير والحديث والفقه والأصول الفقهية والكلامية، يحسن التصرف في معلوماته ويوظفها بطريقة موضوعية مركزة، فصيح اللسان، يناظر ويعبر بما شاء عما شاء. ولا تعوزه الحجة الواضحة والدليل المقنع.

وفي هذا السياق، جرنا الحديث إلى سرد مجموعة لابأس بها من آراء العلماء فيه وثنائهم عليه، بيد أن الأمر لا يخلو من طعون منافسيه ومعاصريه، ولكنها لم تنل من شخصه القوي. فعرف الناس قدره، وشهدوا له بذلك في حياته وبعد وفاته.

وزيادة في تسليط الأضواء على هذه الشخصية الإسلامية الفذة، لم أدع الفرصة تمر دون أن أترجم لجملة من تلاميذه من كبار الأساتذة والشيوخ والحفاظ وذكر بعض مروياتهم عنه من مؤلفاته وغيرها، وخصوصا الجامع الصحيح للبخاري الذي تنافست الأجيال في رواية سلسلة سنده بالمغرب والأندلس.

وتعرضت في هذا الصدد لمؤلفاته تعريفا وتوثيقا، وبينت أنها تشتمل على التفسير والحديث والفقه والأصول وتراجم الرجال.

وأزحت الستار عن نسبة مختصر مشكل الآثار إليه خطأ وأنه من تأليف القاضي أبي الوليد بن رشد الجد لا القاضي أبي الوليد الباجي.

☆ ☆ ☆

وخصص الباب الثاني للنص المحقق وهو كتاب «التعديل والتجريح لمن خرج عنه البخاري في الجامع الصحيح».

فوصفت المخطوطة بأنها تشتمل على 188 ورقة، وأنها كتبت بتاريخ تسعة وسبعمائة هجرية بخط مشرقي نسخي عتيق مليح مع تلوين الفقرات البارزة. وهمشت بخط دقيق مغاير لا يكاد يقرأ لولا الاستعانة على ذلك بصحيح الترمذي، وهي خالية من اسم الناسخ والسماعات، وبها كثير من الأخطاء النسخية المتنوعة بالزيادة والتكرار والحذف والتصحيف والتحريف والتقديم والتأخير، وإبدال كلمة مكان أخرى ومخالفة القواعد النحوية، ووضحت ذلك بسبعة جداول، جدول لكل عنوان من العناوين السالفة الذكر، مشيرا إلى الصفحة والسطر من المطبوع الذي بين أيدينا لا المخطوط.

ووثقت نسبة هذا الكتاب إلى أبي الوليد الباجي من الداخل والخارج توثيقا لا يدع مجالا للشك في صحة هذه النسبة، مع التنبيه على اختلاف بعض من ترجم لأبي الوليد الباجي في اسم هذا الكتاب اختلافا ضعيفا لا يطفو على الحقيقة.

هذا والحديث يجر بعضه بعضا، فساقني إلى الكلام على منهج أبي الوليد الباجي في تأليفه لهذا الكتاب، فمهدت لذلك بلمحة مختصرة عن نشأة هذا الفن وبعض موضوعاته ومراحله، بمعنى أن المصنفين كانوا يترجمون لمختلف عامة الرواة دون تمييز بين كتاب وآخر، مقتصرين على الثقات أو الضعفاء أو هما معا، أو على ذكر تاريخ الوفيات أو على الطبقات، تاريخيا أو علميا أو بلدانيا إلى غير ذلك.

وكان حسب علمي أبو أحمد بن عدي (365 هـ) أول من ألف في تراجم شيوخ مؤلف خاص لكتاب خاص هو الجامع الصحيح للبخاري. ثم ألف في رواة هذا الكتاب، الكلاباذي، فالباجي.

وكتابه التعديل والتجريح لمن خرج عنه البخاري في الجامع الصحيح هو الذي يعنينا في هذه الدراسة.

فموضوعه مطابق لمسماه، يتضمن مقدمة في علم الجرح والتعديل وتراجم رجال ونساء أسانيد البخاري في الجامع الصحيح، والهدف من تأليفه ما أشار إليه المؤلف نفسه في أول الكتاب، وهو تلبية طلب شخص ما رغب إليه في ذلك. وليكون مدخله للناظر في هذا العلم إلى معرفة أهل العلم والعدل من غيرهم. ولما رجاه فيه من جزيل الثواب رحمه الله ونفع بعلمه آمين.

فاستخلصت تصميم الموضوع من هذا الكتاب حسب الخطوات التي سار عليها المؤلف. وبينت أنه جزأه لضخامته إلى سفرين.

افتتح الأول منهما بمقدمة فحرف الألف، وختمه بحرف الضاد.

وابتدأ الثاني بحرف العين إلى آخر حرف من الحروف الهجائية.

وقسمه إلى خمسة أقسام رئيسية غير متوازية تفرضها طبيعة الموضوع قلة وكثرة لأنه معجم.

وهي على التوالي : مقدمة ميدانية، فباب أسماء الرجال موزع على تسعة وعشرين حرفا. فباب الكنى، فباب أسماء النساء، فباب كناهن.

تشتمل المقدمة على الهدف من تأليفه لهذا الكتاب وموضوعه والخطة التي التزم بها في ترتيب الأسماء على الحروف الهجائية حسب النهج المغربي. وذكر أسانيد مصادره الشفوية والكتابية. ومدخل لعلم الجرح والتعديل مبوب لعشرة أبواب. والكلام على ذلك مفصل في موضعه.

وفي هذا الصدد. تعرضت لبعض أبرز السمات التي توضح منهجه في التعريف بالأعلام. وتتجلى فيما يلي :

يرسم للعلم صورة موجزة تتحد مع غيرها في الوضع العام الأساسي وتختلف معها في المعلومات الخاصة من راو لآخر، يعرفه باسمه أو كنيته ونسبه وولائه أو قرابته أو صفة خلقية أو علمية أو حرفة أو ولاية منصب مع الإحالة على الباب أو بعض الأبواب التي أخرج له فيها البخاري. وزيادة في الدقة يقول مثلا : في أول الجهاد أو في آخره. إلى غير

ذلك. يدلك بيسر على موطن الإحالة التي هو بصددها دون عناء رغم عدم وجود الطباعة في عصره. ويدرج أحيانا في الترجمة حديثا من الأحاديث التي رويت عن صاحب الترجمة. يضع العلم في وسط سلسلة ثلاثية، مبتدئا ببعض تلاميذه الذين آخذوا عنه منتهيا ببعض شيوخه اللذين روى عنهم، معدلا أو مجرحا أو جامعا بين التعديل والتجريح، مستشهدا على ذلك بأقوال العلماء في الغالب. مستطردا ببعض الأخبار التاريخية المهمة أو المتعلقة بتدوين الحديث أو علم الجرح والتعديل، أو الخاصة بالمترجم نفسه، تثري الكتاب وتضفي عليه حلة قشيبة من الحيوية والمرونة والاستئناس، ويختم الترجمة بذكر تاريخ الولادة والوفاة إن وقعتا له كلا أو بعضا لتحديد شخصية العلم بدقة، وإزالة اللبس عنها، وترجم لمجموعة يسيرة من الأعلام مرتين. لأسباب ذكرت في محلها. وعندما تشتبه بعض الأسماء، يحكي الخلاف ويناقش ويستنتج ويرجح ويعلل في بعضها ويلزم الحياد إذا لم يتضح له الأمر في غيرها. ينطلق من أرضية صلبة في سرد الآراء، موافقا ومعارضا ومحققا. ويوثق الفكرة باقتباس النصوص ويوظفها توظيفا حسنا. وقد يتصرف فيها بخبرة ومهارة. وقلما يدع مؤلفا اقتبس من مؤلفاته دون نقد ومناقشة، وإبراز لبعض الأوهام حسب اجتهاده، بغض النظر عن مكانة ذلك المؤلف في ميدان علم الجرح والتعديل.

والمادة التي تناولها في هذا الكتاب عالجها بطريقة متسلسلة شيقة لا تشعر بالملل. استوعب فيه معظم أقوال السابقين قبله، وضمنه عصارة ثقافة علماء الجرح والتعديل شرقا وغربا فأعطى بسخاء لمن جاء بعده من أئمة هذا الفن في العالم الإسلامي رواية واقتباسا ونقدا ومقارنة، كالقاضي عياض، وابن رشيد السبتي وابن تيمية والذهبي وابن حجر العسقلاني، والقسطلاني ولهم ولغيرهم استشهادات من هذا الكتاب وباقي مؤلفاته.

وتأثر هؤلاء الأئمة الأعلام بهذا الكتاب دليل كاف على قيمته العلمية وأهميته، ومقارنته بكتابي : ابن عدي والكلاباذي تميزه عنهما بإضافات وتحقيقات مهمة، نهج فيها نهج كبار المحدثين الذين استفاد من خبرتهم وتجاربهم بفطنة وذكاء تضعه في مصاف أئمة الحفاظ جزاهم الله جميعا عن الإسلام أحسن الجزاء.

وخلاصة القول : يتسم منهجه بطابع الجدة والموضوعية والتركيز والأمانة العلمية والتفنن في العبارة بمختلف الأساليب.

ولا يفوتني هنا أن أنوه بمنهجيته التي تقرب من الكمال في عصر مبكر مع التنبيه إلى ما ينقصها من الدقة التي تسير عليها المنهجية الحديثة في عصرنا الحاضر. رغم أنها لا تنوء إلى المعطيات الغزيرة التي يفاخر بها الفكر الإسلامي غيره من الأمم آنئذ. والأثر الذي توارثه عنه كبار المؤلفين في هذا المضمار خير دليل لما ترمي إليه هذه الدراسة المتواضعة.

هذا ولم تقتصر الدراسة على محاسن الكتاب بل تعدت ذلك إلى المآخذ التي تظهر فيه من حين لآخر. لتتكامل وتعطي للمؤلف ما له وتبرز ما عليه. وإن كانت هذه الأوهام قليلة لا تكاد تظهر إلا نادرا ولا تنقص من قيمة الكتاب.

قال تعالى : ﴿**إن الحسنات يذهبن السيئات**﴾.

وبالنسبة لتحقيق هذا المخطوط.

اعتمدت في ذلك على نسخته الفريدة المحفوظة بخزانة نور عثمانية بتركيا، وحاولت جهدي ما استطعت أن أحصل على نسخ أخرى فلم أظفر ولو بقطعة منها أو مكان وجودها، الأمر الذي دفعني بإلحاح لتحقيق هذا المخطوط حتى لا يضيع رغم ما في ذلك من مصاعب. استعنت عليها بمراجعة معظم مصادر المؤلف التي عثرت عليها ما بين مخطوط ومطبوع، للمقابلة والتصحيح، والحقيقة أنني استفدت منها الكثير.

وبعد القراءة والنسخ وضعت رموزا في بداية كل ورقة وجها أو ظهرا، وعنيت بتحقيق النص قدر المستطاع، ولم أتصرف فيه بأية زيادة أو نقص غير ضروريين. حذفت الزيادة ونبهت عليها في الحاشية وأثبت ما سقط بين علامتي التنصيص مشيرا إلى مصدره في الهامش.

ووضعت للأعلام أرقاما متسلسلة ليست من عمل المؤلف ـ طبعا ـ من أول الكتاب إلى آخره، مبتدئا بالرقم (1). منتهيا بالرقم (1597)، ورقمت العلم برقم ترتيبي عندما يورده المؤلف لأول مرة، واكتفيت بالرمز (+) في حال ذكره للمرة الثانية مع التنبيه على ذلك في الحاشية بالعبارة «تقدم ذكره» مشيرا إلى رقم الصفحة والترجمة معا. وحققت أسماء الأعلام الواردة في صلب الكتاب ما أراه صوابا. وعرفت بمعظمها وأحلت على بعض مصادر الترجمة. وعنيت بتخريج الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ومعظم النصوص المقتبسة المتفرقة في ثنايا الكتاب من أصولها ما استطعت إلى ذلك سبيلا.

ولما كانت هذه النسخة فريدة وبها هوامش، التزمت بتذييل الصفحات بها، ووضعت أرقاما متسلسلة لهوامش كل صفحة، ولم أفصل بينهما بجدول، وذيلت المقدمة بثلاث صور من المخطوطة تمثل الأولى صدر الكتاب، وتبرز الثانية نهاية السفر الأول وبداية الثاني، والثالثة هي آخر ورقة من المخطوط.

وألحقت بآخر الكتاب فهرسة لأسماء الأعلام المجردة المترجم لهم المثبتة بالورقة الثانية من الأوراق الثلاث المضافة لأول المخطوط. وختمته باثنتي عشرة فهرسة وعندما يذكر العلم في عدة صفحات بالنسبة لفهرسة الأعلام الخاصة أميز رقم صفحة موطن ترجمته بين قوسين تيسيرا للفائدة.

ولا أثقل عليكم ببقية التفاصيل حتى لا يطول هذا العرض.

وفي الختام. لا يسعني إلا أن أشكر جزيل الشكر فضيلة الأستاذ الدكتور محمد بن شريفة الذي تفضل بقبول الإشراف على هذا البحث، والذي كان يضحي بأوقاته الثمينة، ولا يستنكف من كثرة ترددي عليه من حين لآخر، ويستقبلني بصدر رحب ووجه بشوش رغم مشاغله المتعددة.

وأصحاب الفضيلة الأساتذة : الدكتور محمد الكتاني، والدكتور إبراهيم حركات، والدكتور عبد السلام الهراس، الذين تفضلوا وقبلوا فحص هذا العمل الذي أخذ منهم الوقت الكثير، والجهد المتعب، وإنني لأمثل بين أيديهم جميعا لأستفيد من ملاحظاتهم وتوجيهاتهم القيمة، وأتنبه للأخطاء الفكرية والمنهجية والمطبعية التي لم أفطن إليها إلا بعد فوات الأوان، ولا ينجو منها عمل بشري جزاهم الله أحسن الجزاء.

ولا يفوتني هنا أن أشكر فضيلة الأستاذ العلامة السيد محمد المنوني الذي لا يبخل على الباحثين بوقته وإرشاداته وخزانة كتبه. وفضيلة الأستاذ الدكتور محمد فاروق النبهان مدير دار الحديث الحسنية الذي يبذل قصاري جهده للسير بها من حسن إلى أحسن، وتكوين أطر من العلماء متخصصة صالحة لمختلف الكليات المغربية وغيرها. وزوجي وبناتي اللاتي بذلن جهدا مشكورا في إنجاز هذا البحث.

ورحم الله السيد إدريس البحراوي محبس اللبنة الأولى من هذه البناية.

كما يجدر بنا هنا أن ننوه ونفخر ونشكر مؤسس هذه الدار صاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله وأيده، وأقر عينه بولي عهده المحبوب الأمير الجليل سيدي محمد، وصنوه المولى الرشيد وباقي الأمراء والأميرات. وهدى الأمة الإسلامية جمعاء لما فيه صلاحها. أنه على ما يشاء قدير وبالإجابة حدير.

هذا وأرجو الله تعالى أن يجعل هذا العمل المتواضع المنجز، خدمة للسنة النبوية المشرفة خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفع به عامة المسلمين آمين.

وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب وهو حسبي ونعم الوكيل. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. **﴿ربنا لا تؤاخدنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾.**

صدق الله العظيم والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

أعدها : أبو عمر الفاروق

كلمة السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية بمناسبة الاحتفال بذكرى مرور اثني عشر قرنا على ولادة الإمام مسلم بن الحجاج رضي الله عنه.

أقامت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة بتعاون مع دار الحديث الحسنية ندوة للاحتفال بذكرى مرور اثني عشر قرنا على ولادة الإمام مسلم بن الحجاج رضي الله عنه (202 ـ 262 هـ)، وقد ألقى معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري في حفلة الافتتاح نص الكلمة التالية :

بسم الله الرحمان الرحيم...

أحيي هذه الندوة المباركة والمبادرة الخيرة للاحتفال بالإمام مسلم بن الحجاج رضي الله عنه، وأشكر المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة في شخص مديرها العام الأستاذ عبد الهادي بوطالب، ودار الحديث الحسنية في شخص مديرها الدكتور محمد فاروق النبهان على تشريفهم لي بالدعوة لحضور هذه الجلسة الافتتاحية.

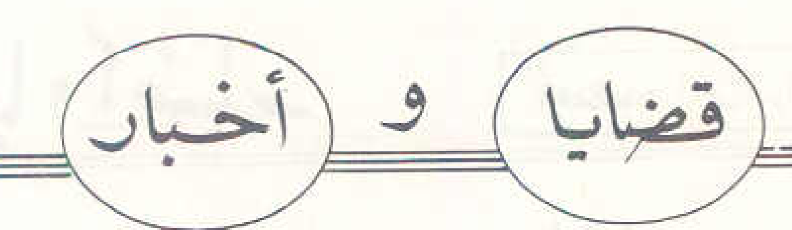
حضرات السادة الأفاضل :

مما جاء في الكلمة السامية التي توجه بها أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني إلى السادة العلماء عند اختتام الدروس الحسنية لهذه السنة :

«لقد وجدت في نفسي وذلك قبل البلوغ الشرعي ميولا عظيمة إلى علم الحديث، لأن هذا العلم يلم بجميع أنواع المعرفة الشيقة التي يتطلع إليها كل ذي فكر يريد أن يزيد في معلوماته حقبة بعد حقبة».

وهذا يدل على أن البيئة التي نشأ فيها جلالة الملك بيئة حديثية، ولا عجب فأجداده المنعمون كان فيهم عدد من أكابر علماء الحديث أصحاب التآليف الجيدة في هذا الفن، وكانت قصورهم لا تخلو من مجالس الحديث وعلومه، وكان اهتمامهم بجمع كتب الحديث في خزائنهم الخاصة وطبعها بعنايتهم أيام ظهرت المطبعة، وسعيهم لنشر هذا العلم وتشجيع أهله مما لا يزال التاريخ يذكره لهم بمداد الفخر، لا سيما وأن هذه الدولة ظهرت بعد فترات طغى فيها علم الفقه على غيره من العلوم، فعاد الاهتمام بالحديث وعلومه في أيامهم إلى جانب الفقه وغيره، واستمر هذا الاهتمام لا يكاد ينقطع أو يفتر، إلى أن بلغ ذروته ووصل قمته بتأسيس **دار الحديث الحسنية على يد جلالة الملك الحسن الثاني أطال الله عمره وخلد في الصالحات ذكره.**

ومن تمام عناية جلالته بالحديث وعلومه إصداره الأمر بإحداث كراسي علمية بكبريات مساجد المملكة



لتدريس مختلف العلوم الشرعية، ومن ضمنها كرسي للحديث وعلومه، ومنها تلك الدروس الحسنية المنيفة التي تلقى بقصره العامر طيلة شهر رمضان من كل سنة والتي أصبحت معلمة فكرية ومدرسة حديثية فريدة.

إن السنة النبوية الشريفة هي المصدر الثاني للتشريع، ولذلك كان من يشكك في قيمتها وصحتها يشكك في قيمة وصحة الشريعة الإسلامية.

وإن حديث رسول الله ﷺ وصلنا صحيحا سليما كما قاله رسول الله ﷺ بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط إلى منتهاه.

وإن صحابة رسول الله ﷺ كلهم عدول لا يتطرق الشك إلى عدالة أحد منهم، وكل من يطعن في صحابة رسول الله ﷺ إنما يريد قطع جذور هذه الشجرة المباركة التي هي شجرة الشريعة.

وإن علماء السلف رضوان الله عليهم خدموا حديث رسول الله ﷺ خدمة لا تضاهيها خدمة، حتى أننا إذا قلنا إنه لم يحظ علم من العلوم في تاريخ البشرية بما حظي به علم الحديث من خدمة وإتقان وتفان وإخلاص لم نخطئ.

لقد كانوا يتقربون إلى الله بخدمة علم الحديث.

وإننا نتحدى خصوم السنة والمشككين فيها بثلاثة رجال :

أولهم : إمام دار الهجرة مالك بن أنس رضي الله عنه.

وثانيهم : الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي رضي الله عنه.

وثالثهم : الإمام أبو الحسن مسلم بن الحجاج رضي الله عنه.

نتحداهم بمنهجهم العلمي الدقيق، وطريقتهم المثلى، وغزارة علمهم، وسعة أفقهم ومعرفتهم بالرجال والأسانيد، وطول باعهم في نقد الحديث.

وستفسر هذه الندوة المباركة إن شاء الله عن وجوه عديدة من شخصية الإمام مسلم، تكون دواء للشاكين، وقمعا للمشككين، وخطابا إلى شبابنا بأسلوب علمي يناسب فكره المتشبع بالمنهج العلمي لإقناعه بأن الإمام مسلما لو لم يكن له من عناصر الثقة به وبما نقله من حديث إلا ورعه وتقواه لكفاه ذلك برهانا وحجة على صدقه، فكيف وقد زاد على ذلك بما أشرنا إليه من علم وفقه وحفظ وصحة منهج.

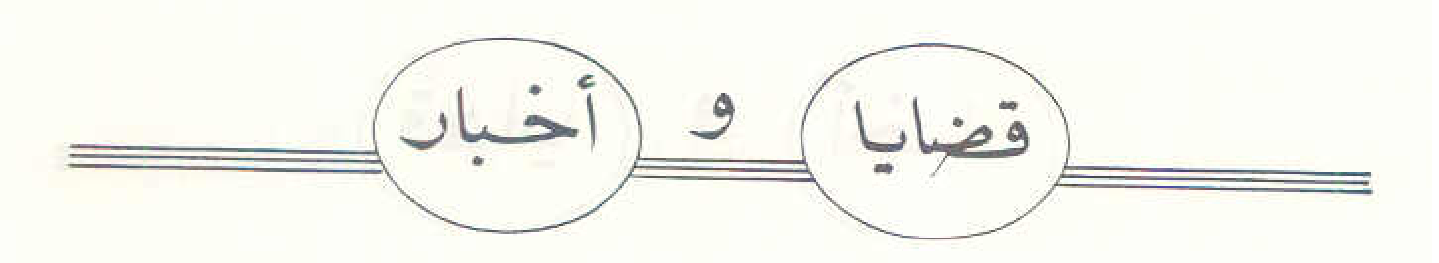
حضرات السادة :

القاعدة عندنا أنه لا يقدم أحد على البخاري، ونحن المغاربة بخاريون نحتفل بصحيح البخاري ما لا نحتفل بصحيح مسلم.

إلا أننا إذا عزونا الحديث للصحيحين سقنا لفظ مسلم لشدة محافظته على لفظ الحديث، وهذه مزية عظيمة امتاز بها، كما امتاز بحسن سوقه للحديث وجمعه طرقه كلها في مكان واحد. ولعل هذا ما جعل بعضهم يرجح كتابه على كتاب البخاري.

ومن باب الدعابة التي أشار إليها أخي وزميلي الأستاذ عبد الهادي بوطالب أقول فإن كانت الندوة إشارة إلى تقديم مسلم على البخاري فسنبقى على تقديمنا للبخاري، وهذه الندوة لا تغير من موقفنا شيئا، وإن كان الاحتفال بالإمام مسلم رضي الله عنه مصادفة سعيدة اغتنمتها الإرادات الخيرة الغيورة على الحديث النبوي الشريف دون قصد إلى تقديم أو تأخير، فلا حرج ولا عتاب.

كتب الله لهذه الندوة كامل النجاح، وكتب للقائمين عليها كامل النجاح. **وحفظ الله راعي الحديث والسنة النبوية الشريفة أمير المؤمنين وسبط النبي الكريم مولانا الحسن الثاني، وأقر عينه بسمو ولي عهده الأمير الجليل سيدي محمد، وصنوه السعيد الأمير مولاي رشيد وسائر أفراد أسرته الكريمة.**



اللجنة الوطنية للأوقاف والشؤون الاسلامية لإعداد مخطط المسار

تنفيذاً للتعليمات الملكية السامية التي تضمنتها الرسالة المولوية الموجهة إلى الوزير الأول حول مخطط مسار التنمية الاقتصادية والاجتماعية (1988 ـ 1992) ترأس السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الأستاذ عبد الكبير العلوي المدغري بقاعة سنية يوم الجمعة 21 شوال 1407 (18 يونيو 1987) الجلسة الافتتاحية للجنة الوطنية للأوقاف والشؤون الإسلامية.

وقد حضر هذه الجلسة صفوة من علماء المملكة وممثلو الجمعيات والهيئات ذات الطابع الاجتماعي بالإضافة إلى أطر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

وقد افتتحت الجلسة بتلاوة آيات بينات من الذكر الحكيم تناول بعدها السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الكلمة حيث حلل العناصر التي تستند إليها الوزارة في سيرها، والأهداف التي تتوخاها من عقد هذا الاجتماع، كما أعطى نظرة مستفيضة عن المنجزات التي حققتها الوزارة في إطار المخطط السابق وقد تشكلت ثلاث لجان لتدارس المخطط ومناقشته، وهي :

1 ـ لجنة الأوقاف برئاسة الأستاذ العابد الشاهد الوزاني.

2 ـ لجنة الشؤون الإسلامية برئاسة الأستاذ مولاي مصطفى العلوي.

3 ـ لجنة الشؤون العامة والاجتماعية برئاسة الأستاذ الحسين وجاج.

وقد تابعت اللجان أعمالها التي أسفرت عن توصيات ومقترحات أغنت المخطط.

وفي يوم 27 ذي القعدة (24 يوليوز) ترأس السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية بمقر الوزارة الجلسة الختامية التي حضرها السيد الوزير المنتدب لدى الوزير الأول المكلف بالتخطيط، والسيد والي صاحب الجلالة لولاية الرباط وسلا، بالإضافة إلى صفوة من العلماء ونظار المملكة وأطر الوزارة.

وقد ألقى السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية كلمة الاختتام التي تناول فيها بالدرس والتحليل الأعمال التي أسفرت عنها نتائج اجتماعات اللجان المنبثقة عن اللجنة الوطنية للأوقاف والشؤون الإسلامية، معربا عن اغتباطه للجدية التي مارست بها اللجان أعمالها، ومقدرا الجهود التي بذلها أعضاء اللجان.

وفي الختام رفع السيد الوزير برقية ولاء وإخلاص إلى أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني، نصره الله وأيده.



برقية ولاء وإخلاص إلى أمير المومنين

على إثر انتهاء أعمال اللجنة الوطنية للأوقاف والشؤون الإسلامية رفع السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية إلى أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني برقية ولاء وإخلاص باسم أعضاء هذه اللجنة.

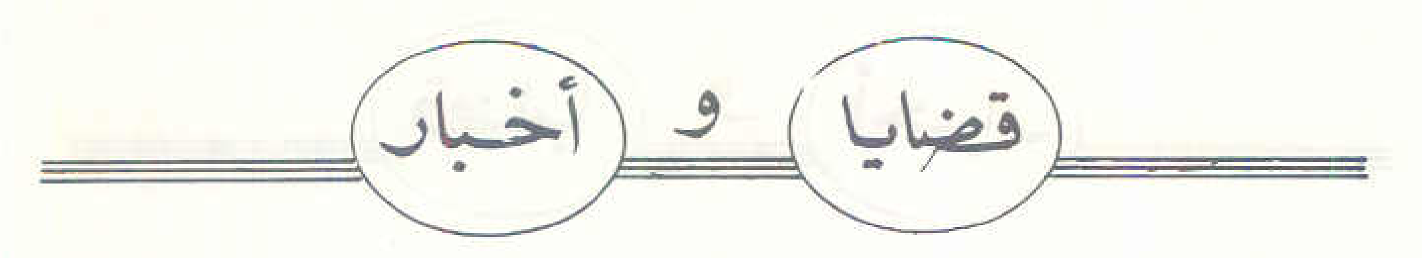
وفيما يلي نص البرقية :

مولاي صاحب الجلالة والمهابة أمير المؤمنين وحامي حمى الملة والدين - أدام الله نصركم وعزكم -.

وبعد : فبمناسبة اختتام أشغال اللجنة الوطنية للأوقاف والشؤون الإسلامية المكلفة بإعداد مخطط مسار التنمية، كلفني خدامكم الأوفياء أعضاء هذه اللجنة من رؤساء وأعضاء المجالس العلمية ونظار الأوقاف بالمملكة والقيمين الدينيين وأطر وموظفي وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، بأن أنوب عنهم في التعبير لجلالتكم - أدام الله عزها وسؤددها - عن ولائهم وتعلقهم بأهداب عرشكم المنيف، وتجندهم الدائم خلف جلالتكم في تحقيق ما تصبون إليه من خير للإسلام والمسلمين، واستعدادهم الكامل للسير قدما في خدمة الأوقاف والشؤون الإسلامية بقياتكم وتوجيهكم، واعترافهم لجلالتكم بالفضل فيما أسديتم - جلالتكم - لهذا القطاع، من عناية ورعاية، وما أوليتموه من كبير الاهتمام، حتى أصبح بحمد الله يواكب المسيرات الأخرى التي تقودونها في جميع المجالات.

أبقاكم الله - يا مولاي - بانيا لمجد المغرب، وأقر عينكم بسمو ولي عهدكم الأمير الجليل سيدي محمد، وصنوه السعيد مولاي رشيد، وسائر أفراد أسرتكم الملكية الشريفة.

والسلام على مقامكم العالي بالله ورحمته تعالى وبركاته.



كلمة السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية في افتتاح اللجنة الوطنية للأوقاف والشؤون الإسلامية

بسم الله الرحمان الرحيم...

الحمد لله رب العالمين... وصلى الله وسلم على أشرف المرسلين...

أصحاب الفضيلة السادة الأساتذة الذين شرفونا بحضورهم...

حضرات السيدات والسادة...

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

تنفيذا للإرادة الملكية السامية الهادفة لإعداد مخطط المسار للتنمية الاقتصادية والاجتماعية للخمس سنوات القادمة 88 ـ 1992، وتمشيا مع التوجيهات المولوية الواردة في الرسالة التي وجهها مولانا أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني إلى وزيره الأول في هذا الموضوع، نفتتح اليوم اجتماعات اللجنة الوطنية للأوقاف والشؤون الإسلامية التي ستعكف على إعداد معالم مخطط المسار بالنسبة لهذه الوزارة في الفترة المشار إليها.

وأود في البداية أن أتحدث عن المنجزات التي حققتها هذه الوزارة في إطار المخطط الخماسي السابق 81 ـ 1985، وبعد ذلك نتحدث عن الآفاق والتوجهات وعن الأمور التي رأينا من المفيد بل من الضروري أن تدرج في إطار المخطط المسار المقبل.

وأبدأ بالجانب المتعلق بالأوقاف فأقول :

إن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية تعهدت خلال المخطط الخماسي 81 ـ 1985 بإنجاز 85 مسجدا قرويا، و3 مساجد حضرية، فأنجزت في الفترة الممتدة من 1983 إلى 1987 «61 مسجدا» بصفة نهائية، وتوجد الآن 33 مسجدا في طور البناء.

وهكذا تكون وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية قد أنجزت بالنسبة لهذه الفترة جميع ما كان مقررا في التصميم الخماسي وزادت عليه في إطار الميزانية الخاصة للأوقاف.

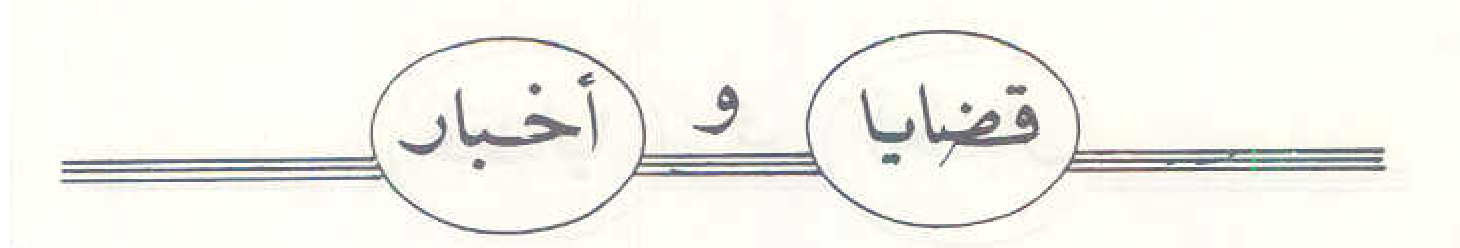
وما دمت أتحدث عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية أشير إلى أن هذه الوزارة تمتاز بتوفرها على ميزانيتين :

- الميزانية الخاصة للأوقاف.
- والميزانية العامة للدولة، التي تدعم بها الدولة ميزانية وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

ـ ففيما يخص الميزانية الخاصة للأوقاف :

وبالنسبة لبناء المؤسسات ذات العائد :

فإن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية تعهدت في التصميم الخماسي 81 ـ 1985 بإنجاز 85 عمارة وبناية من البنايات ذات العائد، كما قامت إلى حدود 1987 بإنجاز 89 عمارة.



وبالنسبة للتجزئات :

فقد تعهدت الوزارة خلال نفس التصميم بإنجاز 34 تجزئة، تم إنجاز 47 تجزئة مجهزة بجميع ما يلزمها.

وبالنسبة لإحداث بنايات النظارات :

فقد تعهدت الوزارة خلال التصميم السابق بإنجاز 9 نظارات، تم إنجازها جميعا.

وبالنسبة لاستصلاح الأراضي الفلاحية :

فقد تعهدت الوزارة باستصلاح 6825 هكتارا، تم استصلاح 697 هكتارا فقط، ورصدنا لإصلاح المساجد خلال نفس التصميم مبلغ 25.700.000 درهما، فتجاوزنا هذا الرقم ووصلنا إلى غاية هذه السنة (1987) إلى إنفاق مبلغ 56.664.000 درهما لإصلاح المساجد أي ضعف المبلغ المقرر في التصميم الخماسي 81 ـ 1985.

ـ أما بالنسبة للميزانية العامة للدولة :

ـ فقد خصصت للتصميم الخماسي 81 ـ 1985 اعتمادات لإنجاز 26 مسجدا، تم إنجاز 3 منها فقط، ويوجد مسجد واحد في طور الإنجاز نظرا لضخامته، وتحملت الأوقاف نفقة إنجاز مسجد من المساجد التي كانت من المقرر أن يتم إنجازها على حساب الميزانية العامة للدولة، فأنجزت الأوقاف مسجدين منها على حسابها وبقي 20 مسجدا بدون اعتمادات من الميزانية العامة للدولة.

ـ كما أنه خصصت اعتمادات لإنجاز 6 نظارات من الميزانية العامة للدولة، فلم تنجز منها أية نظارة لعدم رصد المبلغ في ميزانيات السنوات السابقة لهذا المشروع، كما أن الاعتمادات المخصصة للمساهمة في بناء المساجد في الخارج لم تتسلم الوزارة من الميزانية العامة للدولة أي مبلغ منها.

هذه باختصار نظرة عما تم رصده وتشييده وإنجازه في المخطط الخماسي السابق.

ـ وعن الميزانية الخاصة للأوقاف تم تجاوز القدر المالي المرصود. وهكذا فخلال الفترة السابقة وخصوصا منذ 1984 إلى 1987 لم نقم فقط بإنجاز هذه المشاريع وإنما أدينا جميع الديون التي كانت على وزارة الأوقاف، وهذا شيء مهم جدا وإيجابي.

ـ أما فيما يتعلق بالشؤون الإسلامية :

ـ فقد قامت هذه الوزارة بمجهود جبار لتحقيق الأهداف التي كانت محددة في التصميم الخماسي السابق، وزادت عليها أمورا من الأهمية بمكان تم التنبيه لها والالتفات إليها والعناية بها من خلال الدراسات التي قامت بها هذه الوزارة في هذا الميدان الخاص بالشؤون الإسلامية، وهكذا **تم ولأول مرة إحياء الكراسي العلمية** في كل من فاس ومراكش وتطوان ومكناس، ووقع التفكير في خلق نواة لهذا التعليم الجامعي الفريد من نوعه والشعبي. فقمنا بتنظيم مباراة في الأقاليم الموجودة بها هذه الكراسي لاختيار مجموعة من الطلبة تتوفر على حفظ القرآن الكريم والمتون لتكون نواة لهذا التعليم ولتشكل المجموعة التي سيتم تكوينها في إطار الكراسي العلمية برعاية من وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية التي تقدم منحا لهؤلاء الطلبة بالإضافة إلى الرواتب التي تصرف للأساتذة.

والغرض من هذا التعليم هو سد الفراغ الذي نعاني منه فيما يتعلق بتوفير الأطر الدينية الكفيلة بالقيام بمهام الإمامة والخطابة في المساجد. كما أنه **تمت العناية**



بالمجالس العلمية فقمنا بتمكينها بوسائل العمل في حدود الإمكانيات المادية المرصودة. كما أننا قمنا بتأطيرها إداريا وذلك بتزويدها بالموظفين، والزيادة في عدد الوعاظ التابعين لها. وبالإضافة إلى هذا قمنا بإنجاز دراسة ميدانية لدراسة نفوذ هذه المجالس العملية.

ـ **وبخصوص جاليتنا المقيمة في الخارج فقد زودناها بمئة من معلمي اللغة العربية قارين،** ويعملون الآن وبصفة فعلية في أوروبا، وأعددنا نوة للوعاظ الدائمين في أوروبا، **وكوّنا مجموعة من الشباب الحاصل على مستوى علمي لا بأس به ويجيد التحدث بلغات أجنبية** كالفرنسية والإنجليزية، فوجهناهم بعد قضائهم لفترة دراسية دامت سنتين بالمعهد العالي لتكوين الأطر الدينية بالدار البيضاء، واجتيازهم لفترة تدريبية دامت ثلاثة أشهر في جامع الأزهر الشريف في القاهرة ـ كتجربة أولى إلى أروبا في شهر رمضان الأبرك لهذه السنة فأعطوا نتائج رائعة.

ـ **ووطدنا العلاقات مع إخواننا الأفارقة عن طريق خلق رابطة علماء المغرب والسنيغال،** وحصلنا لها على ميزانية خاصة من ميزانية الدولة، **وقمنا بإحداث الأمانة العامة الدئمة للطريقة التجانية** وذلك بهدف مواصلة إشعاع المغرب في إفريقيا واستمرار دوره الحضاري في هذه البلاد.

ـ **كما أننا علمنا من خلال المؤتمر العالمي الأول لخطباء الجمعة على** حسن أداء يمكننا من التفرغ على المستوى العالمي بخلق الرابطة الدولية لخطباء الجمعة التي ستشهد النور قريبا، وبهذه المناسبة أزف البشري لجميع الخطباء **وهي أن أمير المومنين وحامي حمى الملة والدين ـ بعد إطلاعه حفظه الله على القانون الأساسي للرابطة الدولية لخطباء الجمعة ـ قرر أن يخصص لها مقرا دائما ومن ماله الخاص في عاصمة مملكته السعيدة.**

ـ كما أن هذه الوزارة تمكنت من **مواصلة الدور الكبير الذي يمكن أن تقوم به المدارس العتيقة** بتأطير المساجد وبتوفير العدد الكافي من القيمين الدينيين فقامت بدراسة وافية عن هذه المدارس وقررت احتضانهاعلى مرحلتين :

المرحلة الأولى وتشمل جميع المدارس العتيقة بالجنوب.

والمرحلة الثانية وتشمل جميع المدارس العتيقة بالشمال.

وفعلا وابتداء من هذه السنة (1987) تم رصد المبالغ الكافية لإعطاء المنح والرواتب لطلبة وأساتذة هذه المدارس، وهذا إنجاز مهم جدا وستكون له آثاره الحميدة بإذن الله تعالى.

ـ واعتنت الوزارة بتحفيظ القرآن الكريم **فأحدثت جائزة الحسن الثاني للقرآن الكريم** وحددتها في مبلغ 100 ألف درهم، وهي جائزة سنوية قررنا أن تنظم كل سنة بمناسبة عيد الشباب المجيد.

ولقد كانت مفاجأة حقا أن اكتشفنا في المغرب ـ بلد القرآن وبلد الإسلام ـ أطفالا في الحادية عشرة من أعمارهم يحفظون كتاب الله حفاظ وتجويدا، وقد كان لهذه الجائزة ـ التي هي حسنة من حسنات أمير المومنين ـ الأثر المحمود في إبراز الرصيد المهم الذي تتوفر عليه بلادنا.

والتفاتا إلى الوضعية التي يعيش عليها القيمون الدينيون، عملت الوزارة على الزيادة في رواتبهم وقد توصلوا بها فعلا، ونقوم الآن بإحداث بطاقة عمل رسمية

قضايا و أخبار

لكل قيم ديني تضمن حقوقه، وستوالي العمل بإذن الله تعالى - حتى تصبح رواتب القيمين الدينيين في المستوى الذي يرتاح له كل مسلم غيور على بيوت الله تعالى.

- وبالنسبة لقطاع الشؤون العامة :

- فإن الوزارة عملت في الفترة السابقة على إلغاء العمل للمتقاعدين إلا في ظروف استثنائية وبالتالي الحصول على مناصب مالية لتعويض المتقاعدين الذين أفنوا أعمارهم في خدمة هذه الوزارة بشباب متخصص، وتم تشجيعه على تحمل المسؤوليات سواء في المصالح المركزية أو في النظارات.

- كما أعتنينا بوضعية الموظف المادية والاجتماعية فقمنا بتحريك السلاليم والترقية الداخلية التي كانت مجمدة منذ سنوات تشجيعا للعناصر النشيطة. كما أننا هيأنا مشروعا لإدماج جميع موظفي وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في الميزانية العامة للدولة كسائر موظفي الدولة. وقد صودق على مبدأ هذا المشروع من طرف حكومة صاحب الجلالة، وتقرر إدماج 50 موظفا من موظفي وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية كل سنة، وهكذا فخلال السنوات القادمة سيتم إدماج الجميع ضمانا لحقوقهم ودفاعا على وضعيتهم وتشجيعا لهم وتسوية لهم مع إخوانهم في جميع الوزارات.

- كما أحدثنا جمعية للأعمال الاجتماعية لموظفي وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية تشجيعا لهم للحصول على قطع أرضية لبناء المساكن وغيرها.

وهكذا فإن هذه الوزارة قامت خلال الفترة السابقة بهذه الأعمال التي ما هي إلا **ترجمة للإرادة الملكية السامية وللعناية المولوية بقطاع الأوقاف والشؤون الإسلامية وتنفيذا لما يريده أمير المومنين وحامي حمى الملة والدين للمساجد والقيمين الدينيين ولموظفي هذه الوزارة ولقطاعي الشؤون الإسلامية والأوقاف بصفة عامة من نماء وازدهار ورقي.**

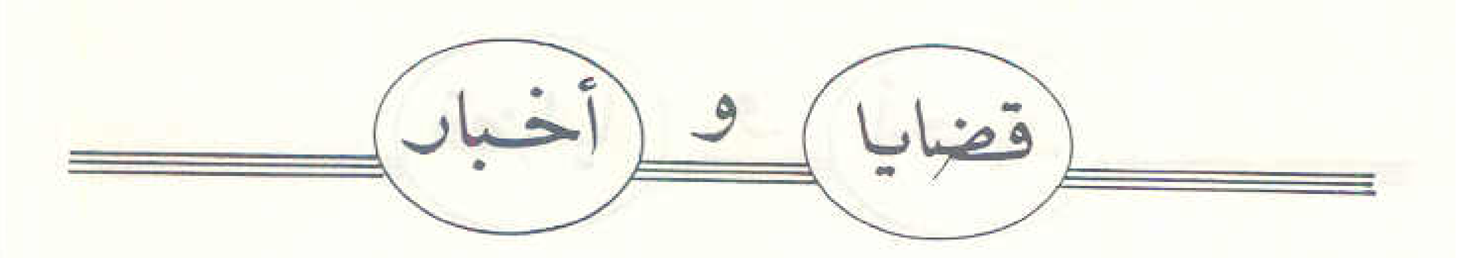
إن هذه الأعمال أيها السادة والسيدات، ما كانت لتتم ولتنجز لو لا حرص أمير المومنين حفظه الله ورعايته المباشرة لهذا القطاع.

فبفضل توجيهاته الرشيدة وتعليماته السديدة، وبفضل إخلاص المخلصين من أبناء هذه الوزارة تم تحقيق ما تحقق وسيتم بإذن الله تحقيق المنجزات التي سترسمونها في مخطط المسار للتنمية الاقتصادية والاجتماعية.

وأنتقل الآن إلى رسم بعض التوجيهات العامة والخطوط العريضة لهذا المخطط المسار بالنسبة لقطاعي الأوقاف والشؤون الإسلامية.



السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية أثناء إلقائه كلمة الافتتاح.



- فبالنسبة لقطاع الأوقاف :

نتج عن الدراسة الفاحصة لشؤون الأوقاف وتنميتها أنه لابد من السياسة اللا مركزية في تنمية الأوقاف والشؤون الإسلامية، ولابد من عملية التمويل الذاتي لمشاريع الأوقاف وذلك بأن يقع التخطيط لكل نظارة من نظارات الأوقاف كسائر الإدارات الأخرى، ويتم إنجاز المشاريع داخل مدار مدن هذه النظارات بأموال هذه النظارات.

- فالخطة السابقة كانت تعتمد على فكرة الصندوق المشترك، بحيث تباع مثلا أملاك في مراكش ويبنى بها في الدار البيضاء أو في وجدة أو في نواحي أخرى، أما هذه الخطة فتهدف إلى تمويل الأوقاف من مواردها في كل إقليم، ولا تخرج الأموال لإقليم آخر، وإلا سيتساءل بعض الناس الذين يرون قطعا أرضيةقد تم بيعها بنظارة من النظارات، وينتظرون أن ينجز مشروع في تلك النظارة فلا يظهر من أي شيء، فيتساءلون حينئذ عن مآل الأموال المتحصلة من بيع تلك الأراضي، التي تم بفضلها إنجاز مشروع في جهات أخرى من المملكة، وهذا لا يشجع المحبسين، بينما إذا بيعت أرض حبسية - اقتضت مصلحة الأوقاف بيعها - ثم أنجز بها مشروع في نفس الإقليم فإن هذا سيشجع الناس على التحبيس وسيجعلهم يطمئنون على أموال الأوقاف.

- ثانيا إنه لابد من دعم الأوقاف في حماية أراضيها الموجودة داخل المدار الحضري عن طريق رصد ميزانية كافية لاستغلال هذه الأراضي في مشاريع تعود بالنفع على الأوقاف.

لأننا نعاني مشكلا خطيرا وهو أن الأوقاف تتوفر على أراضي داخل المدار الحضري في عدد من المدن ولا تكون لها الإمكانيات لإحداث مشاريع على جميع هذه الأراضي التي توجد داخل المدارات الحضرية - فتبقى هذه الأراضي عارية، ويقع الترامي عليها من مختلف الجهات فتضيع الأوقاف مضيعة لا حدود لها. فلا بد من وضع مخطط يحدد المشاريع التي يمكنها أن تشمل جميع هذه الأراضي الموجودة داخل المدارات الحضرية على أساس دعم الأوقاف بميزانية تمكنها من إنجاز مشاريعها على هذه الأراضي.

وهكذا فإذا كان الناس يلاحظون وفي عدد من الأقاليم وجود هذه الأراضي عارية ولا يشتكي أي مالك ولا أي أحد أن تبقى عارية، فإن هذا لا ينبغي الترامي عليه، بل أنه ينبغي أن يكون دائما دافعا للتفكير في استثمارها استثمارا يعود بالنفع على الأوقاف وبالتالي على بيوت الله، كما يعود بالنفع على تلك المدن بالأقاليم التي توجد بها تلك الأملاك الحبسية.

- ثم لابد من دعم الأوقاف في دورها على مستوى المساجد وذلك برصد اعتمادات لبنائها، لأن النمو الديموغرافي للسكان وإقبال الناس على بيوت الله يلزمنا بناء أكثر ما يمكن من المساجد، والمواطنون يسهمون إسهاما مشكورا في هذا الباب فيقومون في الغالب ببناء مساجد بدون مرافق، وهذه المساجد إذا كانت بدون مرافق فإن الوزارة لا يمكن لها أن تضمها، وإذا كانت لا تضمها فإن هذا سيصبح مجالا لتعريض هذه المساجد للإهمال وسيجعلها مكانا غيرمريح من الناحية الأمنية.

قضايا و أخبار

أظن أن ضم هذه المساجد شيء ضروري من جهة العناية بها ومن جهة ضمان الأمن الروحي، لكن لابد من المرافق، فالسكان الذين يقومون ببناء المساجد ببعض مرافقها يضحون في ذلك تضحيات كبيرة، ولكن هذا لا يكفي بل لابد من تخصيص ميزانية لخدمة عملية ضم المساجد للأوقاف وذلك برصد هذه الميزانية لبناء المرافق ووجوب إيجاد ميزانية خاصة لدعم الأوقاف لبناء المساجد، فإذا كانت الأوقاف تقوم ببناء مساجد كثيرة من ميزانيتها الخاصة - وقد أعطيتكم هنا رقما قبل قليل - فإنها لا تستطيع بهذه الميزانية البسيطة بناء ما يسد حاجيات المواطنين في جميع الأقاليم.

- فلا بد إذن أن تنكب هذه اللجنة الوطنية على دراسة السبل لدعم الأوقاف في بناء المساجد في جميع نواحي المملكة، ومما له علاقة بالمساجد أيضا أن الجالية المغربية في أوربا محتاجة هي الأخرى للمساجد وكثيرا ما تقوم ببناء مساجد فتحتاج لشيء من التجهيز والتفريش، وهذا كله يتطلب رصد ميزانية خاصة بهذا الباب.

كما يجب التفكير في تزويد الأوقاف بالمناصب المالية الكافية لجلب الكفاءات العلمية الكفيلة لوحدها برعاية وتنمية الأوقاف في هذا البلد.

فإذا كانت الأوقاف تقوم بعملية التجزئات وعملية بناء العمارات السكنية وعملية استصلاح الأراضي الفلاحية وغرسها فهي لا تتوفر على مهندسين معماريين وعلى مهندسين فلاحيين وعلى اختصاصيين في الحسابات، فلابد من التفكير في إغناء الأوقاف بالأطر الإدارية ذات

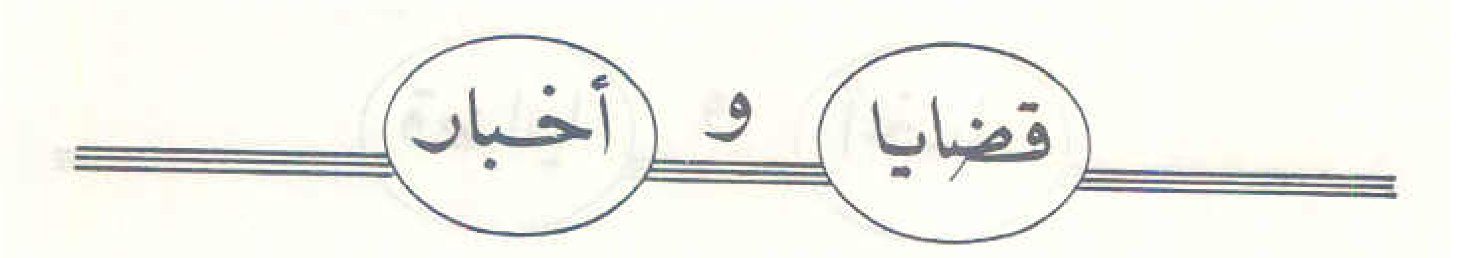
- فإن المجالس العلمية تقع في طليعة اهتماماتنا لأنها مؤسسة حسنية يمكنها أن تقوم بأكبر دور في ضمان التخصصات وذلك عن طريق رصد المناصب المالية الكافية لهذا الموضوع.

- **وبالنسبة للشؤون الإسلامية :**

الأمن الروحي للمواطن، فيمكنها أن تكون مركز إشعاع في كل إقليم ونريدها أن تكون منبرا يستقطب النشاط العلمي الثقافي، لأن المجالس العلمية إذا كانت على هذا الشكل فستخضع جميع النشاطات للطابع الإسلامي الأصيل.

نريد أن تكون بناية المجلس العلمي في كل إقليم أحسن بناية تتوفر على أكبر قاعة للمحاضرات وعلى أكبر مركز للنشاط الثقافي وعلى جميع القاعات الضرورية للمراكز الثقافية الموجودة في المدن، لأنه دائما تقع الحاجة إليها في كل نشاط ثقافي وعلمي في الإقليم وإذا وقعت الحاجة إلى هذه المجالس العلمية في هذا النشاط واحتضنتها وطبعتها بطابعها فلابد من تتبع هذا الجانب، ولا تظهر العناية بالمجالس العلمية من الناحية البشرية فقط فرؤساؤها وأعضاؤها معينون بظهير شريف ويقومون بدور فعال وبمجهود جبار رغم قلة الإمكانيات، وزادهم صاحب الجلالة دعما حين عين القواد المنسقين بينهم وبين عمال صاحب الجلالة، وهذا دعم له أثره وله فائدته عموما.

كما تتوفر هذه المجالس العلمية على شبكة من الوعاظ والمرشدين التابعة لها، وأما من الناحية المادية فإذا ذكرنا مدينة من المدن فنجدها لا تتوفر على مقر للمجلس العلمي لأنه ليس بارزا في المدينة.



- وعن الكتاتيب القرآنية أضاف معاليه.

بأن هناك مشروعا نريد أن تنكب اللجنة الوطنية على دراسته وهو من الأفكار النيرة للعبقرية الفذة لأمير المؤمنين وحامي حمى الملة والدين جلالة الملك الحسن الثاني - حفظه الله - وملخص هذا المشروع هو خلق تعليم أولي للأطفال المتراوحة أعمارهم ما بين 4 و7 سنوات يتعلمون فيه القرآن الكريم بشكل إجباري، ولا يسمح لأي طفل بالتسجيل في المدارس العمومية إلا إذا أدلى بشهادة من وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية تشهد بمروره مرحلة التعليم الأولي، أي في مرحلة الكتاتيب القرآنية وهدفنا من هذا التعليم الأولي هو حفظ القرآن الكريم، وهذا شيء مهم جدا، ومن شأنه أن يطبع الطفل منذ السنوات الأولى بالطابع الإجباري، وينور قلبه وفكره بنور القرآن، وقد تم هذا المشروع في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، فتم إحصاء ما هو متوفر من الكتاتيب القرآنية، فمنها ما هو موجود تحت إشراف وزارة التربية الوطنية، ووزارة الصناعة التقليدية والشؤون الاجتماعية ووزارة الشبيبة والرياضة، كما تم إحصاء المدررين الموجودين لتحديد الطاقة الاستيعابية لهذه الأطر، ووقع التفكير في فتح الجانب المخصص للنساء في المساجد لهؤلاء الأطفال حتى نستطيع استيعاب العدد الذي لابد من تعليمه القرآن الكريم.

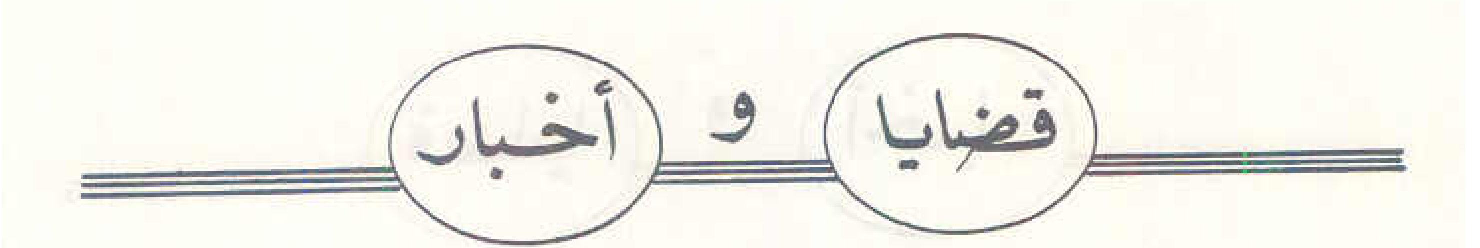
هذا المشروع موجود ومدروس، وبإمكان لجنتكم الموقرة أن تعكف عليه لتبدي ملاحظاتها عليه، وتضيف عليه اقتراحاتها المفيدة وآراءها السديدة.

- ومما يتصل بهذا الباب الاهتمام بالزيادة في الكمية المطبوعة من المصحف الحسني، لأننا هنا في المغرب نريد التمسك برواية ورش، كما نتمسك بالمذهب المالكي وبالعقيدة الأشعرية، لكن توجد في المساجد مصاحف كثيرة بقراءات أخرى لم يكن لحفظ هذه المصاحف واقتصار المساجد على المصاحف بقراءة ورش لأننا لا نتوفر على العدد الكامل من المصاحف التي ستسد حاجيات المساجد، فلابد من الاهتمام بطبع المصحف بأفضل ما يمكن لأننا لا نفكر في أنفسنا فقط ولكن في إفريقيا التي تتطلع إلينا والتي لازال مذهبها هو المذهب المالكي كما تركته فيها أسلافنا ولا زالت قراءتها هي قراءة ورش، ويطالبوننا بمصاحف ولا نجد العدد الكافي لتزويدهم به.

- كما أنه لابد من طبع مصحف حسني مرتل على الكاسيت وتوزيعه على أوسع نطاق بقراءة ورش وبالصيغة المغربية، هذا شيء ضروري.

- ثم إننا إذا كنا ننادي بخدمة المذهب المالكي الذي لن ينتشر بالنداءات لأن أسلافنا لم ينشروه بها، وإنما بالعمل لذلك. فيجب أن يقع التفكير في طبع التراث، وتوظيف إحياء التراث لخدمة المذهب المالكي، فلا يكفي الوقوف عند الفروع، بل لابد من التوجه إلى عمق المذهب المالكي ولن يتأتى ذلك إلا بتوظيف إحياء التراث المغربي والرصيد الحضاري لهذا البلد لخدمة هذا المذهب الذي ضمن وحدة هذه الأمة منذ نشأتها إلى اليوم.

إن الاهتمام بخدمة المذهب المالكي يتطلب التخطيط المستمر للعمل في حقل الدعوة الإسلامية وفق هذا المذهب حتى نتمكن من قطع الطريق على كل دخيل



أو كل من يريد أن يروج بضاعة ليست ببضاعته، لأننا في بلادنا لا نسمح لأحد أن يروج شيئا يمس أو يخالف هذا المذهب، وينبغي لتحقيق ذلك اتخاذ جميع الوسائل.

وأريد هنا أن أشير إلى مسألة مهمة مبنية على دراسة للساحة الإسلامية في المغرب وخارجه وما يعانيه المسلمون تارة بالتطرف وتارة بالصحوة وغير ذلك، إننا نضع العالم الإسلامي في هذا الوضع ليس فقط لأسباب مادية واجتماعية واقتصادية معروفة ولكن حسب اعتقادي يرجع ذلك إلى انتصاب من لا علم له بالدين في الحديث عنه وتراجع العلماء عن مواقعهم.

هذا سبب من الأسباب، ولو تحدثت معهم لوجدت أنه ليس عالما ويقول أنني داعية، فبأي شيء تدعو ولأي شيء تدعو ؟ وهل تقوم بواجب الدعوى وأنت لا علم لك بالدين وأصوله وقواعده ؟ لذلك ينبغي أن نقوم على تأصيل العمل الإسلامي ولا يباشر هذا العمل إلا الأجلاء من العلماء ونسد الباب على المدعين، هذا هو السبيل للمحافظة على سلامة الجو وصفائه ونقائه حتى لا تشوبه شائبة ولا يختلط بأمور، لأننا في الواقع أصبحنا نتحدث عن الإسلام كما نتحدث عن الفلسفة وعن شيء من الصحافة والإيديولوجية، ولكن يجب أن نوقفهم عند حدودهم وأن المواقع لها حدودها والمنابر لها أصحابها ونعاملهم بالحسنى وبالحوار حتى يعودوا إلى جادة الطريق.

ونشير لهذه الأمور لتراعوها وهذا يقتضي توظيف جميع الجزئيات الأخرى لخدمة المذهب المالكي، وخدمة قراءة ورش وخدمة العقيدة الأشعرية ودعم المذهب السني وتأصيل العمل الإسلامي، فهذه المبادئ يجب وضعها نصب أعيننا والسير على هديها حتى نبلغ المرامي إن شاء الله.

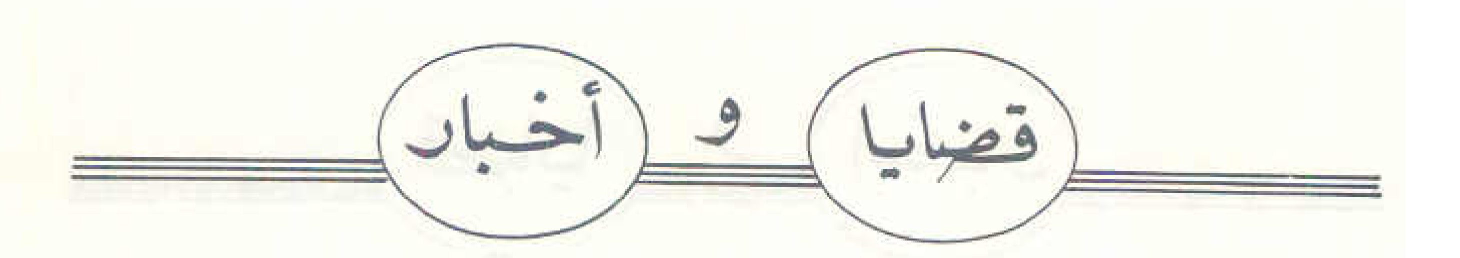
فهذه المبادئ والمناهج تقتضي منا اتباعها لأنها من فيض التوجيه الملكية السامية، وقد استمعتم إلى خطاب وتوجيهات جلالة الملك، تلك التوجيهات التي توجه بها مباشرة إلى السادة العلماء رؤساء المجالس العلمية أو التي توجه بها إلى شعبه الوفي تحت قبة البرلمان، وكذلك في عدد من المناسبات كلها تحث على اتباع هذه المبادئ السامية.

حضرات السيدات والسادة الكرام :

إنني متيقن أن اللجن التي ستنبثق عن هذا الجمع العام ستعكف بكل إخلاص وتفان على ورقة العمل التي ستقدم إليها، وستتقدم بتوصيات واقتراحات وبآراء هادفة وبناءة لأن جميع الحاضرين لهم غيرة على هذا العلم ومن طليعة الغيورين على الإسلام وعلى الأوقاف في هذا البلد الكريم.

وأسأل الله تعالى أن يكلل أعمالنا وأعمالكم بالتوفيق **وأن يجعل هذا العمل كله في صحيفة حسنات صاحب الجلالة أمير المومنين وحامي حمى الملة والدين مولانا الحسن الثاني وأن يقر عينه بسمو ولي عهده الأمير الجليل سيدي محمد، وصنوه السعيد الأمير مولاي رشيد وسائر أفراد أسرته الملكية الشريفة.**

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.



كلمة السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية في اختتام أشغال اللجنة الوطنية للأوقاف والشؤون الإسلامية

بسم الله الرحمان الرحيم...

الحمد لله رب العالمين...

وصلى الله وبارك على سيدنا محمد وعلى آله أجمعين.

السيد الوزير المنتدب لدى الوزير الأول المكلف بالتخطيط.

السيد والي صاحب الجلالة.

السيد الكاتب العام لوزارة التخطيط.

السادة رؤساء المجالس العلمية.

السادة نظار أوقاف المملكة.

حضرات السادة الأفاضل.

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

منذ أعطى سيدنا المنصور بالله تعليماته لإعداد مخطط المسار للتنمية المتعلق بالخمس سنوات المقبلة وحكومة صاحب الجلالة منكبة على إعداد هذا المخطط بما يجب من الجدية والتفاني وتوفير جميع الإمكانيات لجعله مخططا يتلاءم مع الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي تعيشها البلاد، ومع الآمال التي تختلج نفوس الشعب المغربي، والأمل الذي يراود كل مواطن غيور على بلده ومتجند لبناء مستقبله.

ووزارة التخطيط قامت مشكورة بتنظيم العمل الحكومي في هذا الميدان، والتنسيق بين جميع الأجهزة العاملة، وهكذا عقدت عدة اجتماعات للجن الوطنية المتعلقة بجميع الوزارات، كما عقدت عدة اجتماعات على المستوى الجهوي أتيحت فيها الفرصة لجميع القطاعات الاجتماعية والسياسية والنقابية والقطاع الخاص لمناقشة ملف مخطط المسار والإدلاء بآرائهم المحكمة في هذا الميدان، وتبليغ الاقتراحات الضرورية.

ووزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية على غرار جميع الوزارات عقدت اجتماعها الأول الذي حددت فيه التوجهات العامة لعمل اللجنة الوطنية الخاصة بالأوقاف والشؤون الإسلامية، وانبثقت عن هذه اللجنة عدة لجان منذ ذلك الوقت، وهي عاكفة على دراسة الملفات وعلى إعداد التوجهات اللازمة، وقد انتهت أعمال هذه اللجن - بحمد الله - في أحسن الظروف، وأعطت أحسن النتائج، ونحن اليوم نجتمع في إطار الجلسة الختامية للجنة الوطنية لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ونتشرف جدا بحضور السيد وزير التخطيط والسادة الحاضرين معنا في هذه المنصة، وهذا الحضور إن دل على شيء إنما يدل على العناية الخاصة التي توليها حكومة صاحب الجلالة أدام الله نصره وعزه لقطاع الأوقاف والشؤون الإسلامية.

قضايا و أخبار

ولا أطيل عليكم، وإنما أريد قبل أن أختم كلمتي أن أؤكد أن هذا المخطط الخماسي المقبل بالكيفية التي أعددناه بها وبالجدية التي اتسمت بها جميع اللجان وبعمق الدراسة التي تمت وبشمولية القطاعات التي شاركت، كل ذلك يبعث في نفوسنا الاطمئنان على أن هذا المخطط المسار سيكون بحول الله نقطة تحول في مسيرتنا الاقتصادية، وسيكون بحول الله تعالى فرصة لتوفير الرخاء والنماء والازدهار لبلادنا، ولاشك أن أعضاء اللجنة الوطنية للأوقاف والشؤون الإسلامية كانوا يدركون ذلك، وكانوا يدركون ما يعلقه أمير المؤمنين، جلالة الملك الحسن الثاني على أعمالهم من آمال، فقاموا جزاهم الله خيرا بكل جهد، وانكبوا على دراسة الملف بإخلاص وتفان، وبذلك أنتهز هذه الفرصة لأقدم لهم جزيل الشكر ولأعبر لهم عن اعتزازي وعن ارتياحي الكامل لجهودهم وللنتائج التي أسفرت عنها هذه الجهود.

نسأل الله تعالى أن يكلل أعمالنا وأعمالكم بالنجاح، وأن يجعل هذا المخطط المسار مخططا مباركا ميمونا على هذا البلد العزيز، وأن يكلل بالنصر والتأييد جميع أعمال أمير المومنين، وحامي حمى الملة والدين وراعي الأوقاف والشؤون الإسلامية جلالة الملك مولانا الحسن الثاني، وأن يقر عينه بسمو ولي عهده الأمير الجليل سيدي محمد وصنوه السعيد، الأمير مولاي رشيد وسائر أفراد أسرته الشريفة.

والسلام عليكم ورحمة الله.



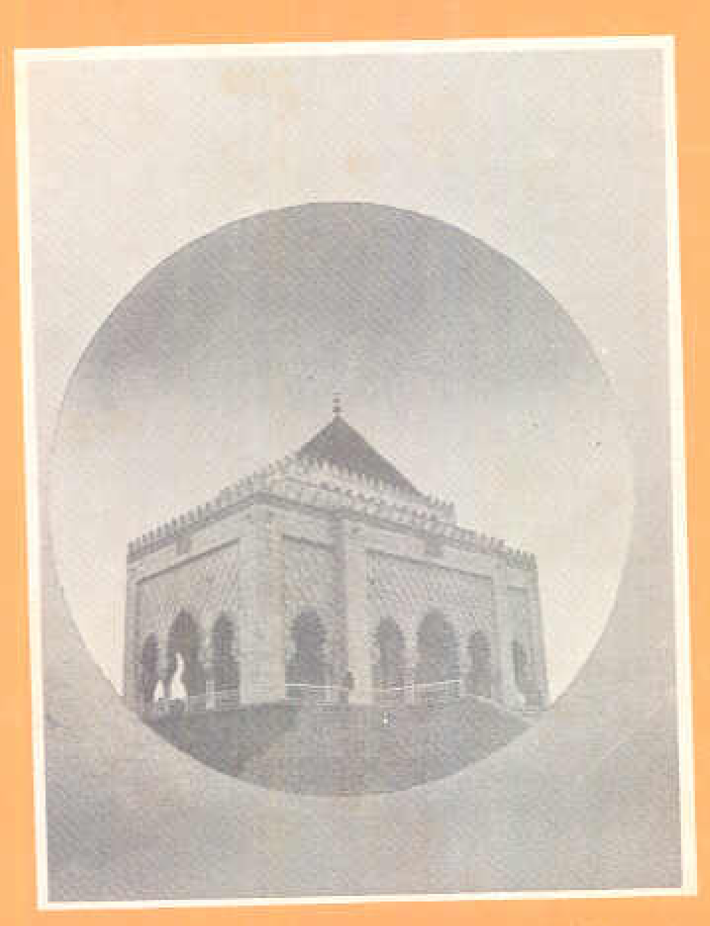
جانب من العلماء الذين شاركوا في أعمال اللجنة الوطنية للأوقاف والشؤون الإسلامية لإعداد مخطط المسار.

فهرس

مطبعة فضالة . المحمدية . المغرب

رقم الايداع القانوني 1981/3





ضريـــح بطـــل الجهـــاد جلالـــة المغفور له سيدي محمد الخامس
قـــدس الله روحـــه ، ونـــور ضريحـــه